عذاب الدنيا

في ضوء الكتاب والسنة

الباحث الإسلامي

مصطفى محمد محمد عنبوه

مكتبة الإيمان - المنصورة

ت: ٢٢٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

إهـــداء

إلى الناس جميعا: الله ينادى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧].

ونحن نقول:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٨].

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فيا أيها المسلمون عذاب الله مستمر إلى يوم القيامة وهو من نتائج أعمالنا وأقوالنا وجعله الله تكفيرا لبعض ذنوبنا فى الدنيا، فاتقوا الله وقولوا قولا سديدا، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا عظيما، فاستقبلوا البلاء بالصبر حتى تنتهى ذنوبكم فى الدنيا قبل الممات.

مع تحيات

المؤلف الفقير إلى الله

مقدمة

بشرى للمعذبين فى الدنيا

لقد خلق الله العباد بقدرته، وأرسل إليهم الرسل الكرام ليعرفوا أحكام شريعته، وقضى لهم على نفسه بالرحمة والمغفرة ومحبته، وجعل الجنة للمؤمنين السائرين على سبيل هدايته، وخلق النار عقابا للكافرين والمتكبرين عن عبادته، وجعل يوم القيامة يوم الفصل لجميع أمته، وفتح للبشرية أبواب التوبة ليرجع المسىء عن غفلته.

وجعل عذاب الدنيا تكفيرا لذنوب الضال الغارق فى ضلاله، ووعد أصحاب البلاء الصابرين على البأساء والضراء والنصب والوصب والهم والحزن بواسع رحمته، وأوحى إلى عبده ورسوله ﷺ أن قل يا محمد:

«من يرد الله به خيرا يصب منه» أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه).

وأن قل يا محمد: **«ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب – أى مرض – ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»** الحديث متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه).

وسئل رسول الله ﷺ عن أشد الناس بلاء قال:

«الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة ابتلى على قدر ذلك ، وإن كان فى دينه رقة هوّن عليه ، فما زال كذلك حتى يمشى على الأرض ما له ذنب» قال أبو عيسى الترمذى: هذا حديث حسن صحيح عن سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه).

فهنيئا للصابرين، وبشرى للمبتلين؛ لأن عذاب الله فى الدنيا يطهركم من الخطايا والذنوب قبل موتكم، ويوم القيامة يؤكد ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

أسأل المولى عز فى علاه، أن يجعل بحثى هذا خالصا لوجهه الكريم، نافعا لأمة سيد المرسلين وثقلا فى ميزانى يوم الدين، هاديا لمن بعدى من البشر إلى يوم الدين، إنه سميع مجيب.

بشالوش - مركز ميت غمر - دقهلية　　　　مع تحيات الباحث الإسلامى

٦ صفر ١٤٢٩هـ　　　　مصطفى محمد محمد عنبوه

١٣ فبراير ٢٠٠٨م　　　　ت ٠٥٠/ ٦٨٤٠٨٠٥

* * *

الباب الأول
عذاب الدنيا فى القرآن والسنة

أنزل الله تعالى القرآن الكريم تبيانا لكل شىء، وأوضح فيه جزاء الموحدين وعقاب الظالمين، وجعل النار ردعا للناشزين عن طريقه المستقيم وجعل البلاء والعذاب فى الدنيا لإصلاح ما أفسدته عقول الضالين عن سبيله حتى يتعظوا ويرجعوا إلى طريق الهداية.

ولذلك وبتوفيق من الله قسمت هذا الباب إلى فصول ثلاثة هى:

الفصل الأول: عذاب الدنيا فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية

الفصل الثانى: عذاب الدنيا لآدم عليه السلام وولده قابيل

الفصل الثالث: عذاب الدنيا لقوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود

* * *

الفصل الأول
عذاب الدنيا فى القرآن الكريم

وردت كلمة العذاب ومشتقاتها فى القرآن الكريم فى (٣٨٥) موضعا بآيات الله، أما كلمة العذاب فى الدنيا فلقد وردت فى مواضع عدة نذكر منها:

١ - وفى سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ٤٩].

٢ - وفى سورة البقرة:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

٣ - وفى سورة المائدة:

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة: ٣٣].

٤ - وفى سورة الأنعام:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٧].

٥ - وفى سورة التوبة:

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [التوبة: ١٤].

٦ – وفي سورة التوبة:

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة: ٥٥].

٧ – وفي سورة يونس:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يونس: ٥٠].

٨ – وفي سورة الكهف:

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف: ٨٧].

٩ – وفي سورة الحج:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحج: ٨].

١٠ – وفي سورة النور:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النور: ٢٣].

١١ – وفي سورة الحشر:

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ﴾ [الحشر: ٣].

* * *

ثواب عذاب الدنيا
فى السنة النبوية

من عدل الله ورحمته؛ أن جعل عذاب الدنيا لـه فضلاً كبيراً على البشر، وخيراً عظيماً على المبتلين الصابرين من عباده، وأجراً واسعاً منه سبحانه وتعالى يوم القيامة، فلا عقابين على ذنب واحد فى شريعة الله، ولا يظلم ربك أحدا.

ولذلك أوحى الله تعالى إلى نبيه ورسوله ﷺ أن يوضح ويبين ثواب عذاب الدنيا، والفضائل التى يجنيها العبد الصابر فى حياته وقبل موته، وهى:

لحم طيب ودم نقى

أخرج الإمام مالك فى الموطأ، عن عطاء بن يسار (رضى الله عنه) قال: **«إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين ، فقال: انظرا ماذا يقول لعواده ، فإن هو إذا جاؤوه حمد الله وأثنى عليه ، رفعا ذلك إلى الله عز وجل – وهو أعلم – فيقول: لعبدى علىّ إن توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدل له لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، وأن أكفر عنه سيئاته»**.

حظ المؤمن من النار فى الدنيا

أخرج ابن ماجه فى سننه، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ أنه عاد مريضا ومعه أبو هريرة، من وعك كان به، فقال رسول الله ﷺ : **«أبشر فإن الله يقول: هى نارى -أى الحمى - أسلطها على عبدى المؤمن فى الدنيا ، لتكون حظه من النار فى الآخرة»**.

تكفير الذنوب

روى البخارى ومسلم عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ : **«ما من مرض ، أو وجع يصيب المؤمن إلا كان كفارة لذنوبه حتى الشوكة يشاكها أو النكبة ينكبها»**.

كتابة أجر عمل صالح لم تفعله

روى البخارى فى صحيحه، عن أبى موسى الأشعرى (رضى الله عنه) قال: سمعت النبى ﷺ - غير مرة ولا مرتين - يقول : **«من كان يعمل عملا من حيى ، فشغله عنه مرض»** أو قال: **«سفر أو سقم؛ كتب له كصالح ما كان يعمل وهو صحيح»**.

الجنة عوضا عن العمى

أخرج البخارى، عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله عز وجل: إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه - أى عينيه - ثم صبر ، عوضته الجنة»**.

من رضى له الرضى

أخرج أبو عيسى الترمذى وقال: حديث حسن غريب، عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ أنه قال: **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله عز وجل ، إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط»**.

الخير كله للمؤمن

روى مسلم فى صحيحه عن صهيب بن سنان (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: **«عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له»**.

ثواب خمسين صديقا

أخرج ابن أبى الدنيا، والبيهقى فى الشعب، عن الحسن قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال: **«هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا ، ألا إنه من رغب فى الدنيا ، وطال أمله فيها ، أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علما بغير تعلم ، وهدى بغير هداية ، ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل ، ولا المحبة إلا باتباع الهوى ، ألا فمن أدرك ذلك**

الزمـان مـنكم فصـبر علـى الفقـر وهـو يقـدر علـى الغنـى ، وصـبر علـى البغضـاء وهـو يقـدر علـى المحبـة ، وصـبر علـى الـذل وهـو يقـدر علـى العـز ، لا يريـد بـذلك إلا وجـه الله تعالى ، أعطاه الله ثواب خمسين صديقا».

صبر على فقد ولد فأعطاه الله سبعة

روى البخارى ومسلم والطبرانى، عن الرميصاء أم سليم - رحمها الله - أنها قالت: توفى ابن لى، وزوجى أبو طلحة غائب، فقمت فسجيته فى ناحية البيت، فقدم أبو طلحة، فقمت فهيأت لـه إفطاره، فجعل يأكل، فقال: كيف الصبى، قلت: بأحسن حال بحمد الله ومنه، فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنعت لـه أحسن ما كنت أتصنع لـه قبل ذلك، حتى أصاب منى حاجته، ثم قلت:

ألا تعجـب مـن جيراننـا، قـال: مـا لهـم، قلـت: أعيـروا عاريـة، فلمـا طلبـت مـنهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ما صنعوا، فقلت: هذا ابنك كان عارية من الله تعالى، وإن الله قد قبضـه إليـه، فحمد الله واسترجع، ثم غدا علـى رسول الله ﷺ فـأخبره، قـال: «**اللهم بارك لهما فى ليلتهما**»، قال الراوى: فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرؤوا القرآن.

نيل رضوان الله بكلمة

أخـرج ابـن ماجـه والترمـذى وقـال: حسـن صـحيح، عـن بـلال بـن الحـارث (رضـى الله عنـه) قـال: قـال رسـول الله ﷺ : «**إن الرجـل ليـتكلم بالكلمـة مـن رضـوان الله ، مـا يظـن أن تبلـغ بـه مـا بلغـت ، فيكتـب الله بهـا رضـوانه إلـى يـوم القيامـة ، وإن الرجـل ليـتكلم بالكلمـة مـن سـخط الله ، مـا يظـن أن تبلـغ بـه مـا بلغـت ، فيكتـب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة**».

تضحك الناس فتهوى فى جهنم

أخرج ابن أبى الدنيا بسند حسن، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال النبى ﷺ : «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه ، يهوى بها أبعد من الثريا**» أى أبعد أعلى النار.

لا تعيّر أخاك ولك الأجر

أخرج أحمد والطبرانى بإسناد جيد، عن جابر بن سليم وهو - أبو جرى الهجيمى - رضى الله عنه، قال: قال أعرابى لرسول الله ﷺ : أوصنى، قال: «**عليك بتقوى الله ، وإن امرؤ عيرك بشىء يعلمه فيك ، فلا تعيره بشىء فيه ، يكن وباله عليه وأجره لك ، ولا تسبن شيئا**».

الكذاب يعذب فى قبره

أخرج البخارى من حديث سمرة بن جندب (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «**رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى: قم ، فقمت معه ، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم ، والآخر جالس ، بيد القائم كلوب من حديد ، يلقمه فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده ، فإذا مده رجع الآخر كما كان ، فقلت للذى أقامنى: ما هذا ، فقال: هذا رجل كذاب يعذب فى قبره إلى يوم القيامة**».

الفضيحة إذا تتبعت عورة أخيك

أخرج ابن أبى الدنيا، وأبو داود بإسناد جيد، عن أبى برزة (رضى الله عنه) قال: قال البراء بن عازب: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق فى بيوتهن فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه: لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه ، تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته**».

عذاب البول والغيبة

أخرج ابن أبى الدنيا، وأبو العباس الدغولى بإسناد جيد، من حديث جابر (رضى الله عنه) قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى مسيرة، فأتى على قبرين يعذب صاحباهما، فقال: **«إنهما يعذبان ، وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله»**. فدعا بجريدة رطبة، أو جريدتين فكسرهما، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر، وقال: **«أما إنه سيهون من عذابهما ، ما كانتا رطبتين أو ما لم ييبسا»**.

ثواب من كظم غيظا

أخرج أبو داود والترمذى وحسنه، وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ : **«من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه ، دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يخيره فى أى**
الحور شاء».

رد مظلمة أخيك فى الدنيا

روى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«من كانت لأخيه عنده مظلمة فى عرض أو مال ، فليستحللها منه ، من قبل أن يأتى يوم ، ليس هناك دينار ولا درهم ، إنما يؤخذ من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات ، أخذ من سيئات صاحبه ، فزيدت على سيئاته»**.

تحيز لك الدنيا بثلاث

أخرج الترمذى، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه: من حديث عبيد الله بن محصن (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه وله قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»**.

اعف عن قريبك يغفر الله لك

روى البخارى ومسلم من حديث عائشة (رضى الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ : **«لما حلف أبو بكر – رضى الله عنه – ألاَّ ينفق على مسطح – وكان قريبه لكونه تكلم فى واقعة الإفك نزل قول الله تعالى:**

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٢]**»**.

قال أبو بكر: نعم نحب ذلك، وعاد إلى الإنفاق عليه.

التكبر والثرثرة فى الدنيا

أخرج أحمد من حديث أبى ثعلبة الخشنى (رضى الله عنه) وفيه انقطاع، قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن من أحبكم إلينا وأقربكم مجالساً منا فى الآخرة ، أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا: الثرثارون المتشدقون والمتفيهقون»** قالوا يا رسول الله: قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: **«المتكبرون»**.

يحشرون مثل النمل

أخرج الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (رضى الله عنهم) وقال: حديث غريب عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«يحشر المتكبرون يوم القيامة فى مثل صور الذر – تطؤهم الناس – ذرا فى مثل صور الرجال ، يعلوهم كل شيء من الصغار ، ثم يساقون إلى سجن فى جهنم يقال له: بولس ، يعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار»**.

كالحمار فى الدنيا

روى البخارى ومسلم من حديث أسامة بن زيد (رضى الله عنهما) عن النبى ﷺ : أنه قال: **«يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتابه - أى أمعاؤه - فيدور بها**

كما يدور الحمار بالرحى ، فيطيف به أهل النار ، فيقولون: ما لك ، فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه ، وأنهى عن الشر وآتيه».

التمس رضا الله فى الدنيا

أخرج الترمذى والحاكم، وفى مسند الترمذى من لم يسم من حديث عائشة (رضى الله عنها): كتب معاوية رحمه الله إلى عائشة (رضى الله عنها): أن اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى، فكتبت إليه: من عائشة إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«من التمس رضا الله بسخط الناس ، كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس ، وكله الله إلى الناس»** والسلام عليك.

الرجم يلغى عذاب الآخرة

أخرج مسلم من حديث بريدة بن الخصيب (رضى الله عنه) أن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى، فرده، فلما كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله: إنى قد زنيت فرده الثانية، فلما كان فى الثالثة، أمر به فحفر له حفرة، ثم أمر به فرجم.

فكان الناس فيه فريقين، فقائل يقول: لقد هلك وأحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أصدق من توبته، فقال رسول الله ﷺ : **«لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»**.

وجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله، إنى قد زنيت فطهرنى، فردها، فلما كانت من الغد قالت: يا رسول الله: لم تردنى، لعلك تريد أن تردنى كما رددت ماعزا، فوالله إنى لحبلى، فقال رسول الله ﷺ : **«أما الآن فاذهبى حتى تضعى»**، فلما ولدت أتت بالصبى فى خرقة، فقالت: هذا قد ولدته، قال: **«اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه»**، فلما فطمته أتت بالصبى وفى يده كسرة خبز، فقالت: يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل

خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله ﷺ سبه إياها فقال: **«مهلا يا خالد: فوالذى نفسى بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، ثم أمر بها»** فصلى عليها ودفنت.

الدرجة العالية ببلاء شديد

روى أبو داود، وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمى عن أبيه عن جده، وقال صحيح لغيره، عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى ، لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك»**.

عطاء الله للعاصى استدراج

روى أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب بسند حسن، عن عقبة بن نافع (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ أنه قال: **«إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته ، فاعلموا أن ذلك استدراج»** ثم قرأ قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

تعجيل العقوبة فى الدنيا

أخرج أحمد والطبرانى بإسناد صحيح من رواية الحسن البصرى (رضى الله عنه) قال: إن رجلا من الصحابة (رضى الله عنهم) رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية فكلمها ثم تركها، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط، فأثر فى وجهه، فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال: **«إذا أراد الله بعبد خيرا ، عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا»**.

ثواب الهين اللين فى الدنيا

أخرج الترمذى من حديث ابن مسعود (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«أتدرون من يحرم على النار يوم القيامة ، كل هين لين سهل قريب»**.

الحسد جائز فى اثنتين

أخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر (رضى الله عنهما) عن رسول الله ﷺ قال: **«لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله تعالى علما ، فهو يعمل به ويعلمه الناس».**

ثم فسر ذلك فى حديث أبى كبشة الأنمارى فقال: **«مثل هذه الأمة مثل أربعة: رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا ، فيقول: رب لو أن لى مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله ، فهما فى الأجر سواء».**

وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه.

«ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ، فهو ينفقه فى معاصى الله ، ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا ، فيقول: لو أن لى مثل مال فلان ، لكنت أنفقته فى مثل ما أنفقه فيه من المعاصى ، فهما فى الوزر سواء».

ماذا أعددت لآخرتك

روى البخارى ومسلم من حديث أنس بن مالك (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ، قام أعرابى إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقال: يا رسول الله متى الساعة، فقال ﷺ : **«ماذا أعددت لها؟»** قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا أنى أحب الله ورسوله، فقال: **«أنت مع من أحببت».**

* * *

الفصل الثانى
آدم عليه السلام وعذاب الدنيا

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن قسامة بن زهير: سمعت الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود ، وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك**»، وقال الترمذى: حديث صحيح.

وقد ذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح، عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا:

فبعث الله عز وجل جبريل فى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشيننى، فرجع ولم يأخذ، وقال رب: إنها عاذت بك فأعذتها، فبعث الله ميكائيل، فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت، فعاذت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلط، ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين.

فصعد به فبل التراب حتى عاد طينًا لازبا، واللازب: هو الذى يلزق بعضه ببعض، ثم قال للملائكة: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عليه، فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، وكان أشدهم منه فزعا إبليس فكان يمر به فيضربه، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة، فذلك حين يقول سبحانه وتعالى: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

ويقول: لأمر ما خلقت، ودخل من فيه وخرج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه.

نفخ الروح فى آدم

فلما بلغ آدم الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح، فدخلت الروح فى رأسه عطس، فقالت الملائكة: قل الحمد لله، فقال: الحمد لله، فقال الله له: رحمك ربك، فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح فى جوفه، اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، وذلك حين يقول الله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

ورى ابن عساكر: قال عمر بن عبد العزيز: لما أمرت الملائكة بالسجود، كان أول من سجد منهم إسرافيل، فآتاه الله أن كتب القرآن فى جبهته.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا عمرو بن محمد، عن إسماعيل بن رافع المقبرى، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من تراب ، ثم جعله طينا ثم تركه ، حتى إذا كان حمأ مسنونا ، خلقه الله وصوره ، ثم تركه حتى إذا كان صلصالا كالفخار ، قال: فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم ، ثم نفخ الله فيه من روحه ، فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه الله رحمة به ، فقال الله: يرحمك ربك ، ثم قال الله: يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم: فانظر ماذا يقولون ، فجاء فسلم عليهم فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، فقال: يا آدم: هذه تحيتك وتحية ذريتك ، فقال: يا رب: وما ذريتى ، قال: اختر يدى يا**

آدم ، قال: أختار يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين ، فبسط كفه فإذا من هو كائن من ذريته فى كف الرحمن ، فإذا رجال منهم أفواههم النور ، وإذا رجل يعجب آدم نوره ، قال: يا رب من هذا ، قال: ابنك داوود ، قال: يا رب فكم جعلت له من العمر؟ قال: جعلت له ستين ، قال: يا رب ، فأتم له من عمرى حتى يكون عمره مائة سنة ، ففعل الله ذلك ، وأشهد على ذلك ، فلما تقدم عمر آدم ، بعث الله ملك الموت ، فقال آدم: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ، فقال له الملك: أو لم تعطها ابنك داوود ، فجحد ذلك ، فجحدت ذريته ، ونسى فنسيت ذريته».

أهل الجنة وأهل النار

وقال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا أبو الربيع عن يونس بن ميسرة، عن أبى إدريس، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال:

«خلق الله آدم حين خلقه ، فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر ، وضرب كتفه اليسرى ، فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم ، فقال للذى فى يمينه: إلى الجنة ولا أبالى ، وقال للذى فى كتفه اليسرى: إلى النار ولا أبالى».

وفى رواية زيد فيها:

فقالوا يا رسول الله: فيم العمل، قال: **«اعملوا فكل ميسر لما خلق له».**

وفى رواية أخرى: خرج النبى ﷺ ومعه كتابان، قالوا: ما هذا يا رسول الله، قال: **«أما هذا الكتاب ففيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم وبلادهم ، وأما هذا الكتاب ففيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم وبلادهم».**

وفى حديث صححه العلامة محمد ناصر الدين الألبانى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان فقال: **«أتدرون ما هذان الكتابان»** فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تخبرنا، فقال: للذى فى يده اليمنى: **«هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا»،**

ثم قال للذى فى شماله: **«هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم ، فلا يزاد فيهم ، ولا ينقص منهم»**، فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله: إن كان أمر قد فرغ منه، فقال: **«سددوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب النار ، يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أى عمل»**، ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما، ثم قال: **«فرغ ربكم من العباد فريق فى الجنة وفريق فى السعير»**، صحيح الجامع الألبانى رقم ٨٤٨).

الميثاق من ظهر آدم

وقال الإمام مالك بن أنس (رضى الله عنهما) فى موطئه، عن زيد بن أبى أنيسة: أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى، أن عمر ابن الخطاب سئل عن هذه الآية:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فقال ابن الخطاب (رضى الله عنه): سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها، فقال: **«إن الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ، قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»**.

فقال رجل: يا رسول الله: ففيم العمل، قال رسول الله ﷺ : **«إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخل به الجنة ، وإذا خلق الله العبد للنار ، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخل به النار»**، رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد قوى على شرط مسلم، حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير - يعنى ابن حازم - عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) عن النبى ﷺ قال:

«إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذّرية ذرأها ، فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلا ، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]**».**

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٣].

إكرام الله لآدم عليه السلام

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٣١].

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣٢].

﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٣].

أخبر الله تعالى: أنه خاطب الملائكة قائلا لهم: إنى جاعل فى الأرض خليفة، فهو أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا.

فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته، كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض والتنقص لبنى آدم، والحسد لهم، كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال قتادة: قيل: علموا أن ذلك كائن بما رأوه ممن كان قبلهم وهم الجن.

وقال عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضى الله عنهما): كانت الجن قبل آدم بألفى عام، فسفكوا الدماء، فبعث الله لهم جندا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور.

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

أى أننا نعبدك دائما لا يعصيك منا أحد فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك، فها نحن لا نفتر ليلا ونهارا عن عبادتك.

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء ما لا تعلمون، أى سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون.

ثم قالت الملائكة: لن يخلق الله أعلم ولا وأعبد منا، وأضمروا ذلك فى صدورهم.

الكرامات

فلقد أكرم الله سيدنا آدم بأربع كرامات وهى:

١ – خلقه بيده:

فلقد قال مجاهد، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضى الله عنهم جميعا) بإسناد جيد على شرط مسلم:

(خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش، والقلم، وآدم، وجنة عدن، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان).

ورواه الترمذى وزاد فيه: (واحتجب من الخلق بأربع: بنار وظلمة وبنور وظلمة).

٢ – نفخ فيه من روحه:

حيث يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ٢٩].

٣ – وأمر الملائكة بالسجود له:

حيث يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ٢٩].

٤ – علمه الأسماء كلها:

حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٣١].

وجاء فى الخبر:

أن آدم عليه السلام قال: إن الله تعالى أعطى أمة محمد ﷺ أربع كرامات لم أعطانيها:

١ - أن قبول توبتى كان بمكة، وأمة محمد يتوبون فى كل مكان فيقبل الله توبتهم.

٢ - إنى كنت لابسا، فلما عصيت الله جعلنى عريانا، وأمة محمد يعصون الله عراة فيلبسهم الله.

٣ - إنى لما عصيت ربى فرق بينى وبين امرأتى حواء، وأمة محمد يعصون الله ولا يفرق بينهم وبين أزواجهم.

٤ - إنى عصيت الله فى الجنة فأخرجنى منها، وأمة محمد يعصون الله خارج الجنة فيدخلونها بالتوبة.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٣١].

إن كنتم صادقين فى ظنكم أنبئونى بأسماء هؤلاء.

قال ابن عباس (رضى الله عنهما): هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس، مثل: إنسان، دابة، أرض، سهل، بحر، حبل، حمار، جمل، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

وقال مجاهد: علمه اسم الصفحة، القدر، حتى الفسوة، والفسية.

وقال الربيع: علمه أسماء الملائكة، وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته.

والقول الراجح:

علم الله آدم الأسماء كلها صغيرها وكبيرها على التمام والكمال، فلقد روى البخارى ومسلم من طريق سعيد وهشام، عن قتادة عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) عن رسول الله ﷺ قال: «**يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم ، فيقولون: أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ، وعلمك الأسماء كلها...**».

ومعنى الأسماء كلها: أى أسماء كل ما هو كائن إلى يوم القيامة من إنس وجن وشجر وحجر ومدر وحيوانات وطيور وجمادات، والله تعالى أعلم وأعلى.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال الله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال الحسن البصرى: (قاس إبليس وهو أول من قاس)

وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس، رواهما ابن جرير.

ومعنى هذا:

إن إبليس نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أشرف من آدم، فامتنع من السجود له، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود، والقياس إذا كان مقابلا للنص، كان فاسد الاعتبار، ثم هو فاسد فى نفسه فإن الطين أنفع وخير من النار؛ لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق.

وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة، قالوا: كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا، وكان اسمه عزازيل، والحارث وكنيته: أبو كردوس، وكان من حى من الملائكة، يقال لهم: الجن، وكانوا خزان الجنان، وكان إبليس من أشرفهم، ومن أكثرهم علما وعبادة، وكان أولى الأجنحة الأربعة، فمسخه الله شيطانا رجيما.

وقال الله تعالى فى سورة ص :

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص: ٧٧ - ٨٥].

مناظرة إبليس وآدم مع الله

قال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال:

(إن إبليس لعنه الله تعالى قال: يا رب أخرجتنى من الجنة من أجل آدم وإنى لا أستطيعه إلا بسلطانك، قال: فأنت مسلط، قال: يا رب زدنى، قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله، قال: يا رب زدنى، قال: أجعل صدورهم مساكن لكم، وتجرون منهم مجرى الدم، قال: يا رب زدنى، قال: اجلب بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا).

فقال آدم عليه السلام:

(يا رب: قد سلطته علىّ وإنى لا أمتنع عنه إلا بك، قال تبارك وتعالى: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء، قال: يا رب زدنى، قال: الحسنة بعشر وأزيد، والسيئة واحدة أو أمحوها، قال: يا رب زدنى، قال: باب التوبة مفتوح ما كانت الروح فى الجسد، قال: يا رب زدنى، قال: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وذكره ابن كثير فى تفسيره ص ٥٩ جزء ٤.

الطرد من الجنة

يقول الله تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [البقرة: ٣٦].

ولقد حكى السدى عن أبى صالح وأبى مالك، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا:

(أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشى فيها وحشياً ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومة، فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت، قالت: امرأة، قال: ولم خلقت، قالت: لتسكن إلىّ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم، قال: حواء، قالوا: ولم كانت حواء، قال: لأنها خلقت من ضلع حى.

وقال البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث زائدة، عن ميسرة الأشجعى عن أبى حازم، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ أنه قال: **«استوصوا بالنساء خيرا ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا»**.

ولما خلق الله حواء، أصبحت حياة آدم معها فى الجنة، يأكلان ما لذ وطاب من أشجارها، وقال الله لهما: لا تقربا هذه الشجرة، قالوا: إنها شجرة الكرم، وأنها الحنطة، والنخلة، والتينة والله أعلم.

واختلف المفسرون وأهل العلم على مكان الجنة: أهى فى السماء، أم فى الأرض، وهل هى جنة المأوى، أم هى جنة الخلد، أم هى جنة أعدها الله لهما، وجعلها دار ابتلاء، وليست جنة الخلد التى جعلها الله دار جزاء.

وقال الله تعالى فى سورة طه:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه: ١٢٠].

وقال الله سبحانه فى سورة الأعراف:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢١، ٢٢].

العرى

قال الشيطان لعنه الله: ما نهاكما ربكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، أى لو أكلتما منها لصرتما كذلك. وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم، وهى التى شجعته على أكلها. وفى كتاب التوراة التى بأيدى أهل الكتاب: أن الذى دل حواء على الأكل من الشجرة هى الحية، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها، فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام، فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر، والله أعلى وأعلم. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسن بن أسكاب، حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى كعب، قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن الله خلق آدم رجلا طوالا ، كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه ، فأول ما بدا منه عورته ، فلما نظر إلى عورته ، جعل يشتد فى الجنة ، فأخذت شعره شجرة فنازعها ، فناداه الرحمن عز وجل: يا آدم ، منى تفر ، فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب.. لا ولكن استحياء»**.

وروى الحافظ ابن عساكر، عن مجاهد قال: أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره، فنزع جبريل التاج عن رأسه، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه، وتعلق به غصن، فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة، فنكس رأسه يقول: العفو، العفو، فقال الله تعالى: أفرار منى ؟ قال: بل حياء منك يا سيدى.

وقال الأوزاعى عن حسان - وهو ابن عطية -: مكث آدم فى الجنة مائة عام، وفى رواية ستين عاما، وبكى على الجنة سبعين عاما، وبكى على خطيئته سبعين عاما، وبكى على ولده هابيل حين قتل أربعين عاما.

وعن الحسن قال: أهبط الله آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستميان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان.

وقال السدى: نزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الأسود، وقبضة من ورق الجنة فنبتت شجرة الطيب هناك.

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرنى عوف، عن قسامة بن زهير، عن أبى موسى الأشعرى (رضى الله عنه) قال: أن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل وشيء، وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

توبة آدم

يقول الله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٣٧].

قال ابن أبى نجيح، عن مجاهد، قال: الكلمات التى تاب الله بها على آدم هى: (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم).

وروى الحاكم فى مستدركه من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس (رضى الله عنهما): ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: ٣٧] قال آدم: يا رب.. ألم تخلقنى بيدك، قيل له: بلى، ونفخت فى من روحك،

قيل له: بلى، وعطست فقلت يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك، فقيل له: بلى، وكتبت على أن أعمل هذا، فقيل له: بلى، قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة، قال: نعم).

وروى الحاكم والبيهقى وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب.. أسألك بحق محمد إلا غفرت لى ، فقال الله: كيف عرفت محمدا ، ولم أخلقه بعد ، فقال: يا رب ، لأنك لما خلقتنى بيدك ، ونفخت فى من روحك ، رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله: صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلى وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك»**.

قال البيهقى: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف.

وفاة آدم عليه السلام

قال محمد بن إسحاق: لما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث (وهو الابن الذى وهبه الله خلفا بعد مقتل هابيل) وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك.

وكانت الوفاة يوم الجمعة، حيث جاءته الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عز وجل من الجنة، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثاً عليه السلام، وقال ابن إسحاق: الشمس كسفت والقمر سبعة أيام بلياليهن.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة عن حميد، عن الحسن، عن يحيى - وهو ابن ضمرة السعدى قال:

رأيت شيخا بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أبى بن كعب، فقال: إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أى بنى.. إنى أشتهى من ثمار الجنة.

قال: فذهبوا يطلبون له، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحى والمكاتل، فقالوا لهم: يا بنى آدم: ما تريدون وما تطلبون - أو ما تريدون، وأين تطلبون، قالوا:

أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى أبوكم فجاؤوا، فلما رأتهم حواء عرفتهم، فلاذت بآدم، فقال: إليك عنى فإنى أتيت من قبلك، فخلى بينى وبين ملائكة ربى عز وجل.

فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه، وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه، ثم أدخلوه قبره، فوضعوه فى قبره، ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بنى آدم: هذه سنتكم إسناد صحيح.

واختلفوا فى موضع دفنه، فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذى أهبط فيه فى الهند، وقيل: بجبل أبى قبيس بمكة، ويقال: أن نوحا عليه السلام، لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء فى تابوت فدفنهما ببيت المقدس، حكى ذلك ابن جرير.

وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة، وكان عمر آدم حين الوفاة اكتتب فى اللوح المحفوظ ألف سنة، وسبحان ربى وجل المتفرد بالبقاء.

قابيل وعذاب الدنيا

يقول الله تعالى:

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧].

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المائدة: ٢٨].

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المائدة: ٢٩].

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة: ٣٠].

قال السدى فيما ذكر عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ :

(أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر.

حتى ولد لـه ابنان يقال لهما: هابيل وقابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما وكان لـه أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال: هى أختى ولدت معى وهى أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها.

فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى... وأنهما قربا قربانا إلى الله عز وجل أيهما أحق بالجارية.. وكان آدم عليه السلام قد غاب عنهما، أتى مكة ينظر إليها.

قال الله عز وجل: هل تعلم أن لى بيتا فى الأرض ؟ قال: اللهم لا، قال: إن لى بيتا فى مكة فأته، فقال آدم للسماء: احفظى ولدى بالأمانة فأبت.

وقال للأرض فأبت، وقال للجبال فأبت، فقال لقابيل: فقال: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك.

فلما انطلق آدم، قربا قربانا، وكان قابيل يفخر عليه، فقال: أنا أحق بها منك هى أختى وأنا أكبر منك وأنا وصى والدى.

القربان

قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن أبى المغيرة عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) قال: (إن ابنى آدم اللذين قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، وأنهما أمرا أن يقربا قربانا، وإن صاحب الغنم أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها، طيبة بها نفسه، وإن صاحب الحرث قرب أشر حرثه (الكودن والزوان) نبات سيئ، غير طيبة بها نفسه.

وفى رواية أخرى:

قرب هابيل جذعة سمينة، وقرب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها، فنزلت النار، فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب، وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختى، فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الأنصارى، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن على بن الحسين، قال: (قال آدم عليه السلام لهابيل وقابيل: إن ربى عهد إلى أنه كائن من ذريتى من يقرب القربان، فقربا قربانا، حتى تقر عينى إذا تقبل قربانكما، فقربا، وكان هابيل صاحب غنم، فقرب أكولة غنم خير ماله، وكان قابيل صاحب زرع فقرب مشاقة من زرعه، فانطلق آدم معهما، ومعهما قربانهما، فصعدا الجبل، فوضعا قربانهما ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما، ينظران إلى القربان، فبعث الله نارا حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق، فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل.

فانصرفوا، وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه، فقال: ويلك يا قابيل، رد عليك قربانك، فقال قابيل: أحببته فصليت على قربانه، ودعوت له فتقبل قربانه ورد على قربانى، فقال قابيل لهابيل: لأقتلنك وأستريح منك، دعا لك أبوك فصلى على قربانك فتقبل قربانك.

القتل

ذكر أبو جعفر الباقر: أن آدم كان مباشرا لتقريبهما القربان، والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منك لأنك دعوت لـه ولم تدع لى، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه.

فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما بطأ به، فلما ذهب إذا هو به، فقال لـه: تقبل منك ولم يتقبل منى.

فقال: إنما يتقبل الله من المتقين، فغضب هابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله، وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته، وقيل: بل خنقه خنقا شديدا وعضه كما تفعل السباع فمات، والله أعلم.

وفى رواية أخرى:

قال عبد الله بن وهب: عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، قال: (أخذ برأسه ليقتله، فاضطجع لـه وجعل يغمز رأسه وعظامه، ولا يدرى كيف يقتله، فجاءه إبليس فقال: أتريد أن تقتله، قال: نعم، قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه، قال: فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه، ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعا، فقال: يا حواء، إن قابيل قتل هابيل، فقالت لـه: ويحك وأى شىء يكون القتل، قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك، قالت: ذلك الموت، قال: فهو الموت.

فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهى تصيح، فقال: ما لك ؟ فلم تكلمه فرجع إليها مرتين، فلم تكلمه، فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك وبنى منها برآء).

رواه أيضا ابن أبى حاتم.

مغارة الدم

وبجبل قاسيون شمالى دمشق توجد مغارة يقال لها: مغارة الدم، مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عندها، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب، فالله أعلم بصحة ذلك.

الدفن

يقول الله تعالى:

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة: ٣١].

قال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: جاء غراب إلى غراب ميت، فبحث عليه من التراب حتى واراه، فقال الذى قتل أخاه: ﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١].

وقال ليث بن أبى سليم: عن مجاهد: (كان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتا، لا يدرى ما يصنع به يحمله ويضعه إلى الأرض، حتى رأى الغراب يدفن الغراب فقال: ﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١].

وقال ابن جرير: حدثنا بن حميد، حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن حكيم بن حكيم أنه حدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) أنه كان يقول: (إن أشقى الناس رجلا لابن آدم الذى قتل أخاه، ما سفك دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سن القتل).

وقال عطية العوفى: (لما قتل قابيل أخاه هابيل ندم فضمه إليه حتى أروح أى ظهرت له رائحة، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله).

وقال محمد بن إسحاق: عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: (لما قتله سقط فى يده، أى ولم يدر كيف يواريه، وذلك أنه كان فيما يزعمون: أول قتيل فى بنى آدم وأول ميت: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة: ٣١].

قال: وزعم أهل التوراة أن قابيل لما قتل أخاه، قال له الله عز وجل: يا قابيل أين أخوك هابيل ؟ قال: ما أدرى، ما كنت عليه رقيبا، فقال الله: إن صوت دم أخيك ليناديني

من الأرض، الآن أنت ملعون فى الأرض التى فتحت فاها فتلقت دم أخيك من يدك، فإن أنت عملت فى الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فزعا تائها فى الأرض).

العقوبة

ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، فعلقت ساقه إلى فخذه، وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلا به، وتعجيلا لذنبه وبغيه وحسده لأخيه.

وقال مجاهد أيضا:

(علقت إحدى رجلى القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ ووجهه فى الشمس حيثما دارت، دار عليه فى الصيف حظيرة من نار، وعليه فى الشتاء حظيرة من ثلج).

وقد جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم»**.

وقد اجتمع فى فعل قابيل هذا وهذا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وزعم أهل الكتاب فى كتابهم (التوراة) أن الله عز وجل أجّل عمر قابيل وأنظر عذابه إلى يوم القيامة، وأنه سكن فى أرض (نود) فى شرق عدن وهم يسمونه (قنين) وأنه ولد له خنوخ وصارت له ذرية كثيرة).

وقالوا أيضا:

إن آدم عليه السلام طاف على امرأته فولدت غلاما اسمه (شيث) وقالت: من أجل أنه قد وهب له خلفا من هابيل الذى قتله قابيل.

وقالوا: إن حواء ولدت لآدم أربعين ولدا فى عشرين بطنا.

وقيل: مائة وعشرين بطنا فى كل واحد ذكر وأنثى. أولهم قابيل وأخته قليما. وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث.

والله تعالى أعلى وأعلم.

الفصل الثالث
قوم نوح وعذاب الدنيا

نوح رسول الله ﷺ، هو نوح بن لامك بن متو شلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد ابن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر عليهم جميعا السلام.

وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة.

وكان مولد نوح عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام بمائة وست وأربعين سنة.

وكانت الفترة ما بين خلق آدم وبعثة نوح عشرة قرون، كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان فى صحيحه، فلقد حدثنا محمد بن عمر بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه، حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، سمعت أبا سلام، سمعت أبا أمامة أن رجلا قال: يا رسول الله، أنبى كان آدم، قال: **«نعم مكلم»**، قال: فكم كان بينه وبين نوح، قال: **«عشرة قرون»** الحديث على شرط مسلم ولم يخرجه.

وفى صحيح البخارى، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: **«كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»**.

الرجال الصالحون فى قوم نوح

روى البخارى: من حديث ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) عند تفسير قول الله تعالى:

﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح: ٢٣].

قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا، أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم، عبدت.

وقال ابن جرير فى تفسيره: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس قال: كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم،

فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم، كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

وروى ابن أبى حاتم، حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحصن بن موسى، حدثنا يعقوب عن أبى المطهر، قال: (ذكروا عند أبى جعفر - هو الباقر - وهو قائم يصلى يزيد بن المهلب، قال: فلما انفتل من صلاته قال: ذكرتم يزيد بن المهلب: أما إنه قتل فى أول أرض عبد فيها غير الله تعالى، قال ذكر ودا، قال: كان رجلاً صالحا، وكان محببا فى قومه، فلما مات عكفوا حول قبره فى أرض بابل، وجزعوا عليه.

فلما رأى إبليس جزعهم عليه، تشبه فى صورة إنسان ثم قال:

إنى أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون فى ناديكم فتذكرونه به، قالوا: نعم، فصور لهم مثله، قال: فوضعوه فى ناديهم وجعلوا يذكرونه، فلما رأى ما بهم من ذكره، قال: هل لكم أن أجعل فى منزل كل واحد منكم تمثالا مثله، ليكون له فى بيته فتذكرونه، قالوا: نعم، قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به، قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به.

قال: وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذه إلها يعبد من دون الله أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد غير الله الصنم الذى سموه ودا).

طلب نوح من قومه

والمقصود: أن الفساد لما انتشر فى الأرض، وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقال لهم:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٠].

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأعراف: ٦١].

﴿ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٢].

ودعاهم نوح إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار، والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا لم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به، وتوعدوهم بالرجم والإخراج.

وتلطف نوح معهم في الخطاب، وترفق بهم في الدعوة إلى الحق، وقال:

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود: ٢٨].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [هود: ٢٩].

فلبث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين وهم ظالمون، وكان كلما انقرض جيل، وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل منه كلامه، وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح أبدا ما عاش ودائما ما بقي.

وقالوا:

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [هود: ٣٢].

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [هود: ٣٣].

فلما يئس نوح من إصلاحهم وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق، من فعال ومقال، دعا عليهم فغضب الله عليهم، فقال:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٧].

﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٨].

ودعا وقال:

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر: ١٠].

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح: ٢٦].

﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح: ٢٧].

بناء السفينة

ظل نوح عليه السلام يدعو قومه لترك عبادة الأصنام وعبادة الواحد القهار، ولكنهم داموا على عنادهم وعصيانهم واستهزائهم من الذين آمنوا، حينئذ قال نوح:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٦].

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله لنوح، أمره أن يغرس شجرا ليعمل به السفينة، فغرسه مائة سنة، ثم نجره فى مائة أخرى، وقيل: فى أربعين سنة، والله أعلم.

وكان صنع السفينة من خشب الساج، وقيل: من خشب الصنوبر، وهو نص التوراة، وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا، وكانت ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالطبقة السفلى للدواب والوحوش، والطبقة الوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان باب السفينة فى عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وأمر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يحمل فى السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله، أى بيته إلا من سبق عليه القول منهم.

ويرى ابن عباس (رضى الله عنهما) أن أول ما دخل من الطيور الدرة (نوع من الببغاء) وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار، ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن أبيه أن النبى ﷺ قال: **«لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين ، قال أصحابه: وكيف نطمئن – أو كيف تطمئن المواشى ومعنا الأسد ، فسلط الله عليه الحمى ، فكانت أول حمى نزلت فى الأرض ، ثم شكوا الفأرة ، فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها»**.

واختلف العلماء فى عدد من كان مع نوح فى السفينة.

فعن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: كانوا ثمانين نفسا ومعهم نساؤهم.

وعن كعب الأحبار: قال: كانوا اثنين وسبعين نفسا - وقيل: كانوا عشرة.

أما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم وهم: حام، وسام، ويافث، ويام.

حام: أبو الأفارقة، وسام: أبو العرب، ويافث: أبو الفرنجة ويأجوج ومأجوج، ويام: ويسميه أهل الكتاب: كنعان وهو الذى غرق.

قال الله تعالى:

﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

أمره أن يحمد ربه على ما سخر لـه من هذه السفينة، فنجاه بها، وفتح بينه وبين قومه، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه.

كما قال الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

وهكذا أمر الله سيدنا نوحاً فى بادئ الأمر: أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة، كما قال الله تعالى لرسوله ﷺ :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٠].

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال:

﴿ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود: ٤١].

الطوفان

ذكر ابن جرير وغيره: أن الطوفان كان فى ثالث عشر من شهر آب فى حساب القبط أى يوم ١٣ أغسطس، يقول الله تعالى:

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ [القمر: ١١].

﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر: ١٢].

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر: ١٣ - ١٤].

وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطرا، لم تعهده الأرض قبله، ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها، وارتفع الماء على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعا، وهو الذى عند أهل الكتاب، وقيل: ثمانين ذراعا، وعم الماء جميع الأرض طولها وعرضها سهلها وحزنها، وجبالها وقفارها ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان من الأحياء عين تطرف، ولا صغير ولا كبير.

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [هود: ٤٢].

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود: ٤٣].

وهذا الابن هو (يام) وكان كافرا عمل عملا غير صالح، فخالف أباه فى دينه، فهلك مع من هلك، هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب، لما كانوا موافقين فى الدين والمذهب.

وقال الله: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود: ٤٨].

وهذا أمر من الله لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض، وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها، أن يهبط من السفينة التى كانت قد استقرت على ظهر جبل الجودى وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور، وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود: ٤٤].

وهبط نوح سالما مباركا عليه، وعلى أمم ممن سيولد بعد - أى من أولادك - فإن الله تعالى لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقبا سوى نوح، فكان من على الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: سام وحام ويافث.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة أن النبى ﷺ قال: «**سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم**».

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه فى السفينة هم ونساؤهم وأمهم، وهو نص التوراة، وقد ذكر أن (حاما) واقع امرأته فى السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته، فولد له ولد أسود، وهو كنعان بن حام جد السودان، وقيل: بل رأى أباه نائما وقد بدت عورته فلم يسترها، وسترها أخواه، فهذا دعا عليه أن تغير نطفته، وأن يكون أولاده عبيدا لإخوته.

ظهرت الأرض

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان، أرسل ريحا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض، فجعل الماء ينقص ويفيض ويدبر، وكان استواء الفلك على الجودى - فيما يزعم أهل التوراة - فى الشهر السابع عشر ليال مضت منه، وفى أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤوس الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما، فتح نوح كوة الفلك التى صنع فيها، ثم أرسل الغراب لينظر لـه ما فعل الماء فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعا، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر لـه ما فعل الماء، فلم ترجع، فرجعت حين أمست وفى فيها ورق زيتونة، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه، فعلم نوح أن الأرض قد برزت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة دخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين، برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك.

قوس قزح

وفيما ذكر أهل الكتاب: أن الله كلم نوحا قائلا لـه: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك، وجميع الدواب التى معك، ولينموا وليكثروا فى الأرض، فخرجوا، وابتنى نوح مذبحا لله عز وجل، وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال، فذبحها قربانا إلى الله عز وجل، وعهد الله إليه ألاّ يعيد الطوفان على أهل الأرض، وجعل تذكار الميثاق القوس الذى فى الغمام وهو قوس قزح الذى روى ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه أمان من الغرق.

قال بعضهم: فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر، أى أن هذا الغمام لا يوجد طوفان كأول مرة، والله أعلى وأعلم.

وصية نوح

قال الإمام أحمد عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما): (... ثم قال: إن نبى الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة، قال لابنه: إنى قاص عليك وصية: آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين:

آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله - وبسبحان الله وبحمده، فإن بها صلات كل شىء وبها يرزق الخلق.

وأنهاك عن الشر والكبر، قال: قلت - أو قيل يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر، أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان.

قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها، قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها، قال: «لا»، قلت - أو قيل: يا رسول الله، فما الكبر، قال: **«سفه الحق وغمط الناس»**، وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

قبر نوح

عن ابن عباس قال: إن نوحا بعث وله أربعمائة وثمانون سنة، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة، أما قبره عليه السلام بالمسجد الحرام لما يرويه ابن جرير والأرزقى وغيره مرسلا.

وقيل: إن قبر نوح ببلدة البقاع، تعرف اليوم (بكرك نوح) وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك، والله أعلم.

* * *

الباب الثانى
عذاب الدنيا بعد الطوفان

هلك الكافرون الذين كذبوا بنوح عليه السلام، وقضى الله عليهم بالطوفان، وبقى الموحدون فى السفينة إذ نجاهم الله لإيمانهم بما جاء به نوح، وهبطت السفينة على الأرض، وانتشر الموحدون فى أرجاء الدنيا يزرعون ويحصدون، وأعطاهم الله بسطة فى الجسم والنماء والقوة، وبنوا القصور والخيام وعمروا الأرض شرقاً وغرباً.

ولكن الشيطان لعب برؤوسهم ولم يشكروا نعم الله التى لا تحصى عليهم، فتركوا عبادة الله الواحد القهار وعكفوا على عبادة الأحجار والأوثان، فأرسل الله عليهم الرسل لينصحوهم ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم ولكنهم استهزؤوا برسل الله فأرسل الله إليهم صنوف العذاب ليعتبروا ويعتبر من جاء من بعدهم.

ولهذا وفقنى ربى أن أقسم هذا الباب إلى فصول أربعة هى كالآتى:

الفصل الأول: عذاب الدنيا لقوم عاد .

الفصل الثانى: عذاب الدنيا لقوم ثمود .

الفصل الثالث: عذاب الدنيا لإبراهيم الخليل وولده إسماعيل .

الفصل الرابع: عذاب الدنيا لقوم لوط .

* * *

الفصل الأول
عـذاب قـوم عـاد

يقول الله تعالى:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٦].

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٧].

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٨].

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

نبيهم هود:

هود نبى الله: هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ويقال: إن هودا: هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

ويقال: هود بن عبد الله بن رباح الجارود بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح. ذكره ابن جرير.

وكان من قبيلة يقال لها: عاد بن عوص بن سام بن نوح، وكانوا عربا يسكنون الأحقاف - وهى جبال الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت، بأرض مطلة على البحر يقال لها: الشحر، واسم واديهم (وادى مغيث).

وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخمة كما وصفهم الله تعالى فى سورة الفجر:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر: ٦ - ٨].

العرب العاربة:

هم العرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام، وهم قبائل كثيرة منهم: عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق، وجاسم، وقحطان، وبنو يقطن.

أما العرب المستعربة:

فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم، وهو أول من تكلم بالعربية الفصحى، وكان قد أخذ كلام العرب من قبيلة جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم، عندما نبع له ماء زمزم.

وقبيلة عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة: صمدا، وصمودا، وهرا، وكانوا خلفاء من بعد قوم نوح عليه السلام وزادهم الله فى الخلق بسطة وشدة فى زمانهم.

فعن ابن أبى حاتم، عن المقداد، عن النبى ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال: **«كان الرجل منهم يأتى على الصخرة فيحملها على الحى فيهلكهم»**.

دعوة هود لهم

والمقصود: أن عادا كانوا جفاة كافرين، عتاة متمردين فى عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلا منهم، يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه، فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم فى طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خيرى الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك فقال:

﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [هود: ٥١].

وقال بعضهم لبعض كما جاء فى سورة المؤمنون:

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

﴿ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤ ﴾ [المؤمنون: ٣٤].

﴿ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥ ﴾ [المؤمنون: ٣٥].

﴿ ۞هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ ﴾ [المؤمنون: ٣٦].

العذاب:

قال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار:

فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل، أمسك عنهم القطر - المطر - ثلاث سنين، حتى جهدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان، فطلبوا منه الفرج سبحانه وتعالى، إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته، وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة (عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح) وكان سيدهم إذ ذاك، رجلا يقال له: معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها: جلهذة ابنة الخيبرى، قال: فبعث عاد وفدا من سبعين رجلا ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهرا، يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان (قينتان لمعاوية) وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر.

فلما طال مقامهم عنده، وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم، أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعراً يعرض لهم فيه بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنيهم به فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهبنهم ::: لعل الله يصحبنا غماما

فيسقى أرض عاد إن عادا ::: قد أمسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو ::: به الشيخ الكبير ولا الغلاما

وقد كانت نساؤهم بخير ::: فقد أمست نساؤهم أيامى

وأن الوحش يأتيهم جهارا ::: ولا يخشى لعاد سهاما

وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم ::: نهاركم وليلكم تماما

فقبح من وفد قوم ::: ولا لقوا التحية والسلاما

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاؤوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو: قيل بن عنز، فأنشأ الله سحابات ثلاث: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه

منـاد مـن السمـاء: اختـر لنفسك - أو لقومك - مـن هذا السحاب، فقـال: اختـرت السحابة السوداء، فإنهـا أكثـر السحـاب مـاء، فنـاداه منـاد: اختـرت رمـادا رمددا، لا تبقـى من عـاد أحدا، لا والدا يترك ولا ولدا، إلا جعلته همدا إلا بنى اللوذية الهمدا.

قال: وهم بطن من عاد، كانوا مقيمين بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم.

قال: ومن بقى من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة.

وساق الله السحابة السوداء التى اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال لـه: المغيث، فلمـا رأوهـا استبشروا وقـالوا: هذا عـارض ممطرنا.

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد، يقال لهـا: مهد، فلما تبينت ما فيها، صاحت ثم صعقت فلما أفاقت، قالوا: ما رأيت يا مهد، قالت: رأيت ريحا فيها شبه النار، أمامها رجال يقودونها، فسخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما - أى دائمة - فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك.

وقيل: إن هذه الأيام النحسات كان أولها يوم الأربعاء، وكانت الريح تجىء إلى أحدهم فتحمله فتدفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه، فتشدخه جثة بلا رأس: ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧ - ٨].

واعتزل هود عليه السلام فى حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود، وتلذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماوات والأرض، وتدفعهم بالحجارة.

وقال ابن أبى حاتم، عن مجاهد، عن ابن عمر (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ : **«ما فتح الله على عاد من الريح التى أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها قالوا: هذا عارض ممطرنا ، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة»**.

وروى مسلم فى صحيحه، عن ابن وهب قال: سمعت ابن جريج عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح، قال: «**اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**».

قالت: وإذا غيبت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته فقال: «**لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: قالوا: هذا عارض ممطرنا**»، رواه الترمذى والنسائى.

قبر هود

روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام فى بلاد اليمن وذكر آخرون أنه بدمشق، وبجامعها مكان فى حائطه القبلى يزعمون أنه قبر هود عليه السلام.

* * *

الفصل الثانى
قوم ثمود ونبيهم صالح

يقول الله تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٥].

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٦].

ونبى الله صالح: هو صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن جادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح، وكان من قبيلة يقال لهم: ثمود، باسم جدهم ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح.

وكانوا يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك، وكانوا بعد قوم عاد، وكانوا أيضا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم صالحا، يدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام، وبين لهم أن الله أباح لكم هذه الأرض تبنون فى سهولها القصور وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين أى حاذقين فى صناعتها وإتقانها وإحكامها.

وجعلكم عمارا للأرض بزرعها وثمارها وخيراتها، قالوا: يا صالح، لقد كنت فينا مرجوا قبل هذا، أى كنا نرجوا أن يكون عقلك كاملا، قبل هذه المقالة وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة، وترك ما كنا نعبده من الأنداد، وهو دين الآباء والأجداد.

إنمـا أنـت مـن المسـحرين: أى مسـحور لا تـدرى مـا تقـول فـى دعائـك، ومـا أنـت إلا بشر مثلنا.

قـال لهـم صـالح: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦].

الناقة

ذكـر المفسـرون: أن ثمـودا اجتمعـوا يومـا فـى نـاديهم فجـاءهم رسـول الله صـالح، ودعاهم إلـى الله، وذكرهم وحذرهم ووعظهم، فقالوا لـه: إن أنت أخرجت لنـا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هنـاك ناقة وذكروا أوصـافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة، فقال النبى صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلـى مـا سألتم على الوجه الذى طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم بـه وتصدقونى فيمـا أرسلت بـه، قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مصلاه، فصلى لله عز وجل ما قدر لـه، ثم دعا ربه تعالى أن يجيبهم إلـى ما طلبوا، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذى طلبوه، والصفات التـى وصفوها، فلمـا عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيمـا، ومنظرا هـائلا، وقوة بـاهرة، ودليلا قاطعـا، وبرهانـا سـاطعا، فـآمن كثيـر منـهم واستمر أكثرهم على كفرهم وعنادهم.

وكان رئيس الذين آمنوا (جندع بن عمرو بن محـلاة بـن لبيد بـن جـواس) وكـان من رؤسائهم وهم بقية الأشراف بالإسلام.

فصدهم ذؤاب بن عمرو بين لبيد صاحب أوثانهم ورباب بن صعر بن جلمس ودعـا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة، وكان من أشرافهم بالإسـلام، فنهاه أولئك، فمـال إليهم، فقال فى ذلك رجل من المسلمين يقال لـه: مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه الله قال:

وكانــت عصــبة مــن آل عمــرو ::: إلــى ديــن النبــى دعــوا شــهابا
عزيــز ثمــود كلهــم جميعــا ::: فهــم بــأن يجيــب ولــو أجابــا
لأصــبح صــالح فينــا عزيــزا ::: ومــا عــدلوا بصــاحبهم ذؤابــا
ولكــن الغــواة مــن آل حجــر ::: تولــوا بعــد رشــدهم ذبابــا

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٦٤]، أى أضافها لله سبحانه إضافة تشريف وتعظيم ﴿ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [هود: ٦٤]، أى: دليلا على صدق ما جئتكم به، فتركوها ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم، ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع علماؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة، ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم.

عقر الناقة

وكان الذى يتولى قتل الناقة رئيسهم (قدار بن سالف بن جندع) وكان أحمر أزرق أصهب وكان يقال عنه: أنه ولد زانية، ولد على فراش سالف وهو ابن رجل يقال له: صيبان.

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين: أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما: (صدوق ابنة المحيا بن زهير بن المختار) وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته، فدعت ابن عم لها يقال له: (مصرع بن مهرج بن المحيا) وعرضت عليه نفسها، إن هو عقر الناقة.

أما المرأة الأخرى فهى: (عنيزة بنت غنيم بن مجلز) وكانت تكنى باسم: أم غنمة وكانت عجوزا كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو، أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء.

فانتدب هذان الشابان (مصرع بن مهرج وقدار بن سالف) لعقر الناقة وسعوا فى قومهم بذلك، فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم:

(رعمى، ورعيم، وهرم، وهريم، وداب، وصواب، ورياب) ومعهم: مصرع وقدار، وقد ذكرهم الله تعالى فى سورة النمل، إذ يقول عز وجل:

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل: ٤٨].

فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها، كمن له (مصرع) فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها، وجاءت النساء يذمرن ويشجعن القبيلة فى قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيبا لهم فى ذلك، فأسرعهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة على الأرض، ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها، ثم طَعَنَها سالف فى لبتها فنحرها، وانطلق فصيلها (ولدها) فصعد جبلا منيعا، ورغا ثلاثا.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عمن سمع الحسن أنه قال: أى قال الفصيل: يا رب أين أمى ؟ ثم دخل فى صخرة، فغاب فيها، ويقال: إنهم اتبعوه فعقروه أيضا.

العذاب:

وقال محمد بن إسحاق: قال هؤلاء التسعة بعدما عقروا الناقة: هلم فلنقتل صالحا، فإن كان صادقا عجلناه قبلنا، وإن كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته، فأتوا ليلا ليبيتوه فى أهله، فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم وهم منشدخين، قد رضخوا بالحجارة.

فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم هموا به، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبدا، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث، فإن كان صادقا فلا تزيدوا ربكم غضبا عليكم، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك.

فقال لهم: تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب.

يوم الخميس:

ثم أصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة، فأصبحت وجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام، فلما أمسوا نادوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل.

يوم الجمعة:

ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة فأصبحت وجوههم محمرة فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل.

يوم السبت:

ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت فأصبحت وجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل.

يوم الأحد:

فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أى جهة يأتيهم العذاب.

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، فأصبحوا فى دارهم جاثمين، جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها.

قالوا: ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها (كلبة بنت السلق) ويقال لها: الذريعة، وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت العذاب، أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شىء فأتت حَيًّا من العرب، فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء، فلما شربت ماتت.

أبو رغال

قال الإمام أحمد، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: **«لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، فكانت – يعنى الناقة – ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوما ، ويشربون لبنها يوما ، فعقروها فأخذتهم صيحة ، أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا ، كان فى حرم الله»**، فقالوا: من هو يا رسول الله، قال: **«هو أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»**.

وقد قال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرنى إسماعيل بن أمية: أن النبى ﷺ مر بقبر أبى رغال، فقال: **«أتدرون من هذا»**، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«هذا قبر أبى رغال ، رجل من ثمود كان فى حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله ، فلما خرج ، أصابه ما أصاب قومه ، فدفن هاهنا ، ودفن معه غصن من ذهب»**، فنزل القوم فابتدره بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن.

وبعد هلاك ثمود قال صالح: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وهذا إخبار عن صالح عليه السلام: أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقال: لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم، وليس لى فيكم حيلة.

والذى وجب علىّ من أداء الرسالة والنصح لكم، وقد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد.

قليب بدر

وهكذا خطاب النبى ﷺ أهل قليب بدر، بعد ثلاث ليال، وقف عليهم، وقد ركب راحلته، وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال: **«يا أهل القليب: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا»**،

وقال لهم فيما قال: «**بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم: كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلمونى ونصرنى الناس ، فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم**»، فقال له عمر: يا رسول الله: تخاطب أقواما قد جيفوا، فقال: «**والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يجيبون**».

نهاية صالح

ويقال: إن صالحا عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: لما مر النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال: «**يا أبا بكر ، أى واد هذا**»، قال: وادى عسفان، قال: «**لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف ، أزرهم العباء ، وأرديتهم النمار ، يلبون – يحجون البيت العتيق**».

مرور النبى ﷺ بوادى الحجر

قال الإمام أحمد، عن ابن عمر (رضى الله عنهما) قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال: «**إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم**»،

* * *

الفصل الثالث

إبراهيم الخليل عليه السلام

يقول الله تعالى:

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨].

نسبه

هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفشخذ بن سام بن نوح عليه السلام.

وأمه أميلة، وكان إبراهيم يكنى (أبا الضيفان)، وأبوه تارخ، ولما بلغ عمره ٧٥ سنة ولد لـه إبراهيم وناحور وهاران، وولد لهاران لوط.

وولد إبراهيم عليه السلام على أصح الأقوال فى بابل وكانت زوجته سارة عاقراً لا تلد.

دعوة إبراهيم لقومه

روى الحافظ ابن عساكر، من طريق هشام بن عمار، عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق فى قرية يقال لها: برزة فى جبل يقال لـه: قاسيون، والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه، إذ جاء معينا للوط عليه السلام.

قالوا: فتزوج إبراهيم (سارة) وتزوج ناحور (ملكا) ابنة أخيه هاران.

وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة، وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا حران، فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة، وهذا يدل على أنه لم يولد بحران، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهى أرض بابـــــل

وما والاها، ثم ارتحلوا إلى أرض الكنعانيين وهى بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران وهى أرض الكلدانيين فى ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضا.

وكانوا يعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعيادا وقرابين، وقال إبراهيم: قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) ﴾ [العنكبوت: ١٦ - ١٧].

ودعا إبراهيم قومه وأباه ودارت المحاورة والمجادلة وبين لقومه أن الأصنام التى يعبدونها لا تملك رزقا ولا نفعا ولا ضرا، إنما الرزق من عند الله وحده، ولكنهم لم يستمعوا إليه، بل هددوه وتودعوه بالرجم والطرد، وقال أبوه:

﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) ﴾ [مريم: ٤٦].

فرد إبراهيم على أبيه قائلا: ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) ﴾ [مريم: ٤٧] [مريم].

لقاء إبراهيم بأبيه يوم القيامة

ويخبرنا رسول الله ﷺ فى رواية البخارى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصنى ، فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم: يا رب إنك**

وعدتنى ألاَّ تخزنى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ، فيقول الله: إنى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال: يا إبراهيم ، ما تحت رجليك فينظر ، فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار».

يقول الله فى سورة الأنعام: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وهذا يدل على أن أبا إبراهيم اسمه آزر، ولكن قالوا: ربما يكون آزر اسم الصنم الذى عبده أبوه، فنسب وكنى بهذا الاسم، والله أعلم.

عدم صلاحية الكواكب للعبادة

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

وهكذا بين إبراهيم أولا عدم صلاحية الكواكب للعبادة الزهرة، القمر، الشمس وهذه الموعظة لأهل حران.

أما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، فحقرها وصغرها وتنقصها وقال لهم:

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٢ - ٧٣].

فنهاهم عن عبادتها، ودعاهم إلى عبادة رب السماوات والأرض، فهو المستحق للعبادة فلم يسمعوا كلامه فقال:

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

تحطيم الأصنام

فلما خرج قومه إلى عيد لهم، استقر هو فى البلد، وذهب مسرعاً مستخفيا إلى الأصنام، فوجدها فى بهو عظيم، وقد وضعوا أمامها أنواعا من الأطعمة قربانا إليها فقال على سبيل التهكم والازدراء، كما جاء فى القرآن الكريم بسورة الصافات، يقول الله تعالى:

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الصافات: ٨٨ - ٩٣].

وكسر إبراهيم الأصنام وجعلها حطاما إلا كبيرا لهم، ووضع القدوم فى يد هذا الصنم الكبير، فلما رجعوا من عيدهم، ووجدوا الأصنام محطمة، قالوا: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا: سمعنا فتى يذكرهم يقال له: إبراهيم، فجمعوا الناس ليشهدوا مقالة إبراهيم واعترافه، فيقررون الاقتصاص منه، ودار الحوار الآتى:

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٢ - ٦٥].

فرد عليهم إبراهيم قائلا:

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٦ - ٦٨].

النيران

ولما فشلوا فى الجدال والحوار مع إبراهيم عليه السلام، استعملوا سلطانهم وقوتهم، فاقترحوا إحراقه بالنيران، وشرعوا يجمعون حطبا من جميع الأماكن ومكثوا مدة يجمعون له، حتى أن المرأة منهم إذا مرضت تنذر: لئن عوفيت لتحملن حطبا لحرق إبراهيم.

ثم عمدوا إلى حوية عظيمة، فوضعوا فيها ذلك الحطب، وأشعلوا فيه النار، فاضطرمت وتأججت وعلا لها شرار، لم ير قط قبله، ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام فى كفة منجنيق، صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له: هيزن، وكان هذا الرجل أول من صنع المجانيق، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: (لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك).

فلما وضعوا إبراهيم فى كفة المنجنيق قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ولذلك روى البخارى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قيل له:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥].

وقال أبو يعلى، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن الرسول ﷺ قال: **«لما ألقى إبراهيم فى النار ، قال: اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك».**

وذهب بعض السلف فى قوله فذكر أن جبريل عليه السلام عرض لإبراهيم فى الهواء، فقال: يا إبراهيم: ألك حاجة، فقال: أما إليك فلا.

ويروى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وسعيد بن جبير أنه قال: (جعل ملك المطر يقول: متى أومر فأرسل المطر، فكان أمر الله أسرع).

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق من وجهه ولم يصبه من النار شىء غيره.

وقال السدى: كان مع إبراهيم أيضا ملك الظل وصار إبراهيم عليه السلام فى ميل الحوية، حوله نار، وهو فى روضة خضراء، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول، ولا هو يخرج إليهم.

ويروى أبو هريرة (رضى الله عنه) أنه قال: (أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم: إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال، قال: نعم الرب ربك يا إبراهيم).

ويروى ابن عساكر، عن عكرمة: أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته: يا بنى: إنى أريد أن أجىء إليك، فادع الله أن ينجينى من حر النار حولك، فقال: نعم، فأقبلت إليه لا يمسها شىء من حر النار، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته، ثم عادت.

وعن المنهال بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) أنه قال: (أخبرت أن إبراهيم مكث فى النار أربعين أو خمسين يوما، وأنه قال: ما كنت أياما وليالى أطيب عيشا إذ كنت فيها، ووددت أن أعيش وحياتى مثل إذ كنت فيها).

﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وقال البخارى: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال: كان ينفخ على إبراهيم.

وقال الإمام أحمد: أن سمامة مولاة الفاكه بين المغيرة قالت: دخلت على عائشة فرأيت فى بيتها رمحا موضوعا، فقلت: يا أم المؤمنين: ما تصنعين بهذا الرمح، قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به؛ لأن الرسول ﷺ حدثنا: «**إن إبراهيم حين ألقى فى النار ، لم يكن فى الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ كان ينفخ عليه ، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله**».

مناظرة إبراهيم والنمرود

يقول الله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ

ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال المفسرون: إن هذا الملك هو ملك بابل واسمه: النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وكان أحد ملوك الدنيا، فإنه فى ذلك الزمان كان ملوك الدنيا أربعة: مؤمنين، وكافرين.

الملكان المؤمنان هما: ذو القرنين، وسليمان.

وأما الملكان الكافران هما: النمرود، وبختنصر.

وذكروا: أن النمرود استمر فى ملكه أربعمائة سنة، وكان طاغيا باغيا متجبرا عاتيا، قد آثر الحياة الدنيا، ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل على إنكار الصانع، فحاج إبراهيم فى ذلك، وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال إبراهيم: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فرد عليه إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِى بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

يوم الميرة

ولقد روى عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم: (أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة، ولم يكن إبراهيم اجتمع بالنمرود إلا يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام، كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شىء من الطعام فلما قرب إبراهيم أهله عمد إلى كثيب من التراب، فملأ منه عدليه، وقال: أشغل أهلى إذا قدمت عليهم، فلما قدم، وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا، فعملت منه طعاما فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه، فقال: أنى لكم هذا ؟ قالت: من الذى جئت به، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل.

نهاية النمرود

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله، فأبى عليه، ثم دعاه فى المرة الثانية أن يؤمن بالله الذى قهر كل شىء، ودان له كل شىء، فإن كنت كما تزعم والكل يعلم أنك لا تقدر على شىء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة، فأبى النمرود عليه.

ثم دعاه الملك فى المرة الثالثة، وأمره بالإيمان بالله الواحد، فأبى عليه.

وقال النمرود: اجمع جموعك، وأجمع جموعى.

فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذبابا من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظاما بالية ودخلت بعوضة واحدة منها فى منخر الملك النمرود، فمكثت فى منخره أربعمائة سنة، عذبه الله تعالى بها.

فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة كلها، وكلما أراد أن يهدأ من عذاب هذه البعوضة يضربونه بالمرازب حتى يهدأ وظل على هذا الحال من العذاب حتى أهلكه الله عز وجل بها.

سارة وفرعون مصر

هجر إبراهيم قومه فى الله من أرض بابل، قاصدا أرض الشام، وكانت معه امرأته سارة وكانت عاقرا لم تلد، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر.

يقول الله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧١].

ولما قدم إلى بلاد الشام أوحى الله إليه: أنى جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك فبنى إبراهيم مذبحا شكرا لله على هذه النعمة، وضرب قبته شرقى بيت المقدس ثم ارتحل منطلقا إلى التيمن، لأن تلك البلاد كان بها جوع وقحط شديد وغلاء، فارتحلوا إلى مصر.

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال: إنى سقيم ، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله لسارة: إنها أختى».**

قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك، وقيل: إنه فرعون مصر وهو: سنان بن علوان بن عوج بن سام بن نوح عليه السلام، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار، وقال: من هذه معك، قال إبراهيم: هى أختى، قال: فأرسل بها إليه.

وقال إبراهيم: يا سارة لا تكذبى قولى، فإنى قد أخبرته أنك أختى، إنه ما على الأرض مؤمن غيرى وغيرك.

فلما دخلت سارة على هذا الجبار فرعون مصر، قام إليها، فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول: (اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على الكافر) قال: فغط حتى ركض برجله.

وقال أبو سلمة: عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أنها قالت: (اللهم إن يمت يقل هى قتلته) قال: فأرسل، فقال فى الثالثة: ما أرسلتم إلىّ إلا شيطانة، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها (هاجر)، قال: فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافرين، وأخدم وليدة.

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهابه بها إلى الملك، قام يصلى لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء، وهكذا فعلت سارة أيضا، فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وخليله إبراهيم.

وذكر فى بعض الآثار: أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم وبين سارة وكان مشاهدا لها وهى عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينيه، وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حبا شديدا، لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر، فإنه قد قيل: أنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها.

عودة إبراهيم إلى الشام

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن وهى الأرض المقدسة التى فيها ومعه أنعام وعبيد ومال كثير، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.

ثم إن لوطا عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك إلى أرض الغور المعروفة واسمها (غورزغر) فنزل بمدينة سدوم وهى مدينة قديمة على شاطئ البحر الميت، وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان، وكان أهلها أشرارا فجارا.

وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر.

وقالوا: أن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط، فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم فى ثلاثمائة وثمانية عشرة رجلا فاستنقذ لوطا واسترجع أمواله.

وساق فى آثارهم حتى وصل إلى شمالى دمشق وعسكر بظاهرها عند (برزة) وأظن مقام إبراهيم إنما سمى بذلك؛ لأنه كان موقف جيش الخليل والله أعلم.

ثم رجع إبراهيم مؤيدا منصورا إلى بلاده، وتلقاه ملوك بيت المقدس معظمين مكرمين خاضعين له، واستقر ببلاده مع زوجته سارة وخادمتها هاجر المصرية.

قصة إسماعيل عليه السلام

قال أهل الكتاب: إن إبراهيم عليه السلام سأل ربه ذرية طيبة، وأن الله بشره بذلك، وأنه لما كان لإبراهيم فى بلاد المقدس عشرون سنة، قالت سارة لإبراهيم عليه السلام: إن الرب قد حرمنى الولد، فادخل على أمتى هاجر لعل الله يرزقنى منها ولدا.

فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام، فحين دخل بها حملت منه، فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها، فغارت منها سارة، فشكت ذلك إلى إبراهيم، فقال لها: افعلى بها ما شئت، فخافت هاجر، فهربت ونزلت عند عين هناك، فقال لها ملك من

الملائكة: لا تخافى فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيرا، وأمرها بالرجوع، وبشرها أنها ستلد ابنا، وتسميه إسماعيل، ويكون وحش الناس، يده على الكل، ويد الكل به ويملك جميع أخوته، فشكرت الله عز وجل على ذلك.

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه الذى به سادت العرب، وملكت جميع البلاد غربا وشرقا، وآتاه الله من العلم النافع والعمل الصالح، ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل، وبركة رسالته، يمن سفارته، وكماله فيما جاء به وعموم بعثته لجميع أهل الأرض.

ولما رجعت هاجر ووضعت إسماعيل عليه السلام، قالوا: ولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة.

ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة، فخر لله ساجدا، وقال له: قد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته حدا كثيرا، ويولد له اثنى عشر عظيما، وأجعله رئيسا لشعب عظيم.

وهذه أيضا بشارة بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الاثنى عشر عظيما هم الخلفاء الراشدة الاثنى عشر المبشر بهم فى حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة، عن النبى ﷺ قال:

«يكون اثنى عشر أميرا»، ثم قال كلمة لم أفهمها، فسألت أبى ما قال: قال: **«كلهم من قريش»**، أخرجاه فى الصحيحين.

والمقصود: أن هاجر عليها السلام، لما ولد لها إسماعيل، اشتدت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم، ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعا.

فلما تركها هناك وولى ظهره عنهما، قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت: يا إبراهيم: أين تذهب وتدعنا هاهنا، وليس معنا ما يكفينا، فلم يجبها فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها، قالت له: آلله أمرك بهذا، قال: نعم، قالت: فإذا لا يضيعنا.

وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبى زيد رحمه الله فى كتاب النوادر:

أن سارة غضبت على هاجر، فحلفت لتقطعن ثلاثة أجزاء منها، فأمرها الخليل: أن تثقب أذنيها، وأن تخفضها، فتبر قسمها.

قال السهيلى: فكانت هاجر أول من اختتن من النساء، وأول من ثقب أذنها، وأول من طولت ذيلها.

الهجرة إلى جبال فاران (أرض مكة)

قال البخارى: قال عبد الله بن محمد (وهو أبو بكر بن أبى شيبة): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب السختيانى، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: أول من اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطلقا: فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شىء، فقالت لـه ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت لـه: آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات الواردة فى سورة إبراهيم:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت

الوادى تنظر، هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت، هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) قال النبى ﷺ : **«فلذلك سعى الناس بينهما»**.

فلما أشرفت على المروة، سمعت صوتا، فقالت: صه تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تعزف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) قال النبى ﷺ : **«يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء ، لكانت زمزم عينا معينا ، قال: فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة ، فإن هاهنا بيتا لله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وأن الله لا يضيع أهله»**.

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء، فأرسلوا جريا (رسولا) أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك، قالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا، قالوا: نعم.

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) قال النبى ﷺ : **«فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الإنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام إسماعيل ، وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم»**.

زيارة الخليل لولده

وماتت هاجر أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل، يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغى لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن فى ضيق وشدة، وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام وقولى له: يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل، كأنه آنس شيئا، فقال: هل جاءكم من أحد، فقالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا، فأخبرته أنا فى جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشىء، قالت: نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غير عتبة بابك، قال: ذاك أبى، وقد أمرنى أن أفارقك، فالحقى بأهلك، وطلقها وتزوج منهم بأخرى.

الزيارة الثانية:

ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغى لنا، قال: كيف أنتم، وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل فقال: ما طعامكم، قالت: اللحم، قال: فما شرابكم، قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء.

قال النبى ﷺ : **«ولم يكن يومئذ حب ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه»**.

قال: فهما يخلوا عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: إذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بيته.

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد، قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشىء، قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبى وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك.

الزيارة الثالثة:

ثم لبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا لـه تحت دوحة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرنى بأمر، قال: فاصنع ما أمرك به ربك، قال: وتعيننى، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها.

فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه لـه، فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

الختان

وعند أهل التوراة: أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم، وذلك بعد مضى تسع وتسعين سنة من عمره فيكون عمر إسماعيل ثلاث عشرة سنة، وهذا امتثال لأمر الله عز وجل، وأن إبراهيم فعله على وجه الوجوب، وأنه واجب على الرجال.

ويروى البخارى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: **«اختتن إبراهيم النبى عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم»**.

وعنه أيضا : **«اختتن إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة»**.

قصة الذبيح

يقول الله تعالى فى سورة الصافات:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن

شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الصافات: ٩٩ - ١١١].

لما هاجر إبراهيم من بلاد قومه سأل ربه أن يهب لـه ولدا صالحا، فبشره بغلام حليم وهو إسماعيل عليه السلام؛ لأنه أول ما ولد لـه على رأس ٨٦ سنة من عمر الخليل، فلما شب وارتحل رأى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا.

وفى الحديث عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: **«رؤيا الأنبياء وحى»**.

فقال إبراهيم لولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا، قال الخليل عليه السلام: يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى، فبادر الغلام قائلا: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما أى إبراهيم لأمر ربه وإسماعيل طاعة لأبيه وربه، سمى إبراهيم وكبر، وتشهد الولد للموت، وأضجعه أبوه كما تضجع الذبائح، وبقى جبينه لاصقا للأرض، وأمر السكين على حلقه، فلم تقطع شيئا.

عندئذ: نودى من الله عز وجل: أن يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا، أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، وبذلت ولدك للقربان، كما سمحت ببدنك للنيران، إن هذا لهو البلاء المبين.

﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٧]، أى كبش أبيض أعين أقرن، رآه مربوطا بسمرة فى ثبير، وقال ابن عباس (رضى الله عنهما): كبش قد رعى فى الجنة أربعون خريفا وكان عليه صوف أحمر، وهو الكبش الذى قربه هابيل بن آدم فتقبل منه.

وقال الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة، قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا، قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة، وقالت مرة: أنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ، قال: قال لى رسول الله ﷺ : **«إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك تخمرها (تسترها بستار) فخمرها فإنه لا ينبغى**

أن يكون فى البيت شيء يشغل المصلى».

وقال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقتين فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا.

مولد إسحاق عليه السلام

يقول الله تعالى فى سورة الصافات:

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات: ١١٢ - ١١٣].

وكانت البشارة من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم.

ويقول الله تعالى فى سورة هود:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣].

يذكر الله تعالى أن الملائكة، وكانوا ثلاثة هم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، كما وردوا على الخليل حسبهم أولا أضيافا، فقام وشوى لهم عجلا سمينا من خيار بقرة، فلم تمتد أيديهم إليه، وأوجس منهم خيفة، قالوا: لا تخف إنا رسل ربك إلى قوم لوط.

فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا لله عليهم، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فصكت وجهها عند التعجب، وقالت: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ٧٢ - ٧٣].

وعند أهل الكتاب: أن الله تعالى قال لإبراهيم: أما سارا امرأتك، فلا يدعى اسمها سارا ولكن اسمها سارة، وأبارك عليها، وأعطيك منها ابنا وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه، فخر إبراهيم ساجدا لله، وضحك قائلا فى نفسه: أبعد مائة سنة يولد لى غلام، أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة.

وقال إبراهيم لله تعالى: ليت إسماعيل يعيش قدامك، فقال الله لإبراهيم: بحق أن امرأتك سارة تلد لك غلاما، وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين من قابل وأوثقه ميثاقى إلى الدهر، ولخلفه من بعده.

وقد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه، وكثرته ونميته جدا كثيرا، ويولد له اثنى عشر عظيما، وأجعله رئيسا لشعب عظيم، والله أعلم.

وعندهم أن يعقوب وهو إسرائيل هو الذى أسس المسجد الأقصى، بناه بعد أربعين سنة من بناء إبراهيم وإسماعيل المسجد الحرام بمكة.

بناء البيت العتيق

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌۢ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الحج:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج: ٢٦ - ٢٧].

وقال أيضا فى سورة البقرة:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٩].

يذكر الله تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه السلام، أنه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه، وبوأه الله مكانه (أرشده إليه ودل عليه).

ولقد روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه) أنه أرشد إليه بوحى من الله عز وجل، وقد ذكرنا فى صفة خلق السماوات، أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث لو سقط لسقط عليها، وكذلك معابد السماوات السبع، كما قال بعض السلف: إن فى كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء، وهو فيها كالكعبة فى الأرض.

ولقد ثبت فى الصحيحين: أن النبى ﷺ قال: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة**».

والمقصود: أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أشرف البقاع، فى واد غير ذى زرع ودعا لأهلها بالبركة، وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأن يجعله حرما محرما وآمنا.

فاستجاب الله لـه مسألته، ولبى دعوتـه، وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم، من جنسهم، وعلى لغتهم الفصيحة، فاستجاب الله دعوته ببعثة محمد ﷺ، وعمت دعوته جميع بقاع الأرض فى سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة.

البناء:

قال ابن أبى حاتم، عن سعيد بن المسيب، عن كعب الأحبار، قال: (كان البيت غثاءة على الماء، قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاما ومنه دحيت الأرض).

وحدثنا على بن أبى طالب: أن إبراهيم أقبل من أرض أرمينية ومعه السكينة، تدل على تبوؤ البيت، كما تتبوأ العنكبوت بيتا، فكشفت عن أحجار، لا يطبق الحجر إلا ثلاثون رجلا، فقلت: يا أبا محمد، فإن الله يقول: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] قال كان ذلك بعد.

وقال عبد الرزاق، عن عطاء بن أبى رباح، قال: (إن الله تعالى لما أهبط آدم من الجنة، كانت رجلاه فى الأرض، ورأسه فى السماء يسمع كلام أهل السماء، ودعاؤهم يأنس إليهم، فهابت الملائكة، حتى اشتكت إلى الله فى دعائها وفى صلاتها، فخفضه الله تعالى إلى الأرض).

فلقد فقد ما كان يسمع منهم، استحوش حتى شكا ذلك إلى الله فى دعائه وفى صلاته، فوجه إلى مكة، فكان موضع قدميه قرية، وخطوه مفازة، حتى انتهى إلى مكة، وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة، فكانت على موضع البيت الآن، فلم يزل يطوف به، حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة، حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام فبناه).

وقال السدى: إن الله عز وجل أمر إبراهيم أن يبنى البيت هو وإسماعيل: ابنيا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود، فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة، فقام هو وإسماعيل وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت، فبعث الله ريحا يقال لها: الريح الخجوج، لها جناحان ورأس فى صورة حية، فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعاها بالمعاول، يحفران حتى وضعا الأساس، فلما بنيا القواعد، فبلغا مكان الركن،

قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنى اطلب لى حجرا حسنا، أضعه ها هنا، قال: يا أبت إنى كسلان لغب، فانطلق لـه حجرا وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة، وكان آدم هبط به من الجنة، فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبت من جاءك بهذا، قال: جاء به من هو أنشط منك فبنياه وهما يدعوان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

بناء قريش للكعبة بعد إبراهيم

قال محمد بن إسحاق فى السيرة: (ولما بلغ رسول الله ﷺ خمس وثلاثون سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها، وإنما كانت رضا فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفرا سرق كنز الكعبة وكان فى بئر فى جوف الكعبة، وكان الذى عنده الكنز (دويك) مولى بنى مليح بن عمرو من خزاعة، فقطعت قريش يده - ويزعم الناس: أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك.

وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة، لرجل من تجار الروم، فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطى نجار، فهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم، فتشرف الحية على جدار الكعبة وكانت مما يهابون.

وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا حزألت وكشت، وفتحت فاها فكانوا يهابونها فبينما هى يوما تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائرا فاختطفها فذهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية.

فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنيانها قام ابن وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرا، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه.

فقال: يا معشر قريش: لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

قال ابن إسحاق: والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة.

ثم إن قريشا تجزأت الكعبة، فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم، وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم.

وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى، ولبنى أسد، ولبنى عدى بن كعب، وهو الحطيم.

ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم فى هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم ترع، اللهم إنا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله ما صنعنا.

فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله، فهدم وهدم الناس معه، حتى إذا انتهى بهم إلى الأساس، أساس إبراهيم عليه السلام، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضا، وقالوا: إن رجلا من قريش ممن كان يهدمها، أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضا أحدهما، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس.

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن (يعنى الحجر الأسود) فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا، وأعدوا للقتال.

فقربت للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما، ثم تعاهدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا: لعقة الدم.

فمكثت قريش على ذلك أربع أو خمس ليال، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد، فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن مخزوم، وكان عامئذ أمين قريش كلهم قال: محمد الأمين حكم بينهم ﷺ.

قال أبو أمية بن المغيرة: يا معشر قريش: اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضى بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ : هلم إلىّ ثوب، فأتى به، فأخذ الركن (يعنى الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه بيده ﷺ، ثم بنى عليه وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى (الأمين) وأتمت قريش بناء الكعبة، ذكره ابن كثير فى تفسيره ص ١٥٩ جـ ١.

ثناء الله ورسوله على إبراهيم

لما وفى إبراهيم أوامر الله من التكاليف العظيمة، جعله الله للناس إماما، يقتدون به ويأتمون بهديه، وسأل إبراهيم ربه: أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية فى نسبه، وخالدة فى عقبه، فأجيب له، واستثنى الله من نيلها الظالمون وبذلك يقول الله تعالى فى سورة الأنعام:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٨].

فكل كتاب أنزل الله من السماء على نبى من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته وذلك أنه ولد لـه لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر ثم إسحاق من سارة.

أما إسحاق: فولد لـه يعقوب (وهو إسرائيل) الذى ينتسب إليه سائر أسباطهم فكانت فيهم النبوة، وكثروا جدا، بحيث لا يعلم عددهم إلا الذى بعثهم حتى ختموا بعيسى ابن مريم.

أما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها، ولم يوجد من سلالته سوى خاتمهم على الإطلاق، وسيدهم، وفخر بنى آدم فى الدنيا محمد ﷺ.

إحياء الله للموتى

يقول الله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

لما حدثت المناظرة بين إبراهيم والنمرود الذى ادعى أنه يحيى ويميت، أراد الخليل أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال رب: أرنى كيف تحيى الموتى ليطمئن قلبى، فأجابه الله أن يأخذ أربعة من الطيور، قالوا: حمامة وديك وطاووس وغراب.

وقال ابن عباس (رضى الله عنهما) فى قول الله تعالى: ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل منهن جزءا، فذكروا: أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن، وخلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاءً وجعل على كل جبل منهم جزءا (قيل: أربعة جبال).

وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعيا، ليكون أبلغ له فى الرؤية التى سألها.

وجعل كل طائر يجىء ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته.

ولهذا قال الله: ﴿ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أى عزيز لا يغلبه شىء ولا يمتنع من شىء، فرضى إبراهيم بما شاهده، وزاد يقينه.

وادعت اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، فرد الله عليهم بقوله فى سورة آل عمران: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصۡرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

* * *

خليل الرحمن

يقول الله تعالى فى سورة النساء:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النساء: ١٢٤ - ١٢٦].

ويروى ابن أبى حاتم: أن عبيد بن عمير قال: (كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس فخرج يوما يلتمس إنسانا يضيفه، فلم يجد أحدا يضيفه، فرجع إلى داره، فوجد فيها رجلا قائما، فقال: يا عبد الله ما أدخلك دارى بغير إذنى ؟ قال: دخلتها بإذن ربها، قال: ومن أنت ؟ قال: أنا ملك الموت، أرسلنى ربى إلى عبد من عباده، أبشره بأن الله قد اتخذه خليلا، قال: ومن هو ؟ فوالله إن أخبرتنى به، ثم كان بأقصى البلاد لآتينه، ثم لا أبرح له جارا، حتى يفرق بيننا الموت، قال: ذلك العبد أنت، قال: أنا ؟ قال: نعم، قال: فبم اتخذنى ربى خليلا ؟ قال: بأنك تعطى الناس ولا تسألهم.

وقال ابن أبى حاتم، عن إسحاق بن يسار، قال: (لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ألقى فى قلبه الوجل، حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد، كما يسمع خفقان الطير فى الهواء).

وثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ لما خطبهم فى آخر خطبة خطبها قال: **«أما بعد ، أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر بن أبى قحافة خليلا ولكن صاحبكم خليل الله»**.

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام : **«أيها الناس ، إن الله اتخذنى خليلا»**.

وقد أثنى الله على إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم وذكره فى خمس وثلاثين موضعا، منها خمس عشرة فى سورة البقرة وحدها، وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الأنبياء فى سورة الأحزاب:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧].

وثبت فى الصحيحين عن كعب بن عجرة قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة عليك ؟ قال: قولوا : «**اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**».

وقال ابن عباس (رضى الله عنهما) فى قولـه تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس فى الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والسواك، والاستنشاق، وفرق الشعر، وخمس فى الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط، والبول بالماء.

وعن عائشة (رضى الله عنها) قال النبى ﷺ : «**عشر من الفطرة: قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، والختان ، وغسل البراجم – مفاصل الأصابع – ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء (الاستنجاء)**».

مولد إبراهيم ووفاته

ذكر ابن جرير: أن مولد إبراهيم كان فى زمن النمرود بن كنعان وهو الضحاك الملك المشهور الذى يقال أنه ملك ألف سنة وكان فى غاية الغشم والظلم.

وذكر المؤرخون: أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر، فهال ذلك أهل ذلك الزمان، وفزع النمرود، فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا: يولد مولود فى رعيتك يكون زوال ملكك على يده، فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين.

فكـان مولـد إبـراهيم الخليـل فـى ذلـك الحـين، فحمـاه الله عـز وجـل وصـانه مـن كيد الفجار.

وكـان مولـده بالسـوس، وقيـل: ببابـل، وقيـل: بالسـواد مكـان بـالعراق، وهـاجر بزوجتـه سـارة وماتـت سـارة قبلـه بقريـة حبـرون فـى أرض كنعـان، وكـان عمرهـا مائـة وسـبعة وعشـرون عامـاً، فحـزن عليهـا إبـراهيم ورثاهـا رحمهـا الله، واشـترى مـن رجـل مـن بنـى (حيـث) يقـال لـه: عقـرون بـن صـخر، اشـترى منـه إبـراهيم مغارة بأربعمائة مثقال، ودفن فيها سارة هناك.

صفة إبراهيم

روى يزيد بن هـارون عن أبـى هريـرة (رضـى الله عنـه) قـال: قـال رسـول الله ﷺ : **«إن فى الجنة قصرا – أحسبه قال: من لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهى ، أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا»**.

وقـال الإمـام أحمـد، عـن جـابر، عـن رسـول الله ﷺ قـال: **«عرض علىّ الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبها دحية»**.

وعـن ابـن عبـاس (رضـى الله عنهمـا) قـال: قـال رسـول الله ﷺ : **«رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم ، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جسيم»**، قالوا لـه: فإبراهيم، قال: **«انظروا إلى صاحبكم»**.

وعـن أبـى هريـرة قـال: (كـان إبـراهيم أول مـن تسرول، وأول مـن فـرق، وأول مـن استحد، وأول من اختتن بالقدوم وهو ابن مائة وعشرون سنة، وعاش بعدها ثمانين سـنة، وأول من قرى الضيف وأول من شاب).

قبر إبراهيم

مرض إبراهيم عليه السلام، ومات عن عمر مائة وخمسون وسبعون سنة، وذكر أن عمره مائتى سنة لحديث أبى هريرة (رضـى الله عنه أن الرسول ﷺ قال: **«اختتن إبراهيم**

بالقدوم وهو ابن مائة وعشرون سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة».

وقال أهل الكتاب: (إن إبراهيم لما مات دفن بالمغارة المذكورة التى كانت لحبرون الحيثى عند امرأته سارة، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقيل: إن قبره، وقبر ولده إسحاق، وقبر ولده يعقوب فى (المربعة) التى بناها سليمان ابن داود عليهما السلام ببلدة جبرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم، وهذا متلقى بالتواتر، أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا، وأن قبره بالمربعة تحقيقا.

أولاد إبراهيم الخليل من زوجاته الأربع:

من هاجر المصرية: إسماعيل.

من سارة: إسحاق.

من قنطور بنت يقطن الكنعانية:

١- زمران. ٢- مدين. ٣- يقشان.

٤- مادان. ٥- شوح. ٦- شياق.

من أحجون بنت أمين:

١- كيسان. ٢- سورج. ٣- أميم.

٤- لوطان. ٥- نافس.

* * *

الفصل الرابع
عذاب قوم لوط عليه السلام

يقول الله تعالى فى سورة النمل:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٨].

لوط نبى الله: هو لوط بن هاران بن تارخ (آزر)، وكان لوط قد نزح عن محلة عمه إبراهيم عليهما السلام بأمره، فنزل فى مدينة (سدوم) من أرض غور زغر، وكانت هذه المدينة أم تلك المحلة، ولها قرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم، وأسوأهم طوية، وأردأهم سريرة وسيرة.

أعمالهم السيئة

كانوا يقطعون الطريق ويخونون الرفيق، ويأتون فى ناديهم (وهو محل حديثهم وسمرهم) المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل: أنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم، ولا يستحون من مجالسيهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة فى المحافل، كالكلاب والوحوش ولا يستنكفون.

ومن أعمالهم: تصفيف الشعر، وحل الإزار، والصفير بالأصابع والتبرز فى الطرقات، وفرقعة الأكعب، ودخول الحمام بدون مئزر، واللعب بالحمام، والخمر، وابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم وهى إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله لهم من النساء الطاهرات اللاتى أحلهن الله لهم، وتلك سنة الله فى خلقه للتناسل وعمار الدنيا.

وابتدعوا المهارشة بين الكلاب، والمناطحة بين الكباش، والمناقرة بالديوك، واللعب بالنرد (الطاولة)، فدعاهم لوط إلى عبادة الله وحده، وترك هذه العادة الفاحشة، فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به، حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما نهوا عنه، ولم يستجيبوا لوعظ ولم يسمعوا نصيحة.

رسل الله إليهم

فعندئذ دعا عليهم نبيهم لوط، فسأل رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم الفاسقين، فأرسل الله إلى سيدنا إبراهيم ثلاثة من الملائكة هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل، على هيئة ضيوف، فقدم إليهم إبراهيم عجلا سمينا مشويا، فلم يمدوا أيديهم إليه، فخاف منهم، فقالوا له: إنا نبشرك بإسحاق نبيا من المرسلين، ولقد أرسنا الله إلى قوم لوط.

فأقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صورة شبان حسان، اختبارا من الله لقوم لوط، وإقامة الحجة عليهم، فاستضافوا لوطا عليه السلام، فخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره وحسبهم بشرا من الناس، وقال: هذا يوم عصيب، لأن قومه كانوا قد اشترطوا عليه ألاَّ يضيف أحدا، وهاهم نزلوا به، وطلبوا منه الضيافة، ولا محيد إلا أن يضيفهم ليدفع ما قد يحدث لهم إن تركهم عند غيره.

وذكر قتادة أن الملائكة الثلاثة وردوا على لوط، وهو فى أرض له يعمل فيها، فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم، وجعل يعرض عليهم فى الكلام، لعلهم ينصرفون عن هذه القرية، وينزلون فى غيرها.

فقال لهم فيما قال: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلا، ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كرره أربع مرات، وكانوا قد أمروا ألاَّ يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدى: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم، لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها،

وكانت للوط ابنتان، اسم الكبرى (ريثا) والصغرى اسمها (زغرتا) فقالوا لها: يا جارية: هل من منزل، فقالت لهم: نعم، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، شفقة عليهم من قومها.

فأتت أباها فقالت: يا أبتاه، أدرك فتيانا على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلا، فقالوا: خل عنا، فلنضيف الرجال.

فجاء بهم، فلم يعلم أحداً، إلا أهل البيت، فخرجت امرأته واسمها والهة فأخبرت قومها، فقالت: إن فى بيت لوط رجالا، ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاء قومه يهرعون إليه، فقال كما جاء فى سورة هود:

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [هود: ٧٨].

يرشدهم إلى غشيان نسائهم، وهن بناته شرعا، لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد، وخاطبهم ألاَّ يخزوه فى ضيوفه، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل فيه خير، بل الجميع سفهاء أغبياء، وكانت هذه الشهادة من لوط، من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه.

فردوا عليه:

﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود: ٧٩ - ٨٠].

ولوط: لو أن له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم، ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب.

ويرى أبو هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«رحمة الله على لوط أن كان يأوى إلى ركن شديد – يعنى الله عز وجل – فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه»**.

وذكر المفسرون: أن نبى الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم، والباب مغلق، وهم يريدون فتحه وولوجه، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب.

قالت الملائكة: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ ﴾ [هود: ٨١].

وذكروا: أن جبريل عليه السلام خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرق جناحه فطمست أعينهم، حتى قيل: أنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل، ولا عين ولا أثر، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون: إذا كان الغد، كان لنا وله شأن، ويقول الله تعالى فى سورة هود:

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨١ - ٨٣].

العذاب:

أمرت الملائكة لوطا أن يخرج بأهله وهم: ابنتاه ريثا وزغرتا، لم يتبعه رجل واحد وقالوا: أن امرأته خرجت معه (والله أعلم) فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس جاءهم من أمر الله ما لا يرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد.

قال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط ودورهم بطرف جناحه من قرارهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم، قيل أنهم كانوا أربعمائة نسمة، وقيل أربع آلاف نسمة وما معهم من الحيوانات، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأهم، فجعل عاليها سافلها، ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها.

وقـال القرظـى: كانـت قـرى قـوم لـوط خمـس قـرى: سـدوم، وصـعبة، وصـعود، وغمـرة، ودوحـاء احتملهـا جبريـل بجناحـه، ثـم صـعد بهـا حتـى أن أهـل السـماء الـدنيا ليسـمعون نابحـة كلابهـا وأصـوات دجاجهـا، ثـم كفأهـا علـى وجههـا، ثـم أتبعهـا الله بالحجارة.

وقـال السدى: لمـا أصبح قوم لـوط، نـزل جبريـل فـاقتلع الأرض مـن سبع أرضـين فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك قول الله تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم: ٥٣] ومن لم يمت حتى سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كـان منهم شـاذا فـى الأرض يتبعهم فـى القرى، فكـان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، مصداق قول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣].

وغشاها الله بمطر من حجارة من سجيل متتابعة، مسومة، مرقومـة، علـى كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه من الحاضرين منهم فى بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها.

حكم الإسلام فى اللواط

لما كان اللواط أكثر إثما وأقبح، وكانت مفسدته من أعظم المفاسد، كانت عقوبته فـى الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات، وهو أعظم عند الله من الزنا بالنساء.

قال ابن القيم رحمه الله:

(لـم ينـل الله سـبحانه وتعـالى بهـذه الكبيـرة قبـل قـوم لـوط أحـدا مـن العـالمين، وعـاقبهم عقوبـة لـم يعاقبهـا أحـدا غيـرهم، وجمـع علـيهم مـن أنـواع العقوبـات مـن الإهـلاك وقلـب ديـارهم علـيهم، والخسـف بهـم، ورجمهـم بالحجـارة مـن السـماء، فنكل بهم نكالا لم ينكله بأمة سواهم.

وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض أن تميد من جوانبها إذا عملت عليها، وتهرب الملائكة إلى أقطار السماوات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم، وتضرع الأرض إلى ربها تبارك وتعالى وتكاد الجبال تزول عن مكانها.

ونقل عن أبى عبد الله بن الحاج (رحمه الله) قال: وعقوبة اللائط عندنا حذر كالزانى مائة جلدة إن كان غير محصن، والرجم إن كان محصنا، وقيل عقوبة اللائط أن يلقى من شاهق، وترمى عليه الحجارة كما عذب الله قوم لوط، وهذا قول ابن عباس (رضى الله عنهما).

والذى نص على رجم اللائط من الأئمة: الشافعى، وأحمد، وطائفة قالوا: بأن اللائط يرجم سواء كان محصنا أو لا، واحتجوا بالحديث الذى رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه عن رسول الله ﷺ قال: **«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**، (حديث حسن).

وذهب أبو حنيفة: إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

روى أحمد والترمذى والحاكم وقال: صحيح عن جابر (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن أخوف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط»**.

وروى أحمد فى المسند عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ : **«ملعون من سب أباه ، ملعون من سب أمه ، ملعون من ذبح لغير الله ، ملعون من غيّر تخوم الأرض ، ملعون من كمه أعمى عن طريق ، ملعون من وقع على بهيمة ، ملعون من عمل بعمل قوم لوط»**.

وقال مجاهد (رضى الله عنه): (لو أن الذى عمل عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة من الأرض وبكل قطرة من السماء لم يزل نجسا).

وروى فى الكبائر: (أنه إذا ركب الذكر الذكر، اهتز عرش الرحمن خوفا من غضب الله تعالى، وتكاد السماوات أن تقع على الأرض فتمسك الملائكة بأطرافها وتقرأ السورة إلى آخرها.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

حتى يسكن غضب الله عز وجل

وروى ابن ماجه وأبو نعيم فى الحلية، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى، وقال الألبانى: حديث حسن صحيح عن ابن عمر قال: أقبل رسول الله ﷺ فقال: **«يا معشر المهاجرين ، خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركهن؛ لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكت مضت فى أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان ، إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»**.

واحذروا من... :

١ – المكامعة:

روى أحمد، وأبو داود، والنسائى، والدارمى، والبغوى فى شرح السنة، عن أبى ريحانة (رضى الله عنه) قال: (نهى رسول الله ﷺ عن مكامعة الرجل الرجل بغير شعار ومكامعة المرأة المرأة بغير شعار) ويقال لزوج المرأة: هو كميعها أى: ضجيعها.

ولا يجوز للمرأتين أن يتجردا تحت ثوب واحد، حتى وإن كانت إحداهن متجردة من ثيابها بجوار الأخرى على فراش واحد، بحيث لا تكون مهيأة

لجريمة السحاق الذى يحدث بتلذذ المرأة مع المرأة، وربما يلعب الشيطان دوره خاصة مع النساء العوانس بينهن، أو فى الأماكن التى يتجمع فيها البنات كالمعسكرات وبيوت الطالبات وسجون الحريم وبعض مستشفيات النساء، نسأل الله العفة لبناتنا ونسائنا.

ولقد ثبت فى صحيح مسلم، ورواه أحمد، والترمذى والبيهقى عن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا تنظر المرأة على عورة المرأة ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى الثوب الواحد ، ولا المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد»**.

٢ – المكاعمة:

المكاعمة: هى تقبيل الفم لفم الغير، أخذ من كعام البعير وهو أنه يشد فمه إذا هاج حتى لا يعض، بغير شعار: أى بلا حاجب من ثوب وخلافه.

ولقد نهى الإسلام الرجال أن يقبل أحدهما الآخر فى فمه، ونهى النساء أن تقبل إحداهن الأخرى فى فمها، وكثيرا ما يحدث هذا وذاك فى عصرنا، نسأل الله السلامة.

٣ – النظر إلى الغلام الأمرد:

فلقد ورد فى كتاب الكبائر: أن سعيد بن المسيب رحمه الله قال: (إذا رأيتم الرجل يلح فى النظر إلى الغلام الأمرد، فاتهموه) أى اتهموه باللواط.

ودخل سفيان الثورى الحمام، فدخل عليه صبى حسن الوجه، فقال: أخرجوه عنى فإنى أرى مع كل امرأة شيطانا، وأرى مع كل صبى حسن بضعة عشر شيطانا.

امرأة لوط

امرأة لوط يقال لها: والهة، ولقد ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم فى سورة العنكبوت:

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

وقال سبحانه في سورة هود:

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود: ٨١].

ووالهة مكثت مع قومها، وكانت عين خبيثة تدل قوم لوط على الشبان ضيوف لوط وتصف الشبان (وهم من الملائكة) بأن وجوههم حسنة لم تر العين أحسن منهم، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها، وخالفت أمر ربها قديما وحديثا، وقالت: واقوماه، فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها، إذ كانت على دينهم وعينا لهم على ضيوف لوط، وهذا جزاء الظالمين.

بحيرة منتنة

وجعل الله مكان تلك البلدة بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها، لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثله وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله، واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلا على رحمته بعبادة المؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٧ - ٦٨].

* * *

الباب الثالث
لعبة الشيطان الثانية مع البشر

منذ بدأ الله الخلق، وهم على التوحيد، لأن الله عز وجل قد أخذ الميثاق على ذرية آدم: ألست بربكم: قالوا بلى، وظلوا على ذلك العهد والميثاق عدة قرون، ثم لعب الشيطان الرجيم لعبته الأولى مع الناس، ودخل على عقولهم من محبتهم للرجال الصالحين فيهم، وخاصة بعد ممات هؤلاء الصالحين، وأغرى الناس أن يصوروهم على هيئة أصنام وتماثيل من الحجارة، تخليدا لذكراهم وقربا لمحبتهم، ولكن بعد أجيال وأحفاد، عبد هؤلاء الأحفاد هذه الأصنام والأوثان، وهذه هى اللعبة الأولى للشيطان ونسى الناس العهد والميثاق الذى اتخذه الله من ظهر آدم.

أما اللعبة الثانية للشيطان الرجيم، دخل على بعض فئات البشر من باب المعاملات والحب والكره بين أفراد الأسر، وحب المال والتباهى به والجاه والسلطان والمرض وما يحدث للإنسان فيه، والابتلاءات التى فرضها الله على الناس ليعرف الصادق منهم والصابر على قضائه، وبشر الصابرين بالأجر والثواب ولهذا وذاك وفقنى ربى إلى تقسيم هذا الباب إلى عدة فصول هى:

الفصل الأول:	**قصة مدين قوم شعيب.**
	يوسف وأخوته.
	أيوب ومرضه.
الفصل الثانى:	**قصة موسى مع فرعون مصر.**
	قارون عبيد المال.
الفصل الثالث:	**ابتلاءات أمة الإسلام – الخوف.**
	الفقر والجوع.
الفصل الرابع:	**المرض والأوجاع.**
	عذاب الدنيا عند الاحتضار.
	دواهى الموت.
	السفر قطعة من العذاب.

الفصل الأول
قصة مدين قوم شعيب

يقول الله تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٥ - ٩٠].

كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم (مدين) القريبة من أرض (معان) من أطراف الشام، مما يلى الحجاز، قريبا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، وقبيلة مدين عرفت بهم وهم: من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

ونبى الله شعيب: قالوا إنه شعيب بن يشخر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

وقالوا: إنه شعيب بن نويت بن عيفا بن مدين بن إبراهيم الخليل.

وقالوا: إنه شعيب بن صيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم، والله أعلم.

وقيل: إن جدته، وقيل: إن أمه بنت لوط.

وقالوا: إن شعيبا آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار، وهاجر معه إلى الشام، فزوجه لوط ابنته.

وكان شعيب يسمى (خطيب الأنبياء) لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته فى دعوة قومه إلى الإيمان، وكان أهل مدين كفارا يقطعون الطريق، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة وهى شجرة من الأيك حولها عيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان، ويطففوا فيهما، فيأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص.

فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو شعيب عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وترك الأعمال القبيحة، من بخس الناس وتخويفهم، فآمن به بعضهم، وكفر أكثرهم، وذكّرهم شعيب بنعم الله عليهم، فلقد كانوا قلة فى العدد، وكثرهم الله وقال لهم:

(إن الله يبارك لكم فى الربح القليل، إن كان عن طريق الحلال فى المعاملات، أما سرقة أموال الناس فى الكيل والميزان، فهذا عمل يمحقه الله ويذيقكم بأسه وعذابه).

فلم يسمعوا كلامه ولم يستجيبوا لنصحه، فأنذرهم ورهبهم، فقال كما جاء فى سورة هود:

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود: ٨٩].

ثم مزج الترهيب بالترغيب، فقال:

﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود: ٩٠ - ٩٤].

العذاب:

فلما عصوا وتمادوا فى العناد أخذتهم رجفة من الله، فرجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالا شديدا، أزهقت أرواحهم من أجسادهم وصيرت حيوان أرضهم كجمادها وأصبحت جثثهم لا أرواح فيها ولا حواس لها.

يوم الظلة

ومن عذابهم أن الحق تبارك وتعالى يقول فى سورة الشعراء:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

قال المفسرون: (إن قوم مدين لما عصوا شعيبا، أصابهم حر شديد من الله عز وجل، فأسكن الله هبوب الرياح عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء، ولا ظل، ولا دخولهم فى الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها.

فلما تكاملوا فيها، أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم الصيحة من السماء فأزهقت الأرواح، ولما ماتوا جميعا، نعاهم شعيب، موبخا إياهم ومؤنبا وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه، فلم ينفعكم ذلك، لأن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين، فلست أتأسف بعد هذا عليكم؛ لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا تخافون يوم الفضيحة.

موت شعيب وقبره

ذكر الحافظ ابن عساكر عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن شعيبا عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام.

وعن وهب بن منبه: أن شعيبا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربى مكة بين دار الندوة ودار بنى سهم.

يوسف وأخوته

يقول الله تعالى فى سورة يوسف:

﴿ الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦ ﴾ [يوسف: ١ - ٦].

ففى هذه السورة يمدح الحق تبارك وتعالى كتابه العظيم الذى أنزله على عبده ورسوله الكريم، بلسان عربى فصيح، بين واضح جلى، يفهمه كل عاقل ذكى، فهو أشرف كتاب نزل من السماء نزل به أشرف الملائكة على أشرف الخلق، فى أشرف زمان ومكان بأفصح لغة وأظهر بيان.

ولقد قال الإمام أحمد: عن جابر، أن عمر بن الخطاب، أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبى ﷺ، قال: فغضب وقال: «**أتتهوكون فيها يا بن الخطاب ، والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء فيخبرونكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى**»، (إسناد صحيح).

وروى هذا الحديث الإمام أحمد من وجه آخر عن عمر، فقال: وفيه: فقال رسول الله ﷺ : «**والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، إنكم حظى من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين**».

وقال ﷺ أيضا فى خطبته : «**يا أيها الناس... إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصارا ، وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ، ولا يغرنكم المتهوكون**» ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفا حرفا.

القصة:

نبى الله يوسف: هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

وأمه: راحيل بنت لابان، وله إخوة من الذكور إحدى عشر أخا، وأخت واحدة هى دينا.

ولقد رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم، كأن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر قد سجدوا له، والكواكب إشارة إلى بقية أخوته، والشمس والقمر إشارة إلى أبيه وأمه، فهاله ذلك، فلما استيقظ قص هذه الرؤيا على أبيه، فعرف يعقوب أن يوسف سينال منزلة عالية، ورفعة عظيمة فى الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبوه وأمه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها، وألاَّ يقصها على إخوته كى لا يحسدوه ويكيدوا له بأنواع الحيل والمكر.

الكواكب التى سجدت فى المنام

عن السدى، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر، قال: أتى النبى ﷺ رجل من اليهود يقال له: (بستانة اليهودى) فقال: يا محمد، أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها ؟ قال: فسكت النبى ﷺ، فلم يجبه بشىء، ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها، قال: فبعث إليه رسول الله، فقال: **«هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها»**، قال: نعم، فقال: هى:

١ - جريان.　　٢ - والطارق.　　٣ - والذيال.

٤ - وذو الكتفان.　　٥ - وقابس.　　٦ – ووثاب.

٧ - وعمودان.　　٨ - والفيلق.　　٩ - والمصبح.

١٠ - والضروح.　　١١ - وذو الفرع.　　١٢ - والضياء: أى القمر

١٣ – والنور أى: الشمس.

فقال اليهودى: أى والله. إنها لأسماؤها.

واشتد حسد إخوة يوسف بحب أبيه لـه، ولأخيه بنيامين (الأخ الشقيق ليوسف من أمهما راحيل) واتهموا أباهم بالضلال، لأنه قدم حبهما عليهم جميعا، فتشاوروا فى طرق لتحويل وجه أبيهم إليهم: إما بقتل يوسف أو بطرده وتغريبه، فقال أحدهم وهو شمعون: ألقوه فى أعماق البئر يلتقطه بعض المسافرين، ممن يردون البئر طلبا للماء، فوافق الجميع.

وذهبوا إلى أبيهم وقالوا فى الليل: يا أبانا، ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا لـه لناصحون، أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا لـه لحافظون، فأجابهم يعقوب: يا بنى، يشق على أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى عليه أن تشتغلوا عنه، فيأتى الذئب فيأكله، لأنه صغير ولا يستطيع دفع الذئب عنه، فردوا قائلين: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون.

وفى الصباح، أخذ الإخوة يوسف من أبيهم، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، وأجمعوا على إلقائه فى غيابة الجب (أى قعره) وهى الصخرة التى تكون فى وسطه، يقف عليها (الماتح) وهو الذى ينزل ليملأ الدلاء، إذا قل الماء.

فلما ألقوه به، أوحى الله إليه: إنه لابد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التى أنت فيها، وسوف تخبر إخوتك بصنيعهم هذا، فى حال أنت فيها عزيز وهم محتاجون إليك، خائفون منك.

فلما وضعوه فى البئر ورجعوا عنه، أخذوا قميصه فلطخوه بشىء من دم (سخلة) وهى ولد الضأن، ذبحوها وأخذوا من دمها، فوضعوه على قميصه ليوهموا أباهم أن الذئب أكل يوسف، ونسوا أن يخرقوا القميص لأن الذئب إذا أكل طفلا فلابد أن يمزق قميصه.

ورجعوا إلى أبيهم يبكون، أى فى ظلمة الليل ليكون أمشى لغدرهم، لا لعذرهم، ولكن أباهم كان يفهم عداوتهم ليوسف، ولهذا قال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر

جميل والله المستعان على ما تصفون، أى أن يعقوب فهم أنهم كاذبون، وعليه أن يصبر ويستعين بالله على صنيعهم.

يوسف فى مصر

ولما وضع يوسف فى البئر، جلس ينتظر فرج الله ولطفه به، فجاءت سيارة (أى مسافرون) كانت بضاعتهم الفستق والصنوبر والبطم (حبة خضراء) آتية من الشام قاصدين ديار مصر، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه، تعلق فيه يوسف، فلما رآه ذلك الرجل قال: يا بشرى، هذا غلام وأخذوه معهم، ضمن تجارتهم ليبيعوه فى ديار مصر.

فلما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له، لحقوهم، وقالوا: هذا غلامنا آبق منا، فاشتروه منهم بثمن بخس.

قال ابن مسعود (رضى الله عنه): اشتروه بعشرين درهما، وزعوها على أنفسهم درهمين لكل واحد، وكان رجال السيارة فى شراء يوسف من الزاهدين فيه.

فلما وصلت السيارة مصر باعوا يوسف، وكان الشارى عزيز مصر وأمين الخزائن فيها واسمه (أطفير بن روحيب) وامرأة ذلك العزيز تسمى: (راعيل بنت رماييل) ولقبها زليخا، وقيل: إن عزيز مصر اشترى يوسف من السيارة بعشرين دينارا، وقيل: بوزنه مسكا - ووزنه حريرا، ووزنه ورقا، وكان ملك مصر فى ذلك الزمان هو (الريان بن الوليد) رجل من العماليق.

يقول الله تعالى فى سورة يوسف:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[يوسف: ٢١ - ٢٢].

يخبرنا الحق تبارك وتعالى أنه أكرم يوسف، بأن اشتراه عزيز مصر الذى قال لزوجته زليخا: أكرمى مثواه واعتنى به، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا.

ولذلك قال ابن إسحاق عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال:

(أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]، والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب (رضى الله عنهما).

ومن كرم الله أيضا أنه سبحانه علمه تأويل الأحاديث وفهمها وتعبير الرؤيا وتفسيرها، والله غالب على أمره، أى إذا أراد شيئا فإنه يقيض له أسبابا وأمورا لا يهتدى إليها العباد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ولما بلغ يوسف أشده أى أربعين سنة على أصح الأقوال، وهو السن الذى يوحى الله فيه إلى عباده النبيين آتاه الله الحكمة فى تصرفاته والعلم من قبل الله عز وجل.

يوسف وزليخا

عاش يوسف فى بيت عزيز مصر، وشب وترعرع، وكان شابا بديع الجمال والبهاء، فهو ابن راحيل بنت لابان، التى أعجبت أبيه يعقوب، فعمل ورعى الغنم سبعة أعوام ليظفر بها، رغم أن خاله لابان قد زوجه (ليا) أختها الكبرى ولكنه أصر على راحيل لحسنها وجمالها.

ولعل يوسف ورث الجمال والبهاء من جدة أبيه (سارة) لأن يعقوب بن إسحاق، وإسحاق بن سارة، التى كانت وقتئذ أجمل نساء الأرض بعد حواء، والتى جعلت فرعون مصر يطمع فيها ولكن الله نجاها منه.

ولقد مر الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج على يوسف فى السماء الثالثة، فقال: **«فإذا هو قد أعطى شطر الحسن»**.

وقال أنس بن مالك (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال: **«أعطى يوسف وأمه شطر الحسن»**.

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد عن ربيعة الجرشى قال: (قُسم الحسن نصفين، فأعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن، والنصف الآخر بين سائر الخلق).

وقال الإمام السهيلى: (إن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن فى ذريته من يوازيه فى جماله، وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه).

وامرأة العزيز: هى راعيل بنت رماييل، وشهرتها زليخا.

قال ابن إسحاق: هى بنت أخت الملك الريان بن الوليد، ملك مصر فى ذلك الزمان، وهى فى غاية الجمال والمال والمنصب والشباب.

وقال أهل الكتاب: أن أطفير بن روحيب عزيز مصر وزوج زليخا، كان لا يأتى النساء، ولذلك كانت زليخا تعيش معه عذراء لهذا السبب.

وشب يوسف بشبابه وجماله خادما رقيقا لسيدته زليخا صاحبة الجاه والمال والشباب، فراودته عن نفسه وطلبت منه ما لا يليق بحاله ومقامه وأحكمت الخطة فى غياب زوجها، فلبست أحسن ثيابها، وأفخر لباسها وتهيأت له، وتصنعت وغلقت الأبواب عليها وعليه، وطلبت منه الفاحشة.

وقالت: هيت لك، أى: تعال واقترب منى، فإن جمالك ملك قلبى وعقلى.

ويقول الإمام القرطبى أنها قالت:

يا يوسف: ما أحسن صورة وجهك... قال: فى الرحم صورنى ربى.

يا يوسف: ما أحسن شعرك... قال: هو أول شىء يبلى منى فى قبرى.

يا يوسف: ما أحسن عينيك... قال: بهما أنظر إلى ربى.

يا يوسف: ارفع بصرك فانظر فى وجهى... قال: أخاف العمى فى آخرتى.

يا يوسف: أدنو منك وتتباعد عنى... قال: أريد بذلك القرب من ربى.

يا يوسف: القيطون (المخدع) فادخل معى.. قال: القيطون لا يسترنى من ربى.

يا يوسف: فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقض حاجتى... قال: إذن يذهب من الجنة نصيبى.

ولما عرف يوسف صريح عباراتها وأنها تريده للزنا، وأنه خادم وعبد مملوك لها، ولابد للعبد من طاعة سيدته، والامتثال لأوامرها، ولكنه تلطف معها، وكلمها بلغة الوفاء والإحسان لزوجها، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣].

أى لا يصح منى أن أفعل شيئا يغضب الله، ويستعيذ العاقل من الله من فعله هذا من جانب، أما الجانب الآخر: كيف أقابل إحسان زوجك إلى وحسن معاملته لى، وإيوائى فى بيته، ثم أخونه فى عرضه وشرفه، وهذه خيانة فى منتهى الظلم، والله لا يفلح الظالمون.

برهان الله ليوسف

قال المفسرون: إن من بلاغة القرآن، وهو كلام الله تعالى أنه أحيانا يحدث تقديم وتأخير فى المعنى، فالآية نصها:

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

قال المفسرون: (لولا أن رأى برهان ربه لهمت به وهم بها، وهذا تنزيه لنبى الله يوسف، أن يهم بمعصية).

وقال محمد بن إسحاق: (إن يوسف عليه السلام أثناء مراودتها له، رأى صورة أبيه يعقوب عاضا على إصبعه بفمه، مستنكرا ومحذرا إياه من الإقدام على ذلك...) وبعض الروايات: أنه ضرب على صدر يوسف.

وقال العوفى: عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن يوسف رأى خيال الملك (سيده أطفير) حين دان من الباب.

وقال ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظى: (قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فإذا كتاب فى حائط البيت:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢]،

ثم قال ابن جرير: (والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله، تزجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوبا من الزجر على ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شىء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى فى قوله:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف: ٢٤].

كيد النساء

يقول الله تعالى:

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف: ٢٥ - ٢٩].

ولما راودت زليخا خادمها يوسف وطلبت منه الفاحشة بصريح العبارة، قابلها بلطف فى الكلام الحسن، وقال: إنه ربى أحسن مثواى، فكيف أخونه فى عرضه وشرفه.

ولكن نار الشهوة وسيطرة حب يوسف على قلب زليخا، جعلتها تستخدم الحركة والقوة بأن جرت خلفه عندما أراد أن يهرب منها متجها إلى الباب، فأمسكت بقميصه ومزقته بحرقة الانتقام، وكيف لا يلبى طلبها ويستجيب لها وهى سيدته وهو خادمها عليه

السمع والطاعة لطلباتها.

ولكن كيف يستجيب لها فى شىء محرم وهو الفاحشة، وهو من سلالة الأنبياء وسيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء المذكورين فى الصحيحين (البخارى ومسلم) عن خاتم الأنبياء فى قوله ﷺ عن رب الأرض والسماء:

«سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله».

ففى اللحظة التى مزقت زليخا قميص يوسف عند الباب، دخل زوجها فبدرته بالكلام وحرضته عليه وقالت:

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف: ٢٥].

اتهمته وهى المتهمة، وبرأت عرضها ونزهت ساحتها، فلهذا قال يوسف: ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ [يوسف: ٢٦]، احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [يوسف: ٢٦].

قيل: كان ذلك الشاهد صغيرا فى المهد، قال ابن عباس (رضى الله عنهما) وهذا مصداق الذين قالوا: إن المتكلمين فى المهد أربعة: (صاحب يوسف، وابن ماشطة فرعون، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم).

فقال: إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين.

أى إن كان القميص قد من الأمام فهو الذى راودها فمزقت مقدمة قميصه، وإن كان القميص قد من دبر فهى التى لحقت به وأرادته فقدت قميصه من الخلف.

ولما ظهر تمزيق القميص من الخلف، قال زوجها: هذا الذى جرى من مكركن، أنت التى راودتيه عن نفسه، ثم اتهمتيه بالباطل، ثم قال زوجها ليوسف: أعرض عن هذا ولا تذكره لأحد، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها، والتوبة إلى ربها، لأن العبد إذا تاب تاب الله عليه، لأن المصريين كانوا يعبدون الأصنام ورغم ذلك يعرفون أن الله يغفر الذنوب، ويؤاخذ بها وحده، لا شريك له فى ذلك.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف: ٣٠ - ٣٢].

يذكر الله تعالى: ما كان من قبل نساء المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء فى الطعن على امرأة العزيز وعيبها، والتشنيع عليها فى مراودتها فتاها وحبها الشديد له، وهو لا يساوى هذا؛ لأنه مولى من الموالى وليس مثله أهلا لهذا؛ ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٠].

فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن فجمعتهن فى منزلها، وأعتدت لهن ضيافة مثلهن وأحضرت فى جملة ذلك شيئا مما يقطع بالسكاكين كالأترج (نوع من الفاكهة) وآتت كل واحدة منهن سكينا، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب وهو فى غاية طراوة الشباب.

وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة، فلما رأينه أكبرنه أى أعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا فى بنى آدم

وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يجزرن فى أيديهن بتلك السكاكين، ولا يشعرن بالجراح.

قال ابن مسعود (رضى الله عنه): كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه، وقال غيره: كان فى الغالب مبرقعا؛ لئلا يراه الناس.

ولكن بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته فأبى أشد الإباء، ونأى ودعا فقال فى دعائه:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف: ٣٣].

يوسف فى السجن

قال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأٓيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْأٓخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ [يوسف: ٣٥ - ٤٢].

يذكر الله تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم: أى ظهر لهم من الرأى بعدما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت، ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية، وأحمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلما وعدوانا.

وهذا كان مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به فإنه أبعد له عن معاشرتهن ومخالطتهن.

قال الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦].

قيل: كان أحدهما ساقى الملك واسمه فيما قيل (نبوا) والآخر خباز الملك، يعنى الذى يلى طعامه، واسمه فيما قيل (مجلث) وكان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما، فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه، ودله وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

قال أهل التفسير:

رأيا فى ليلة واحدة، أما الساقى فرأى كأن ثلاث قضبان من حبلة (فرع عنب) وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه، ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز، وضوارى الطيور تأكل من السلة الأعلى، فقصاها على يوسف وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦].

فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها، وقال:

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يوسف: ٣٧].

قيل: معناه مهما رأيتما من حلم، فإنى أعبره لكم قبل وقوعه، فيكون كما أقول، وقيل: معناه أنى أخبركم بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلوا وحامضا.

كما قال عيسى ابن مريم:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال لهما: إن هذا من تعليم الله إياى، لأننى مؤمن به موحد لـه، متبع ملة آبائى الكرام: إبراهيم الخليل، وإسحاق، ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله، ويجب علينا أن ندعو الناس ونرشدهم وندلهم على الله، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

وكانت دعوة يوسف لهما فى هذه الحالة فى غاية الكمال، لأن نفوسهما معظمة لـه، منبعثة على تلقى ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى عبادة الواحد القهار وهو الأنفع لهما، مما سألا عنه وطلبا منه.

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى التوحيد وترك ما يعبدون من دون الله وهى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، ثم قال لهما:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾ [يوسف: ٤١]، قالوا: وهو الساقى.

﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴾ [يوسف: ٤١] قالوا: وهو الخباز.

﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١].

أى وقع هذا لا محالة، ووجب كونه على كل حالة ولهذا جاء فى الحديث:

«الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر ، فإذا عُبرت وقعت».

وقد روى عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، أنهما قالا: (لم نر شيئا، فقال لهما: ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١].

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يوسف: ٤٢].

يخبر الحق تبارك وتعالى، أن يوسف قال للساقى: اذكر أمرى وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك، وفى هذا دليل على جواز السعى فى الأسباب، ولا ينافى التوكل على رب الأسباب. فنسى الساقى إخبار الملك بأمر يوسف فلبث فى السجن بضع سنين. والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل: إلى السبع، وقيل: إلى الخمس، وقيل: ما دون العشرة، حكاها الثعلبى، والله أعلى وأعلم.

رؤيا الملك

يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يوسف: ٤٣، ٤٤].

هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن، على وجه الاحترام والإكرام، وذلك أن ملك مصر (وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح) رأى هذه الرؤيا.

قال أهل الكتاب: رأى كأنه على حافة نهر، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان، فجعلن يرتعن فى روضة هناك، فخرجت سبع هزال من ذلك النهر، فرتعن معهن، ثم ملن عليهم فأكلتهن فاستيقظ مذعورا، ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة، وإذا بسبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن، فاستيقظ مذعورا.

فلما قصها على ملئه وقومه، لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها، بل قالوا: أضغاث أحلام، أى أخلاط أحلام من الليل، لعلها لا تعبير لها، ومع هذا فليس لنا خبرة بذلك، فعندئذ تذكر الناجى وهو الساقى الذى وصاه يوسف أن يذكره عند ربه، فنسيه إلى حينه هذا، وذلك من تقدير الله عز وجل، وله الحكمة فى ذلك، فلما سمع الساقى رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها، تذكر أمر يوسف.

ولهذا قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف: ٤٥ - ٤٩].

وعند أهل الكتاب: أن الملك لما ذكره لـه الساقى استدعاه إلى حضرته، وقص عليه ما رآه، ففسر لـه، وهذا غلط، والصواب ما قصه الله فى كتابه القرآن.

فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط، ولا طلب الخروج سريعا بل أجابهم إلى ما سألوه، وعبر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب، ويعقبها سبع جدب، ثم يأتى بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، أى يعنى ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم.

وأرشدهم إلى ما يعتمدونه فى حالتى خصبهم وجدبهم، وما يفعلون من ادخار حبوب سنى الخصب فى السبع الأول فى سنبله، إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأى والفهم.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف: ٥٠ - ٥٣].

لما أحاط الملك علما بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام، وتمام عقله، ورأيه السديد وفهمه، أمر بإحضاره ليكون من جملة خاصته، فلما جاءه الرسول بذلك أحب يوسف ألاَّ يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلما وعدوانا وأنه

بـرىء السـاحة ممـا نسـبوه إليـه بهتانـا، قـال ارجـع إلـى ربـك فاسـأله عـن النسـوة اللاتــى قطعـن أيـديهن. قيـل معنـاه: إن سـيدى العزيـز يعلـم براءتــى ممـا نسـب إلــى، أى فمـر الملـك فليسـألهن: كيـف كـان امتنـاعى الشـديد عنـد مـراودتهن إيـاى. فلمـا سئلن عـن ذلـك اعتـرفن بمـا وقـع مـن الأمـر، ومـا كـان منـه مـن الأمـر الحميـد، وقلـن: حـاش لله مـا علمنـا عليـه مـن سـوء، فعندئـذ قالـت زليخـا: الآن حصـحص الحـق أى: ظهر وتبين ووضح، أنا راودته عن نفسه، وأنه حبس ظلما وعدوانا.

قيـل: إنـه مـن كـلام يوسـف أى إنمـا طلبـت تحقيـق هذا، ليعلم العزيـز أنـى لـم أخنـه بالغيب.

وقيل: إنه من كلام زليخا، أى: إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفسى الأمر، وإنما كان مراودة، لم يقع معها فعل فاحشة.

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف: ٥٣]
قيل: إنه من كلام يوسف.. وقيل: من كلام زليخا.

وهو مفرع على القولين الأولين، وكونه من كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى، والله أعلم.

خروج يوسف من السجن

يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٧].

لمـا ظهـر للملـك بـراءة عرضـه ونزاهـة سـاحته عمـا كـانوا أظهـروا عنـه ممـا نسـبوه إليـه قـال: أحضـروه لأستخلصـه لنفسـى وأجعلـه مـن خاصـتى، مـن أكـابر دولتـى، ومـن أعيـان حاشـيتى، ولمـا كلمـه وسـمع مقالـه وتبـين حالـه، قـال الملـك: أنـت

ذو مكانــة وأمانــة، وطلــب يوســف منــه أن يكــون علــى خــزائن الأرض وأشــرف علــى الإهــراء (وهــو مكــان كبيــر كالبيــت الضــخم يجمــع فيــه طعــام الســلطان) لمــا يتوقــع مــن حصــول الخلــل والضــياع بعــد مضــى ســبع ســنى الخصــب، وأخبــر يوســف الملــك أنـــه حفــيظ وقــوى علــى حفــظ مــا لديــه مــن أمــوال وعلــيم بضــبط الأشــياء والإهــراء. وعنــد أهــل الكتــاب أن فرعــون مصــر، عظّــم يوســف عليــه الســلام جــدا، وســلطه علـــى جميـــع أرض مصـــر، وألبســـه خاتمـــه، وألبســـه الحريـــر، وطوقـــه الــذهب، وحملــه علــى مركبــه الثــانى، ونــودى بــين يديــه: أنــت ربــى ومســلط، وقــال لــه: لست أعظم منك إلا بالكرسى.

قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، وزوجه امرأة عظيمة الشأن.

وحكى الثعلبى: أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف.

وقيل: أنـه لمـا مـات أطفير عزيـز مصـر، زوجـه الملـك زليخـا فوجدها عذراء لأن زوجها كان لا يأتى النساء، فولدت ليوسف رجلين هما: أفرايم ومنسا.

واستوثق ليوسف ملك مصر، وعمل يوسف بالعدل فأحبه الرجال والنساء.

وحكى أن يوسف كـان يوم دخل علـى الملك عمره ثلاثين سنة، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة، وفى كل ذلك يجاوبه بكل لغة منها، فأعجبه ذلك مع حداثة سنه، والله أعلم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف: ٥٦] أى: بعد السجن والضيق والحصر، صار يوسف مطلق الركاب بديار مصر يتبوأ منها حيث يشاء، وهذا من جزاء الله لـه لعفته.

وذكر محمد بن إسحاق: أن صاحب مصر - الوليد بن الريان - أسلم على يد يوسف عليه السلام، والله أعلى وأعلم.

مجيء أخوة يوسف لمصر

يقول الله تعالى:

﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢ ﴾ [يوسف: ٥٨ - ٦٢].

جاءت سنو الجدب فعمت البلاد والعباد، وجاء إخوة يوسف إلى البلاد المصرية ليشتروا الحبوب والطعام، وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم فى أمور الديار المصرية دنيا ودين، فلما دخلوا عليه عرفهم، ولم يعرفوه لأنه لم يخطر على بالهم ما صار إليه يوسف من المكانة والعظمة.

وعند أهل الكتاب: أنهم لما قدموا عليه سجدوا لـه فعرفهم، وأراد ألاَّ يعرفوه فأغلظ لهم فى القول، وقال: أنتم جواسيس، جئتم لنا لتأخذوا خير بلادى، فقالوا: معاذ الله، إنما جئنا نمتار (نشترى) لقومنا من الجهد والجوع الذى أصابنا، ونحن بنو أب واحد من كنعان، ونحن اثنى عشر رجلا، ذهب منا واحد، وصغيرنا عند أبينا.

فقال: لابد أن أستعلم أمركم - وعندهم - أى أهل الكتاب قالوا: أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم، واحتبس شمعون عنده، ليأتوه بالأخ الآخر، والله أعلم.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ ﴾ [يوسف: ٥٩].

أى أعطاهم من الميرة، ما جرت به عادته، من إعطاء كل إنسان حمل بعير، لا يزيده عليه، وكان قد سألهم عن حالهم وكم هم، فقالوا: كنا اثنى عشر رجلا فذهب منا واحد، وبقى شقيقه عند أبينا، فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتونى به معكم، ألا ترونى أنى قد أحسنت نزلكم وقراكم، فرغبهم ليأتوه به، ثم رهبهم وقال: إن لم تأتونى به فلست أعطيكم ميرة، ولا أقربكم بالكلية، عسى ما أسدى إليكم.

فاجتهدوا فى إحضاره معهم، ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب، وقالوا: سنجتهد فى مجيئه، وإنا لقادرون على تحصيله فى العام المقبل.

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهى ما جاؤوا به (وهى صرر من ورق وما أشبه) يتعوضون به عن الميرة، فوضعها الفتيان فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون لعلهم يعرفونها إذا رجعوا إلى بلادهم.

قيل: أراد يوسف أن يردوها إذا وجدوها فى بلادهم.

وقيل: خشى يوسف ألاَّ يكون عندهم ما يرجعون به فى المرة الثانية القادمة.

وقيل: تذمم واستحيا أن يأخذ منهم عوضا عن الميرة، والله أعلم.

يقول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يوسف: ٦٣ - ٦٦].

يذكر الحق تبارك وتعالى: ما كان من أمرهم، بعد رجوعهم إلى أبيهم، وقولهم له:

﴿ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ ﴾ [يوسف: ٦٣]، أى بعد عامنا هذا، إن لم ترسل معنا أخانا، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا الكيل، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، فقالوا: يا أبانا: لا نريد أى شىء وقد ردت إلينا بضاعتنا، وسوف نشترى ونأتى أهلنا بما يصلحهم فى سنتهم ومحلهم، ونحفظ أخانا ونزداد بسببه كيل بعير.

وكان يعقوب عليه السلام يضن بولده بنيامين، ويحافظ عليه لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه يوسف، ويتسلى به عنه، ويتعوض بسببه منه، ولذلك قال:

﴿ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف: ٦٦].

أى لا تغلبوا كلكم عن الإتيان به، فلما أكد المواثيق وقرر العهود، واحتاط لنفسه فى ولده - ولن يغنى حذر من قدر - ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة (أى الحبوب والطعام) لما بعث الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكام، والرب تعالى يقدر ما يشاء، ويختار ما يريد، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم.

ثم قال: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يوسف: ٦٧ - ٦٨].

ثم أمر يعقوب أولاده: ألاَّ يدخلوا المدينة من باب واحد، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة.

قيل: أراد ألاَّ يصيبهم أحد بالعين، وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة، وصورا بديعة، قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدى.

وقيل: أراد يعقوب عليه السلام أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبرا ليوسف، أو يحدثون عنه بأثر، قاله إبراهيم النخعى... والأول أظهر ولهذا قال: ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ [يوسف: ٦٧].

وعند أهل الكتاب: أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل، وأخذوا الدراهم الأولى وعرضا آخر.

يقول الله تعالى:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ

بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يوسف: ٦٩ - ٧٥].

يذكر الحق تبارك وتعالى: ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف، وإيوائه إليه، وإخباره له سرا عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم، وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه وهو صغير.

ثم احتال يوسف على أخذ أخيه بنيامين منهم وتركه إياه عنده دونهم، فأمر فتيانه بوضع سقايته وهى التى كان يشرب بها، ويكيل بها للناس الطعام فى متاع بنيامين، ثم أعلنهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك، ووعدهم إن يردوه يعطهم حمل بعير.

فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قال لهم، وقالوا: تالله ما جئنا لنفسد فى الأرض، وأنتم تعلمون أننا ما جئنا للسرقة.

وكانت شريعتهم تفيد: أن السارق يدفع إلى المسروق منه ما يريد.

يقول الله تعالى:

﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

[يوسف: ٧٦ - ٨٢].

لما نجحت خطة يوسف لأخذ أخيه بنيامين، بدأ البحث عن صواع الملك فى أوعيتهم فلم يجد الصواع ثم استخرج الصواع من وعاء أخيه، وقالوا: إنه سرق أخوه يوسف من قبل، وحاولوا إبدال بنيامين بأحدهم لأن أباه شيخ كبير وأخذ عليهم مواثيق وعهود فلم يرض يوسف، وقال كبيرهم وهو (روبيل): بناء على المواثيق التى أخذها أبى علينا لن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى، أو يحكم الله فينا وهو خير الحاكمين.

إحساس يعقوب باللقاء

يقول الله تعالى: قال يعقوب عليه السلام:

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف: ٨٣ - ٩٢].

تحقيق رؤيا يوسف

وقال الله تعالى فى سورة يوسف:

﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ

مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ٩٣ - ١٠١].

موت يعقوب

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ثم توفى عليه السلام، وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق.

قال السدى: فصبره وسيره إلى بلاد الشام، فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام.

قصة أيوب والمرض

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء:

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

قال ابن إسحاق: إن أيوب كان رجلا من الروم، واسمه: أيوب بن موص بن رازح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقال غيره: هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب، وقيل: غير ذلك.

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام، وقيل: كان أبوه ممن آمن بـإبراهيم عليه السلام يوم ألقى فى النار، فلم تحرقه.

والمشهور الأول، لأنه من ذرية إبراهيم كما جاء فى قول الله تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٤].

والصحيح أن أيوب من سلالة العيص بن إسحاق، وامرأته قيل: اسمها (ليا) بنت يعقوب، وقيل: (رحمة) بنت أفراثيم، وقيل (ليا) بنت منسا بن يعقوب، وهذا أشهر.

وروى ابن عساكر من طريق الكلبى أنه قال: أول نبى بعث هو إدريس، ثم نوح، ثم إسماعيل، ثم إسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوط، ثم هود، ثم صالح، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم عرفى بن سويلخ بن أفراثيم بن يوسف بن يعقوب، ثم يونس بن متى من بنى يعقوب، ثم أيوب ابن زراح.

وفى بعض هذا الترتيب نظر، فإن هودا وصالحا المشهور أنهما بعد نوح وقيل: إبراهيم، والله أعلم.

مرض أيوب

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام والعبيد والمواشى والأراضى المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران.

وحكى ابن عساكر: أن الأراضى كلها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير، فسلب منه ذلك جميعه، وابتلى فى جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضو سليم، سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بهما، وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله

عز وجل فى ليله ونهاره وصباحه ومسائه.

وطال مرضه حتى عافاه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارج البلد، وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها.

فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته، وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه، وتقوم بأوده (رضى الله عنها وأرضاها) وهى صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل»**.

وقال ﷺ : **«يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه»**.

ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا، حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب المثل أيضا بما حصل له من أنواع البلايا.

وقد روى عن وهب بن منبه، وغيره من علماء بنى إسرائيل فى قصة أيوب خبر طويل، فى كيفية ذهاب ماله وولده، وبلائه فى جسده، والله أعلم بصحته.

مدة مرض أيوب

روى مجاهد (رحمه الله) أنه قال:

(كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدرى، وقد اختلفوا فى مدة بلواه على أقوال: فزعم وهب أن أيوب ابتلى ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص.

وقـال أنـس (رضـى الله عنـه): ابتلـى سـبع سـنين وأشـهرا، وألقـى علـى مزبلـة لبنـى إسـرائيل تختلـف الـدواب فـى جسـده، حتـى فـرج الله عنـه، وأعظـم لــه الأجـر وأحسن الثناء عليه.

وقال حميد: مكث أيوب فى بلواه ثمانية عشر سنة.

وقـال السـدى: تسـاقط لحمـه حتـى لـم يبـق إلا العظـم والعصـب، فكانـت امرأتـه تأتيـه بالرمـاد تفرشـه تحتـه، فلمـا طـال عليهـا قالـت: يـا أيـوب، لـو دعـوت ربـك لفـرج عنـك، فقـال: قـد عشـت سـبعين سـنة صـحيحا، فهـل قليـل لله أن أصـبر لــه سـبعين سـنة، فجزعـت مـن هـذا الكـلام، وكانـت تخـدم النـاس بـالأجر وتطعـم أيـوب عليـه السلام.

ثـم إن النـاس لـم يكونـوا يسـتخدمونها، لعلمهـم أنهـا امـرأة أيـوب خوفـا أن ينـالهم مـن بلائــه، أو تنقـل العـدوى إلـيهم بمخالطــة زوجهــا المـريض، فلـم تجـد أحـدا يسـتخدمها فباعـت إحـدى ضـفيرتيها لـبعض بنـات الأشـراف لتشـترى طعامـا طيبـا لزوجهـا، فأتـت بـه أيـوب، فقـال: مـن أيـن لـك هـذا، وأنكـره فقالـت: خـدمت بـه أناسـا، فلمـا كـان الغـد، لـم تجـد أحـدا يسـتخدمها، فباعـت الضـفيرة الأخـرى بطعـام، فأتـت بـه زوجهـا، فـأنكره وحلـف ألا يأكـل منــه حتـى تخبـره، فكشـفت عـن رأسـها خمارهـا فلما رأى رأسها محلوقة، قال فى دعائه:

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

ظن أصحاب أيوب له

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جريـر بـن حـازم، عن عبـد الله ابن عبيد بن عمير قـال: كـان لأيـوب أخـوان، فجـاءا يومـا فلم يستطيعا أن يدنوا منـه مـن ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما لصـاحبه: لـو كـان الله علم من أيوب خيـرا مـا ابـتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع مثله من شىء قط فقال:

(اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقنى فصدق من السماء وهما يسمعان).

ثم قال: (اللهم إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط، وأنا أعلم مكان عار فصدقنى فصدق من السماء، وهما يسمعان).

ثم قال: (اللهم بعزتك وخر ساجدا فقال: اللهم بعزتك: لا أرفع رأسى أبدا حتى تكشف عنى) فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه.

وقال ابن أبى حاتم، وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى: أنبأنا ابن وهب، أخبرنى نافع بن يزيد، عن عقيل، عن الزهرى، عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: **«إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين من إخوانه ، كانا من أخص إخوانه له ، كانا يغدوان عليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين ، قال صاحبه: وما ذاك ، قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به ، فلما راحا إليه ، لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب: لا أدرى ما تقوى غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا فى حق»**.

قال: وكان يخرج فى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه.

فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه أن: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص: ٤٢].

فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك هل رأيت نبى الله هذا المبتلى، فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا، قال: فإنى أنا هو.

وكان لـه أندران (جرنـان) أندر للقمح وأنـدر للشـعير، فبعث الله سـحابتين فلمـا كانـت إحـداهما علـى أنـدر القمح أفرغت فيـه الذهب حتـى فـاض، وأفرغت الأخـرى فـى أنـدر الشعير الورق (أى الفضة) حتى فاض.

بعد الصبر فرج

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أنبأنا على بن زيد عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: (وألبسـه الله حلـة مـن الجنة فتنحى أيوب وجلس فى ناحية، فجاءت امرأتـه فلم تعرفـه، فقالت: يـا عبد الله، أين ذهب هذا المبتلى الذى كان هاهنا.

لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك أنا أيوب، قالت: أتسخر منى يا عبد الله، فقال: ويحك أنا أيوب قد رد الله على جسدى).

وقـال ابـن عبـاس (رضـى الله عنهمـا): ورد الله عليـه مالـه وولـده بأعيـانهم ومـثلهم معهم.

وقـال وهب بـن منبـه: (أوحـى الله إليـه: قد رددت عليك أهلك ومالك ومـثلهم معهـم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك، وقرب عن صحابتك قربانـا، واستغفر لهم، فإنهم قد عصونى فيك).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبـو زرعـة، حدثنا عمرو بـن مـرزوق، حدثنا همـام، عن قتادة عن النضر بن أنس، عن بشير بن نهيك، عن أبـى هريـرة عن النبـى ﷺ قـال: **«لما عافى الله أيوب عليه السلام ، أمطر عليه جرادا من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده ، ويجعل فى ثوبه ، قال: فقيل لـه: يا أيوب ، أما تشبع ، قال: يا رب.. ومن يشبع من رحمتك»**، رواه ابن حبان فى صحيحه.

إصلاح أهله وامرأته

روى البخارى من حديث عبد الرزاق، وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ : **«بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثى (أى يغترف) فى ثوبه، فناداه الله عز وجل: يا أيوب.. ألم أكن أغنيتك عما ترى ، قال: بلى يا رب ، ولكن لا غنى لى عن بركتك»**.

وقوله تعالى: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ [ص: ٤٢] أى اضرب الأرض برجلك، فامتثل ما أمر به فأتبع الله عينا باردة الماء، وأمر أن يغتسل فيها، ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى، والسقم والمرض، الذى كان فى جسده ظاهرا وباطنا، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالا تاما ومالا كثيرا حتى صب له من المال صبا، مطرا عظيما جرادا من ذهب.

وأخلف الله له أهله، كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

فقيل أحياهم الله بأعيانهم، وقيل آجره فيمن سلف، وعوضه عنهم فى الدنيا بدلهم، وجمع له شمله بكلهم فى الدار الآخرة رحمة من عندنا أى: رفعنا عنه شدته، وكشفنا ما به من ضر، رحمة منا به ورأفة وإحسانا، وذكرى للعابدين، أى تذكرة لمن ابتلى فى جسده وماله أو ولده، فله أسوة بنبى الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك، فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه.

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال هى (رحمة) من هذه الآية، فقد أبعد النجعة وأغرق النزع، وقال الضحاك عن ابن عباس (رضى الله عنهما):

(رد الله إليها شبابها، وزادها حتى ولدت له ستة وعشرين ولدا ذكرا، وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية، ثم دين إبراهيم).

وقالوا: فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط لأنها باعت ضفائرها.

وقيل: لأنه عارضها الشيطان فى صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب، فأتته فأخبرته، فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها مائة سوط فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثا وهو كالعثكال الذى يحمل الشماريخ فيجمعها كلها ويضرب به ضربة واحدة، ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط، فيبر بقسمه ولا يحنث.

* * *

الفصل الثانى
موسى وفرعون مصر

قال الله تعالى فى سورة القصص:

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ ﴾ [القصص: ٣ - ٤].

نبى الله موسى: هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم جميعا الصلاة والسلام.

قال السدى: إن اسم أم موسى (أيارخا)، وقيل: (أياذخت).

أما فرعون فقد علا فى الأرض: أى تجبر وعتا، وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى، وجعل أهلها شيعا: أى قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع، يستضعف طائفة منهم وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله.

وكانوا إذ ذاك خيال أهل الأرض، وقد سلط الله عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف، وأرادها وأدناها ومع هذا يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، إنه كان من المفسدين.

وكان من أسباب هذا الصنيع القبيح لبنى إسرائيل، كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم الخليل، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، وكانت هذه البشرى مشهورة فى بنى إسرائيل.

فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمراضه وأساورته، وهم يسمرون عنده، فأمر بقتل أبناء بنى إسرائيل حذرا من وجود هذا الغلام ضمن المولودين - ولن يغنى حذر من قدر.

رؤيا فرعون

ذكر السدى عن أبى صالح وأبى مالك، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وعن مرة عن ابن مسعود (رضى الله عنه) عن أناس من الصحابة (رضوان الله عليهم جميعا) قالوا: إن فرعون رأى فى منامه كأن نارا قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضر بنى إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان.

ولهذا قال الله تعالى فى سورة القصص: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

يوضح الحق تبارك وتعالى أن الله يريد أن يمن على المستضعفين فى الأرض وهم بنو إسرائيل، وأن يجعلهم الوارثين، يؤول إليهم حكم مصر وبلادها، ويجعل الضعيف قويا والمقهور قاهرا، والذليل عزيزا، ويخرج لهم من الأرض جنات وعيوناً. والمقصود: أن فرعون أخذ كل أنواع الحيطة والحذر أن يوجد ذلك الغلام الذى سيولد فى بنى إسرائيل، ويزيل ملك مصر وفرعون على يديه، حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى من النساء فيعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكرا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته. هذا والقدر يقول: يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده، وسلطة بأسه، واتساع سلطانه قد حكم العظيم الذى لا يغالب ولا يمانع، ولا تخالف أقداره: إن هذا المولود الذى تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك، وأنت الذى تتبناه وتتفداه، ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاء به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوى الشديد، ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التى لا مرد لها.

مولد موسى عليه السلام

يقول الله تعالى فى سورة القصص:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [القصص: ٧ - ١١].

وقد ذكر بعض المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون.

فأمر فرعون بقتل الأبناء عاما وأن يتركوا عاما، فذكروا أن هارون عليه السلام ولد فى عام المسامحة، وأن موسى ولد فى عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعا، واحترزت من أول
ما حملت به ولم يكن يظهر عليها مخايل الحمل.

فلما وضعت ألهمت من الله أن اتخذت لـه تابوتا، فربطته فى حبل، وكانت دارها متاخمة لنهر النيل، فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته فى ذلك التابوت، فأرسلته فى البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها، وفى إحدى المرات أرضعت موسى ونسيت أن تربط الحبل فسار التابوت فى النيل.

ذكر المفسرون:

أن الجوارى التقطت التابوت من النيل، وكان التابوت مغلقا، فلم يتجاسرون على فتحه، حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون (آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد) الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف عليه السلام.

فلما فتحت باب التابوت وكشفت الحجاب، ورأت وجه موسى بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبا شديدا جدا.

فلما جاء فرعون، قال: ما هذا، وأمر بذبحه، فاستوهبته منه، ودافعت عنه وقالت: قرة عين لى ولك لا، فقال لها فرعون:

أما لك فنعم، وأما لى فلا، أى لا حاجة لى به، والبلاء موكل بالمنطق.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص: ١٠].

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: إن أم موسى أصبح قلبها خاليا من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى، وكادت أن تسأل عنه جهرة، ولكن الله صبّرها وثبتها، وقالت لأخته تتبعى أثره، واطلبى لى خبره، وإياك أن يشعر بك أحد، فجعلت الأخت تنظر إليه وكأنها لا تريده.

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص: ١٢].

لما استقر موسى بدار فرعون، أرادوا أن يغذوه برضاعة، فلم يقبل ثديا ولا طعاما، فحاروا فى أمره، فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته، فبينما هم وقوف به، والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته فلم تظهر أنها تعرفه، بل قالت:

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص: ١٢].

قال ابن عباس (رضى الله عنهما): لما قالت ذلك، قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ قالت: رغبة فى سرور الملك، ورجاء منفعته.

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحا شديدا، وذهب البشير إلى (آسية) يعلمها بذلك، فاستدعت

آسية أم موسى، وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن إليها، فأبت أم موسى وقالت: إن لى بعلا وأولادا، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى، فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب، وأجرت عليها النفقات والكسارى والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها، وقد جمع الله شمله بشملها، لتعلم أن الله وعده حق ولن يخلف الله وعده.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص: ١٤].

يخبر الحق تبارك وتعالى أنه سبحانه أنعم على أمه برده لها، وإحسانه بذلك وامتنانه عليها، شرع فى ذلك ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى وهو احتكام الخلق والخلُق، وهو سن الأربعين آتاه الله حكما وعلما، وهو النبوة والرسالة التى كان بشر بها أمه حين قال:

﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص: ١٥ - ١٦].

ولما دخل المدينة فى نصف النهار وجد فيها رجلين يقتتلان ويتهارشان هذا من شيعته أى إسرائيلى، وذاك من عدوه أى قبطى فاستغاثه الإسرائيلى على القبطى، وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة؛ لأنه فرعون تبناه وقام بتربيته، وكانت رجال بنو إسرائيل قد عزوه وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله من الرضاعة فاستغاثه الإسرائيلى على ذلك القبطى، قام موسى فطعن القبطى بجمع كفه - وقالوا: بعصىً كانت معه، فمات القبطى لضعفه وقوة طعن موسى له، وكان ذلك القبطى كافرا لم يرد موسى قتله ولكن أراد زجره وردعه.

ورغم هذا قال موسى: هذا من عمل الشيطان واستغفر الله من فعلته، فغفر لـه.

موسى بأرض مدين

يقول الله تعالى:

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾ [القصص: ١٨ - ٢٧].

فلما علم فرعون أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس، فأرسل فى طلبه، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب، وقال: يا موسى، إن القوم يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج فورا.

فخرج موسى من مصر على الفور على وجهه لا يهتدى إلى الطريق، ولا يعرفه وقال: رب نجنى من القوم الظالمين، ولما ورد بئر مدين، وهى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام وجد فيها الرعاة يسقون غنم، ومن دونهم ابنتان تتكفكفان بأغنامهما مخافة أن تختلط أغنامهما بغنم الناس الآخرين.

قال المفسرون: وذلك أن الرعاة كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجىء هاتان البنتان فيشربان غنمهما فى فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم رد الحجر كما كان، قال أمير المؤمنين عمر: (وكان لا يرفعه إلا عشرة رجال).

ثم تولى إلى الظل، قالوا: وكان ظل شجرة من السمر، وأنه رآها خضراء فجلس تحتها.

وقال ابن عباس (رضى الله عنهما): إن موسى سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل (وهو الفجل) وورق الشجر وكان حافيا، سقطت نعلا قدميه من الحفاء، وجلس فى الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة.

ولما جلس موسى عليه السلام فى الظل قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما، فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام، فأمر إحداهما: أن تذهب إليه فتدعوه، صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة.

وقص موسى قصته مع فرعون على أبيهما وهو (شعيب) فقال له: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، ولما أضافه شعيب وأكره مثواه، قالت إحدى البنتين لأبيها: يا أبت استأجره أى: لرعى غنمك، ثم مدحته بأنه قوى أمين.

قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق: لما قالت ذلك، قال لها أبوها: وما علمت بهذا، فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: كونى خلفى وإذا اختلفت الطريق احذفى حجرا أعلم به الطريق.

موسى يعود إلى مصر

لما تزوج موسى ابنة شعيب الصغرى، ومكث عشر سنين يرعى غنم شعيب، وهذا أغلى مهر فى العالم حتى الآن، قضاها موسى وآجر نفسه (بعفة فرجه وطعمة بطنه).

أراد موسى فراق شعيب، ليعود إلى قومه بنى إسرائيل بأرض مصر، فقال لامرأته أن تسأل أباها: أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه، من قالب لون ما ولد ذلك العام، وكانت غنم شعيب سوداء حسانا.

فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها، ثم وضعها فى أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها، ووقف موسى بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة إلا شاة أو شاتين، فأتأمت وألبنت (أى تغيرت ألوانها) فى المواليد، ووضعت كلها فى قوالب ألوان، ليس فيها: قشوش ولا ضبوب ولا غزوز ولا ثعول ولا كموش تفوت الكف.

قال النبى ﷺ : **«لو افتتحتم الشام ، وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية»**.

قال ابن لهيعة: الغنم القشوش: أى الغنم واسعة الشخب.

والضبوب: الغنم طويلة الضرع تجره.

والعزوز: الغنم ضيقة الشخب.

والثعول: الغنم الصغيرة الضرع كالحلمتين.

والكموش: الغنم التى لا يحكم الكف على شرعها لصغره.

وقال ابن جرير (موقوفا): حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: لما دعا نبى الله موسى صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها، فلك ولدها،

فعمد موسى فوضع حبالا على الماء فلما رأت الحبال فزعت، فجالت جولة، فولدن كلهم بلقاء إلا شاة واحدة فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام.

يقول الله تعالى:

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص: ٢٩ - ٣٢].

قال المفسرون: وفى ليلة مظلمة باردة تاه موسى وزوجته فى طريقهم، فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف، وجعل يورى زناده فلا يرى شيئا، واشتد الظلام والبرد.

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارا تتأجج فى جانب الطور، وهو الجبل الغربى منه عن يمينه، فقال لأهله: امكثوا، إنى آنست نارا وكأنه والله أعلم رآها دونهم؛ لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة ولا يصلح رؤيتها لكل أحد.

لعلى أستعلم من عندها عن الطريق، أو آتيكم منها بجذوة وقد أتاهم بخبر وأى خبر، ووجد عندها هدى، وأى هدى، واقتبس منها نورا وأى نور، حيث قال الله تعالى:

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [طه: ١١ - ١٦].

قال بعض المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التى رآها فانتهى إليها وجدها تأجج فى شجرة خضراء من العوسج (الشوك) وكل ما لتلك النار فى اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة فى ازدياد، فوقف متعجبا، وكانت تلك الشجرة فى لحف الجبل، غربى منه عن يمينه، وكان موسى فى واد اسمه (طوى) فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه فناداه ربه بالوادى المقدس طوى، فأمره أولا بخلع نعليه تعظيما وتكريما وتوقيرا لتلك البقعة المباركة، ولاسيما فى الليلة المباركة، وقال الله تعالى:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه: ١٧ - ٢٢].

وهذان البرهانان اللذان أيده الله بهما، وهما العصا واليد، وذلك مقام أظهر فيه الخالق العظيم، الذى بهر به العقول والأبصار، حين ألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، أى عظيم الشكل، حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رعب شديد وخوف عظيم، بحيث حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة فى اليوم الواحد، وكان قبل ذلك لا يتبرز فى كل أربعين يوما إلا مرة واحدة.

ولما أدخل موسى يده فى جيبه واستخرجها أخرجها وهى كفلقة القمر، تتلألأ نورا يبهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى.

فلما عاد موسى من بلاد مدين، دخل على أمه وأخيه هارون وهما يتعشيان من طعام فيه (الطفشيل) وهو اللفت، فأكل معهما، ثم قال موسى: يا هارون إن الله أمرنى وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادة الله، فقم معى، فلما قاما يقصدان باب فرعون، فإذا هو مغلق، فقال موسى للبوابين والحجبة: أعلموه أن رسول الله بالباب فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به.

فلما دخل موسى وهارون على فرعون، قال فرعون: كما جاء فى سورة طه:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ (٥٤) ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) ﴾ [طه: ٤٩ - ٥٥].

يخبر الله تعالى: أن فرعون أنكر نعم الله عليه، ومن شقاوة فرعون وكثرة جهله وقلة عقله، فى تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى:

إن هذا الذى جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت ومكان معلوم.

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس، ولهذا قال: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ [طه: ٥٩].

وكان يوم عيد لهم من أعيادهم، مجتمع لهم: ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٩].

أى فى أول النهار، فى وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلا، بل طلب أن يكون نهارا جهرة، لأنه على بصيرة من ربه ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

يوم الزينة

يقول الله تعالى فى سورة طه:

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (٦٤) ﴾ [طه: ٦٠ - ٦٤].

يخبر الله تعالى أن فرعون ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء، فى فنهم غاية، فجمعوا قيل: ثمانين ألفا، وقيل: سبعين ألفا، و قيل بضعة وثلاثين ألفا.

وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفا، وقال كعب الأحبار: كانوا اثنى عشر ألفا.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته، وأهل بلده عن بكرة أبيهم، وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم، وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل الذى فيه معارضة لآيات الله.

ولما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون تجاههم، قالوا: إما أن تلقى قبلنا وإما أن نكون قبلك، قال: بل ألقوا، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى، فأودعوها الزئبق وألقوها فخيل للناس أنها حيات تسعى، فخاف موسى، وقال الله لـه: لا تخف، ألق ما فى يمينك فألقى، فإذا هى تلقف ما يأفكون: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٢]، قال فرعون: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١]، فرد السحرة على فرعون وقالوا: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

قال عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) وعبيد بن عمير: (كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخره شهداء بررة).

عذاب الله لفرعون وقومه

قال محمد بن إسحاق:

(فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلولا، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادى فى الشر، فتابع الله عليه بالآيات فأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، وكان الطوفان - وهو الماء - ففاض على وجه الأرض ثم ركضه لا يقدرون على أن يحرثوا، ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا).

فلما بلغهم ذلك قالوا:

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

فدعا موسى ربه فكشفه عنهم، فلما لم يفوا له بشىء مما قالوا، أرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر فيما بلغنى، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشىء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، وتوالت الدعوات من موسى، فلم يفوا فأرسل الله عليهم الضفادع، ثم الدم، فصارت مياه آل فرعون دما، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دما عبيطا.

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) ومجاهد وعكرمة والشعبى وقتادة: الآيات السبع هى: العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

هلاك فرعون

يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس: ٨٨ - ٨٩].

هذه دعوة عظيمة، دعا بها كليم الله موسى، على عدو الله فرعون، غضبا لله عليه، لتكبره عن اتباع الحق، وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده، واستمراره على الباطل، ومكابرته الحق الواضح الجلى، الحسى والمعنوى، والبرهان القطعى، ربنا آتيته زينة الأموال من اللباس والمراكب الحسنة الهيئة والدور الأنيقة، والمآكل الشهية، والمناظر البهية، والجاه العريض فى الدنيا، ربنا اطمس على أموالهم.

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) ومجاهد: أى أهلكها.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم صارت حجارة.

وقال محمد بن كعب: جعل سكرهم حجارة.

قال المفسرون: استأذن موسى من فرعون أن يخرج ببنى إسرائيل إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له، وإنما كان فى نفس الأرض مكيدة بفرعون وجنوده، ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم.

وذكر أهل الكتاب: أن بنى إسرائيل طلبوا من القبط أن يعيروهم حليا منهم فأعاروهم فخرجوا بليل فساروا طالبين بلاد الشام، فلما علم فرعون بذهابهم حنق عليهم وشرع فى جمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم.

فلما ركب فرعون فى جنوده طالبا بنى إسرائيل، حتى قيل: كان فى خيوله مائة ألف فحل أدهم، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف، والله أعلم.

وقيل: إن بنى إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية.

والمقصود: أن فرعون لحقهم بالجنود، فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان وعاين كل من الفريقين صاحبه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة، فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، وذلك لأنهم اضطروا فى طريقهم إلى البحر، فليس لهم طريق إلا سلوكه وخوضه وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، والجبال عن يسارهم وعن يمينهم وهى عالية شاهقة، وفرعون قد لحقهم وواجههم، وعاينوه فى جنوده وجيوشه وعددهم وعدتهم، وهم خائفون.

فشكوا إلى نبى الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه، فقال لهم موسى الصادق المصدوق ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦٢] وكان فى الساقة، فتقدم إلى المقدمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه وهو يقول: ها هنا أمرت، ومعه أخوه هارون، ويوشع ابن نون وهو يومئذ من سادات بنى إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار.

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال، واقترب فرعون بجنوده إليهم، عندئذ أوحى الله تعالى إلى موسى الكليم: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] فلما ضربه، قال: انفلق بإذن الله ويقال: إنه انفلق اثنى عشر طريقا، لكل سبط طريق يسيرون فيه.

وأمر الله ريح الدبور فلفحت طين البحر فأذهبته، حتى صار يابسا لا يعلق فى سنابك الخيول والدواب، فانحدروا مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا قدرة الله فهدأت واطمأنت قلوبهم.

وذكر المفسرون أن جبريل عليه السلام ظهر فى صورة فارس راكب على فرس لم تلقح، فمر بين يدى فحل فرعون، فحمحم إليها وأقبل عليها، وأسرع جبريل فاقتحم البحر واستبق الجوار، فبادر مسرعا،

فلما رأته الجنود قد سلك البحر، اقتحموا وراءه مسرعين فأصبحوا فى البحر جميعهم بعددهم وعدتهم، حتى أولهم هم بالخروج.

عندئذ أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فارتطم عليه كما كان وغرقوا جميعا ولم ينج منهم أحدا.

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) قال رسول الله ﷺ : **«قال لى جبريل: لو رأيتنى وأنا آخذ من البحر فأدسه فى فم فرعون مخافة أن تناله الرحمة»**.

لأنه قال عندما غرق جميع جنده، قال: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل،

وكان هلاك فرعون وجنوده فى يوم عاشوراء، اليوم العاشر من محرم.

قارون عبيد المال

يقول الله تعالى فى سورة القصص:

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٧٦ - ٨١].

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: إن قارون ابن عم موسى، وقال مالك بن دينار وابن جريج وزاد فقال: هو قارون بن يصهب بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث.

وقد ذكر الله كثرة كنوزه، حتى أن مفاتحه كان يثقل حملها على الجماعة من الناس، وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: لا تفرح، ولتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله فى الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال.

فما كان جوابه لقومه إلا أن قال: إنما أوتيته على علم عندى، ولا أحتاج لنصحكم، ونسى هذا الجاحد أن الله قد أهلك من الأمم الماضية من هو أشد منه وأكثر أموالا منه.

فخرج على قومه فى أبهى صورة من ملابس ومراكب وخدم وحشم، حتى أن الذين يريدون الحياة الدنيا قالوا: يا ليت لنا من هذه العظمة مثل قارون، وقال الذين يريدون ثواب الآخرة، ثواب الله أعظم وأبقى.

وقال بعض السلف: (إن الله يحب البصر النافذ عن ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات).

ولقد ورد فى صحيح البخارى، عن جرير بن زيد، عن سالم، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال: **«بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة»**.

وعن السدى وابن عباس (رضى الله عنهما) قال: (إن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تقول لموسى عليه السلام وهو فى ملأ من الناس: إنك فعلت بى كذا وكذا، فيقال أنها قالت له ذلك، فأرعد من العرق وصلى ركعتين ثم أقبل عليها، فاستحلفها من ذلك على ذلك، وما حملك عليه، فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك، واستغفرت الله وتابت إليه، فعند ذلك خر موسى لله ساجدا، ودعا على قارون، فأوحى الله إليه أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك، والله أعلم).

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٨١] لظلمه وتعاليه وتكبره وعدم الاعتراف بنعم الله ولم يكن لـه ناصر لا من نفسه ولا من غيره، وندم الذين تمنوا مثل ما عنده، والله خير وأبقى.

واحذر من المال

لقد روى البيهقى والطبرانى عن ابن مسعود (رضـى الله عنـه) قـال: قـال رسول الله ﷺ : **«إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم»**.

وروى الترمذى والحاكم، عن كعب بن رياض (رضـى الله عنـه)، قـال: قـال رسول الله ﷺ : **«إن لكل أمة فتنة ، وإن فتنة أمتى المال»**.

قال عمر بن الخطاب (رضـى الله عنـه): (احذروا المـال فإنـه لـه ضـراوة كضـراوة الخمر).

* * *

الفصل الثالث

ابتلاءات أمة الإسلام

الخوف

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وفى سورة الأنعام:

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وفى سورة يونس:

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس: ٦٢].

وفى سورة الزخرف:

﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ﴾ [الزخرف: ٦٨].

وفى سورة الأحقاف:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) ﴾ [الأحقاف: ١٣].

الخوف: هو ابتلاء من الله تعالى، وهو سوط الله الذى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى، والخوف له قصور وإفراط وله اعتدال.

فالخوف القاصر: هو الذى يجرى مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من آيات القرآن الكريم، فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل.

فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر، قليل الجدوى ضعيف النفع، كالعصا الضعيفة التى تضرب بها الدابة القوية، فلا تؤلمها العصا ولا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خوف الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء.

ولذلك قال الفضيل بن عياض (رحمه الله): إذا قيل لك: هل تخاف الله فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، كذبت، وأشار به أن الخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى، ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر فى الجوارح، فهو حديث نفس وحركة خاطر، لا يستحق أن يسمى خوفا.

أما الخوف المفرط: فإنه هو الذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال، حتى يخرج الشخص إلى اليأس والقنوط، وهذا خوف مذموم، قد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل، فالمراد من الخوف هو ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل.

وأما خوف العجز: فهو متعرض لمحذور، لا يقدر على دفعه، فإذن هو خوف محمود بالإضافة إلى نقص الآدمى، وإنما المحمود فى نفسه وذاته: هو العلم والقدرة، مثل الصبر على ألم الدواء (وهو محمود) لأنه أهون من ألم المرض والموت.

فكل ما يراد الأمر، فالمحمود منه، ما يفضى إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه فهو مذموم.

وفائدة الخوف: الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر، وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل.

أقسام الخوف

الخوف قسمان:

خوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، مكروه يكون مكروها فى ذاته كالنار، وخوف من مكروه يؤدى إلى مكروه، كما تكره المعاصى التى تؤدى إلى العذاب فى الآخرة، وأيضا تكره الفواكه المضرة، لأنها تؤدى إلى الموت.

فالقسم الأول من الخائفين الذين يتمثل فى أنفسهم الخوف من المكروه، مثل سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هيبة الموقف بين يدى الله تعالى، والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدته، وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أو الخوف من الحرمان من الجنة دار النعيم، والملك المقيم، وعن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة فى نفسها فهى مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها.

وأعلاها رتبة: هو خوف الفراق والحجاب من الله تعالى، وهو خوف العارفين العاملين الصالحين والزاهدين، وكفة العالمين الذين يشعرون بلذة الوصال، والقرب من الله.

أما القسم الثانى من الخائفين: وهو الخوف من مكروه يؤدى إلى مكروه آخر، كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة، أو خوف نقص التوبة ونكث العهد، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة، أو خوف الميل عن الاستقامة، أو خوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم، أو خوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء، أو خوف ما لا يدرى أنه يحدث فى بقية عمره، أو خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا والافتضاح قبل الموت، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا، أو خوف اطلاع

الله على سريرته فى حال غفلته عنه، أو خوف الختم لـه عند الموت بخاتمة السوء، أو خوف السابقة التى سبقت لـه فى الأزل.

فهذه كلها مخاوف، ولكل واحد خصوص فائدة، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف، فمن يخاف استيلاء العادة عليه، فيواظب على البعد عن العادة، والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته، يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس.

فضيلة الخوف:

الخوف لـه فوائد عدة بينها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة وفى الآثار والأخبار، وهى كالآتى بيانه:

١ – فى القرآن الكريم:

فى سورة الأعراف: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

فـى سـورة فـاطر: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٨].

فـى سـورة البينـة: ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة: ٨].

وفى سورة الأعلى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعلى: ٩ - ١٠].

وفى سورة الرحمن: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وفـى سـورة السـجدة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة: ١٦].

٢ – الخوف فى الأحاديث النبوية:

١ - أخرج ابن حبان فى صحيحه، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«قال الله عز وجل: وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين ،**

ولا أجمع له أمنين ، فإن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة».

٢ - روى الترمذى وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قالت عائشة (رضى الله عنها) قلت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠]، هو الرجل يسرق ويزنى، قال: **«لا ، بل الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ألاَّ يقبل منه».**

٣ - أخرج الترمذى وقال: حسن صحيح، والنسائى، وابن ماجه عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى ، حتى يعود اللبن فى الضرع».**

٤ - أخرج الترمذى وقال: حسن غريب، عن أبى أمامة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهريقت فى سبيل الله سبحانه وتعالى».**

٥ - روى البخارى ومسلم، عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه، فيقوم ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله.

٦ - روى أحمد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين، عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ سأل جبريل: ما لى لا أرى ميكائيل يضحك، فقال جبريل: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار.

٣ – الخوف فى الآثار والأخبار:

قيل للحسن (رضى الله عنه): يا أبا سعيد، كيف نصنع، نجالس أقواما يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف.

وقال أبو الحسين الضرير (رحمه الله): علامة السعادة خوف الشقاوة، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده، فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين.

وقال أبو بكر الصديق (رضى الله عنه): من استطاع أن يبكى فليبك، ومن لم يستطع فليتباك.

وكان محمد بن المنكدر (رحمه الله) إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه، ويقول: بلغنى أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع.

وقال كعب الأحبار (رحمه الله): والذى نفسى بيده، لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى، أحب إلىّ من أن أتصدق بجبل من ذهب.

وروى عن حنظلة (رضى الله عنه) قال: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة، رقت لها القلوب، وذرفت منها العيون، وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلى، فدنت منى المرأة، وجرى بيننا من حديث الدنيا، فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ وأخذنا فى الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه، فقلت فى نفسى: قد نافقت حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرقة، فخرجت وجعلت أنادى: نافق حنظلة.

فاستقبلنى أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) فقال: كلا لم ينافق حنظلة، فدخلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول: نافق حنظلة، فقال رسول الله ﷺ : **«كلا لم ينافق حنظلة»**، فقلت يا رسول الله، كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلى، فأخذنا فى حديث الدنيا، ونسيت ما كان عندك عليه، فقال رسول الله ﷺ : **«يا حنظلة لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة ، لصافحتكم الملائكة فى الطريق ، وعلى فرشكم ، ولكن يا حنظلة: ساعة وساعة»**.

أحوال الملائكة والأنبياء الصالحين من الخوف

جبريل يتضاءل:

أخرج البيهقى فى الشعب، والطبرانى فى الكبير، وأبو الشيخ عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: (بينما رسول الله ﷺ ومعه جبريل يناجيه، إذ انشق أفق السماء، فأقبل جبريل يتضاءل ويدخل بعضه فى بعض ويدنو من الأرض، فإذا ملك، قد مثل بين يدى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إن ربك يقرئك السلام ويخيرك بين أن تكون نبيا ملكا، أو نبيا عبدا، قال رسول الله ﷺ: فأشار جبريل إلىّ بيده، أن تواضع، فعرفت أنه لى ناصح فقلت: عبدا نبيا، فعرج ذلك الملك إلى السماء، فقلت: يا جبريل، قد كنت أردت أن أسألك عن هذا، فرأيت من حالتك ما شغلنى عن المسألة، فمن هذا يا جبريل، قال: هذا إسرافيل، خلقه الله يوم خلقه بين يديه، صافا قدميه، لا يرفع طرفه بينه وبين الرب سبعون نورا، ما منها نور يدنو منه إلا احترق، بين يديه اللوح المحفوظ، فإذا أذن الله بشىء فى السماء أو فى الأرض ارتفع ذلك اللوح، فضرب جبهته فينظر فيه، فإن كان من عملى أمرنى به، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به.

قلت: يا جبريل، على أى شىء أنت، قال: على الرياح والجنود، قلت: وعلى أى شىء ميكائيل، قال: على النبات والقطر، قلت: وعلى أى شىء ملك الموت، قال: على قبض الأنفس، وما ظننت أنه هبط إلا بقيام الساعة، وما ذاك الذى رأيت منى إلا خوفا من قيام الساعة).

انظر مجمع الزوائد للهيثمى، وقال الهيثمى: فيه محمد بن أبى ليلى، وقد وثقه جماعة، ولكنه سيئ الحفظ وبقية رجاله ثقات.

بكاء داود عليه السلام

قال مجاهد (رحمه الله): (بكى داود عليه السلام أربعين يوما، ساجدا لا يرفع رأسه، حتى نبت المرعى من دموعه، وحتى غطى رأسه، فنودى: يا داود، أجائع أنت فتطعم،

أم ظمآن فتسقى، أم عار فتكسى، فنحب نحبة، هاج العود فاحترق من حر جوفه ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة، فقال: يا رب اجعل خطيئتى فى كفى، فصارت خطيئته فى كفه مكتوبة، فكان لا يبسط كفه لطعام أو لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته، قال: وكان يؤتى بالقدح ثلثاه، فإذا تناوله أبصر خطيئته، فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه).

وقال الفضيل (رحمه الله): (بلغنى أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم، فوثب صارخا واضعا يده على رأسه، حتى لحق بالجبال، فاجتمعت إليه السباع فقال: ارجعوا لا أريدكم، إنما أريد كل بكاء على خطيئته، فلا يستقبلنى إلا البكاء، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء).

وقال عيسى عليه السلام:

(معاشر الحواريين: خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا، بحق أقول لكم: إن أكل الشعير، والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل).

وروى أن أبا بكر الصديق (رضى الله عنه) قال لطائر: ليتنى مثلك يا طائر ولم أخلق بشرا.

وقال أبو ذر الغفارى (رضى الله عنه): وددت لو أنى شجرة تعضد، وكذلك قال طلحة.

وقال عثمان بن عفان (رضى الله عنه): وددت أنى إذا مت لم أبعث.

وقالت عائشة (رضى الله عنها): وددت أنى كنت نسيا منسيا.

وقال عمران بن حصين (رضى الله عنه): وددت أن أكون رمادا تنسفنى الرياح فى يوم عاصف.

خوف عمر بن الخطاب رضى الله عنه

روى أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه، فكان يعاد أياما، وأخذ يوما نبتة من الأرض فقال: يا ليتنى كنت هذه النبتة، يا ليتنى لم أك شيئا مذكورا، يا ليتنى كنت نسيا منسيا، يا ليتنى لم تلدنى أمى) وكان فى وجه عمر (رضى الله عنه) خطان أسودان من الدموع.

وقال رضى الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

ولما قرأ عمر من سورة التكوير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: ١ - ١٠].

فلما قرأ هذه الآيات خر مغشيا عليه.

خوف على بن أبى طالب كرم الله وجهه

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقد سلّم من صلاة الفجر، وقد علاه كآبة وهو يقلب يده: لقد رأيت أصحاب محمد فلم أر اليوم شيئا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثا صفرا غبرا، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجدا وقياما، يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله، فمادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع، حتى تبل ثيابهم، والله فكأنى بالقوم باتوا غافلين، ثم قام، فما رئى بعد ذلك ضاحكا، حتى ضربه ابن ملجم).

وقال مالك بن دينار:

(بينما أطوف بالبيت، إذا أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول: رب، كم شهوة ذهبت لذاتها، وبقيت تبعاتها.. يا رب: أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار، وتبكى، فمازال ذلك مقامها، حتى طلع الفجر، قال مالك: فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسى صارخا أقول: ثكلت مالكا أمه).

وسئل ابن عباس (رضى الله عنهما) عن الخائفين، فقال: قلوبهم بالخوف فرحة، وأعينهم باكية، يقولون: كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدى الله ربنا وموقفنا.

الفقر والجوع

وردت فى كتاب الله كلمات الفقر والجوع فى مواضع قليلة نذكر منها الآتى:

فى سورة النحل: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل: ١١٢].

وفى سورة قريش: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش: ٣ - ٤].

وفى سورة البقرة: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وفى سورة البقرة: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وفى سورة الحج: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج: ٢٨].

وفى سورة آل عمران: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

فالفقر بلاء من الله تعالى لعباده، وهو عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه الإنسان، وفى الحقيقة المطلقة، نحن جميعا فقراء والله هو الغنى؛ لقوله تعالى فى سورة محمد: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨].

والفقر لـه خمسة أحوال، نميزها ونخصص كل حال باسم، لنتوصل بالتمييز إلى ذكر كل حالة:

الحالة رقم ١ - وهى الحالة العليا، أن يكون الإنسان لو أتاه المال لكرهه، وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا لـه، محترزا من شره، واسم صاحبه الزاهد.

الحالة رقم ٢ - أن يكون الإنسان لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها، ويزهد فيه لو أتاه، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا.

الحالة رقم ٣ - أن يكون وجود المال، أحب إليه من عدمه، لرغبة لـه فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه صفوًا وعفوًا أخذه وإن افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا.

الحالة رقم ٤ - أن يكون ترك طلب المال لعجز الإنسان، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه، أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص.

الحالة رقم ٥ - أن يكون ما فقده الإنسان من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز، والعارى الفاقد للثوب، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا.

فضيلة الفقر

فى القرآن الكريم:

فى سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

وفى سورة النور: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: ٣٢].

وفى سورة البقرة: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ

إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفى سورة النساء: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء: ١٣٥].

وفـى سـورة القصـص: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص: ٢٤].

فضل الفقر فى الأحاديث النبوية:

١ - أخرج الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام»**.

٢ - أخرج الترمذى أيضا عن رسول الله ﷺ قال: **«من أصبح منكم معافى فى جسده. آمنا فى سربه. عنده قوت يومه. فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»**.

٣ - عن خباب وسلمان (رضى الله عنهما) قال: (لما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبى ﷺ: اجعل لنا يوما، ولهم يوما يجيئون إليك ولا نجىء، ونجىء إليك ولا يجيئون، يعنون بذلك الفقراء مثل: بلالٍ، وسلمان، وصهيبٍ، وأبى ذر، وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر، وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء (رضى الله عنهم جميعا)، أجابهم النبى ﷺ إلى ذلك، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برائحتهم، وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر، فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم، فاشتد ذلك على الأغنياء منهم: الأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصن الفزارى، وعباس بن مرداس السلمى، وغيرهم، فأجابهم رسول الله ﷺ ألاَّ يجمعهم وإياهم مجلس واحد، فنزل عليه قوله تعالى:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟

﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٨ - ٢٩].

٤ - أخرج الترمذى وقال: غريب، قلت: ورجاله رجال الصحيح عن عائشة (رضى الله عنها).

استأذن ابن أم مكتوم على النبى ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش، فشق ذلك على النبى ﷺ فأنزل الله تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ [عبس: ١ - ٦]، يعنى هذا الشريف.

٥ - وروى مسلم قال: قال رسول الله ﷺ : **«طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به»**.

٦ - أخرج النسائى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) متصلا، وعن زيد بن أسلم (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم»**، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال: **«أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها ، وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه ، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف»**.

فضيلة الفقر فى الأخبار

١ – قال عمران بن حصين:

(كانت لى من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال: **«يا عمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها، فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله»**، قلت: نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله، فقام وقمت معه، حتى وقف بباب فاطمة، فقرع الباب، وقال: **«السلام عليكم أأدخل؟»**، فقالت: ادخل يا رسول الله، قال: **«أنا ومن معى»**، قالت: ومن معك يا رسول الله، قال: **«عمران»** فقالت فاطمة: والذى بعثك بالحق نبيا ما علىّ إلا عباءة، قال: **«اصنعى بها هكذا وهكذا»**، وأشار بيده، فقالت: هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى، فألقى إليها ملاءة كانت عليه

خلقة، فقال: «**شدى على رأسك**» ثم أذنت له فدخل فقال: السلاك عليكم يا بنتاه، كيف أصبحت، قالت: أصبحت والله وجعة، وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله، فقد أضرَّبِيَّ الجوع، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «**لا تجزعى يا ابنتاه ، فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث ، وإنى لأكرم على الله منك ولو سألت ربى لأطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا**»، ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها: «**أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة**»، قالت: فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، قال: «**آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكن فى بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب**»، ثم قال لها: «**اقنعى بابن عمك ، لقد زوجتك سيدا فى الدنيا وسيدا فى الآخرة**».

٢ – وقال أبو هريرة (رضى الله عنه):

ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له: أيها تريد.

٣ – وقال بعض الحكماء:

(مسكين ابن آدم، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا، ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعا، ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعا).

٤ – إبراهيم بن أدهم:

كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل فى فناء القصر وفى يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئنى به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل، أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال: نعم، قال: فشبعت ؟ قال: نعم،

قال: ثم نمت طيبا ؟ قال: نعم، فقال إبراهيم فى نفسه: فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر؟

٥ – وقال أبو الدرداء (رضى الله عنه):

(ما من أحد إلا وفى عقله نقص، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا، والليل والنهار دائبان فى هدم عمره، ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص).

٦ – يزيد بن أسلم (رحمه الله):

روى يزيد بن أسلم عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: (بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنى رسول الفقراء إليك، فقال: **«مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم الله»**، قال: قالوا: يا رسول الله، إن الأغنياء ذهبوا بالخير كله، يحجون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم.

فقال النبى ﷺ : **«بلّغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ، ليست للأغنياء ، أما خصلة واحدة فإن فى الجنة غرفا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا نبى فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير ، والثانية: يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة: إذا قال الغنى: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ، ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم ، وذلك أعمال البر كلها»**.

فرجع إليهم وأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ فقالوا: رضينا رضينا.

آداب الفقير:

الفقر بلاء، والبلاء من الله، ويجب على الفقير أن يتحلى بآداب فى باطنه وظاهره وأعماله وأفعاله.

فى باطنه:

يجب على الفقير ألاَّ يكره البلاء الذى ابتلاه الله به، وأن يتقبل أمر الله راضيا مرضيا وإن كان كارها للفقر، كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها، ولا يكون كارها فعل الحجام ولا كارها للحجام، وذلك معنى قول الرسول ﷺ : **«يا معشر الفقراء ، أعطوا الله الرضا من قلوبكم ، تظفروا بثواب فقركم ، وإلا فلا».**

وقال على بن أبى طالب (كرم الله وجهه): إن لله تعالى عقوبات بالفقر، ومثوبات بالفقر فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه، ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره، ومن علامات الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه بترك طاعته، ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء.

وفى ظاهره:

يجب على الفقير أن يظهر التعفف والتجمل، ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره، ويستر أنه يستره، فقد قال رسول الله ﷺ : **«إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال».**

وقال الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فى أعماله:

ويجب على الفقير ألاَّ يتواضع لغنى لأجل غناه، بل يتكبر عليه، وقال على بن أبى طالب: (ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله تعالى، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل)، ويجب على الفقير ألاَّ يخالط الأغنياء.

وقال الثورى رحمه الله: (إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه رياء، وإذا خالط الفقير السلطان فاعلم أنه لص).

وفى أفعاله:

يجب على الفقير ألاَّ يكسل عن عبادة ربه، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فإن ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى، وأن يقبل الهدية فإن قبولها سنة نبوية.

* * *

الفصل الرابع
المـرض والأوجــاع

المرض: هو ابتلاء من الله لعباده، جعله الله فى الدنيا لمحو الذنوب، وتخفيف المعاصى التى ارتكبها الإنسان فى حياته، وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر المرض ومشتقاته فى أربعة وعشرين موضعا، نذكر منها على سبيل المثال ما يلى:

فى سورة البقرة: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٠].

وفى سورة التوبة: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وفى سورة النور: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١].

وفى سورة البقرة: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وفى سورة الشعراء: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وفى سورة المزمل: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

والمرض نوعان:

١ - مرض القلوب.　　　　٢ - مرض الأبدان.

وهما مذكوران فى القرآن الكريم.

ومرض القلوب: نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة.

يقول الله تعالى فى مرض الشبهة: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر: ٣١].

أى شكوا فى أمثلة الله عليهم اللعنة.

ويقـــول تعـــالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور: ٥٠].

أما مرض الشهوة والزنى قولـه تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

أما مرض الأبدان: ذكره الله تعالى فى القرآن الكريم فى سورة النور: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١].

أى مرض البدن فى الحج، والصوم، والوضوء، وجمع الله هذه المواضع الثلاثة فى قولـــــه: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فأباح الفطر للمريض وللمسافر، طلبا لحفظ صحته وقوته لئلا يذهبها الصوم فى السفر لاجتماع شدة الحركة، وعدم الغذاء الذى يخلف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف.

وفى الحج يقول الله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه من قمل أو حكة أو غيرها، أن يحلق رأسه فى الإحرام، استفراغا لمادة الأبخرة الرديئة التى أوجبت لـه الأذى فى رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه تفتحت المسام فخرجت تلك الأبخرة منها، فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذى انحباسه، مثل انحباس البول والغائط والريح والقىء والعطاس، والنوم والجوع والعطش.

فضائل المرض

١- روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: **«من يرد الله به خيرا يصب منه»**.

٢- وروى البخارى ومسلم أيضا عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: **«ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»**.

٣- وروى البخارى عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله، إنك توعك وعكا شديدا، قال: **«أجل ، إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم»**، قلت: ذلك أن لك أجرين، قال: **«أجل ذلك كذلك ، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»**.

٤- وروى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع ، من حيث أتتها الريح كفأتها ، فإذا اعتدلت تكفا بالبلاء ، والفاجر كالأرزة ، صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء»**.

٥- وروى مسلم عن صهيب بن سنان (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: **«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»**.

٦- وروى البخارى عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«إن الله تعالى قال: إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة»**، يريد عينيه.

٧- روى البخارى ومسلم عن عطاء بن رباح، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فقلت: بلى، فقال: هذه المرأة السوداء، أتت النبى ﷺ فقالت: إنى أصرع، وإنى أتكشف،

فـاع الله تعـالى لـى، فقـال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك**»، فقالت: أصبر، ثم قالت: إنـى أتكشف فـادع الله تعـالى لـى ألاَّ أتكشف فدعا لها.

٨- روى البخـارى عـن أبـى موسـى الأشـعرى (رضـى الله عنـه) أن النبـى ﷺ قـال: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا**».

٩- أخرج ابن أبى الدنيا من حديث أبى سعيد الخدرى (رضـى الله عنـه) بإسـناد فيـه لين، أن رجلا قال: يا رسول الله، ذهب مـالى وسقم جسمى فقـال ﷺ : «**لا خير فى عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبّره**».

١٠- روى أبو داود عن محمد بن خالد السلمى، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الرجل لتكون لـه الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك**».

١١- وروى أنه لمـا نـزل قـول الله تعـالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، قـال أبو بكر الصديق (رضى الله عنه): كيف الفرح بعد هذه الآيـة ؟ فقـال رسـول الله ﷺ : «**غفر الله لك يا أبا بكر ، ألست تمرض ، أليس يصيبك الأذى ، ألست تحزن ، فهذا مما تجزون به**».

١٢- وقال حـاتم الأصـم (رحمـه الله): إن الله عز وجل يحتج يـوم القيامـة علـى الخلق بأربعة أنفس علـى أربعـة أجنـاس، يحـتج علـى الأغنيـاء بسليمان، وعلـى الفقـراء بالمسيح، وعلـى العبيد بيوسـف، وعلـى المرضـى بـأيوب، صـلوات الله وسـلامه عليهم جميعا.

أسباب الأمراض والأوجاع

لقد خلق الله الأمراض والأوجاع لحكم جليلة وعظيمة يوضحها الرسول ﷺ فى الأحاديث النبوية الشريفة، نذكر منها ما يلى:

١ – ردا على شكوى ملك الموت:

أخرج المروزى فى الجنائز، وابن أبى الدنيا، وأبو الشيخ فى العظمة، عن أبى الشعثاء جابر بن زيد (رضى الله عنه): أن ملك الموت كان يقبض الأرواح بغير وجع، فسبه الناس ولعنوه، فشكى إلى ربه، فوضع الله الأوجاع، ونسى ملك الموت، يقال: مات فلان بكذا وكذا.

٢ – إلغاء نصيب المؤمن من النار:

عن أبى هريرة (ر ضى الله عنه) عن رسول الله ﷺ أنه عاد مريضا ومعه أبو هريرة من وعك كان به، فقال له رسول الله ﷺ : **«أبشر إن الله يقول: هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن فى الدنيا؛ ليكون حظه من النار فى الآخرة»**، صحيح الجامع للألبانى رقم (٥٥٧).

٣ – إلغاء خطايا المسلم:

عن أم العلاء، قالت: عادنى رسول الله ﷺ وأنا مريضة، فقال: **«أبشرى يا أم العلاء ، فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه ، كما تذهب النار خبث الذهب والفضة»** صحيح الجامع للألبانى (٧١٤).

٤ – شهادة أمتى ورحمة الله لهم:

عن أبى عسيب مولى رسول الله ﷺ مرفوعا، قال: **«أتانى جبريل بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة ، وأرسلت الطاعون إلى الشام ، فالطاعون شهادة لأمتى ورحمة لهم ورجس على الكافرين»**.

٥ – تخليص خطايا المؤمن فى الدنيا ، وتعويض ما فعله الفاسق من حسنات:

يقول الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى: **«وعزتى وجلالى لا أخرج عبدا من الدنيا ، وأريد أن أرحمه ، حتى أنقيه من كل خطيئة عملها بضيق فى رزقه ، أو بسقم فى جسده ، فإن بقى منها شيء ، شددت عليه الموت حتى يلقانى ما عليه خطيئة فأجازيه بحسناته ، وعزتى وجلالى لا أخرج عبدا من الدنيا ، وأريد أن أعذبه ، حتى أوفيه على كل حسنة عملها بسعة فى رزقه ، أو صحة فى جسده ، فإن بقى منها شيء ، هونت عليه الموت حتى يلقانى ما له عندى من حسنة ، فأعذبه بسيئاته».**

٦ – حث الصالحين على الصبر فى الأوجاع:

عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: إن رسول الله ﷺ طرقه وجع، **فجعل يشتكى** ويتقلب على فراشه، فقالت عائشة: لو صنع هذا بعضنا لوجدت عليه، فقال ﷺ : **«إن الصالحين يشدد عليهم ، وإنه لا يصيب مؤمنا نكبة من شوكة فما فوق ذلك إلا حطت بها عنه خطيئة ، ورفع بها درجة»**، صحيح الجامع للألبانى (١٦١٠).

٧ – جعل الله قيود المريض لغفران ذنوبه:

عن أبى أمامة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن العبد إذا مرض ، أوحى الله إلى ملائكته: يا ملائكتى، أنا قيدت عبدى بقيد من قيودى فإن أقبضه أغفر له ، وإن أعافه فحينئذ يقعد ولا ذنب له»**، صحيح الجامع للألبانى (١٦١١).

٨ – جعلت عدم شكوى عبدى ، أبدل لحمه ودمه:

عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدى المؤمن ، ولم يشكنى إلى عواده ، أطلقته من أسارى ، ثم أبدلته لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، ثم يستأنف العمل»** صحيح الجامع للألبانى (٢٧٢).

عيادة المريض

من آداب الإسلام أن يعود المسلم أخاه المريض، ويتفقد حاله تطبيباً لنفسه ووفاء بحقه، ومشاركة فى زوال همه وغمه وحزنه، ولقد قال ابن عباس (رضى الله عنهما): عيادة المريض أول يوم سُنَّة، وبعد ذلك تطوعا.

وروى البخارى ومسلم، قال ﷺ : **«حق المسلم على المسلم ست»** قيل: ما هن يا رسول الله، قال: **«إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه»**.

وروى البخارى عن أبى موسى الأشعرى، أن النبى ﷺ قال: **«إذا مرض العبد أو سافر ، كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا»**.

وروى البخارى عن أبى موسى الأشعرى، أن النبى ﷺ قال: **«أطعموا الجائع ، وعودوا المريض ، وفكوا العانى»** أى: فكوا الأسير.

وروى ابن ماجه عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«من عاد مريضا ، نادى مناد من السماء: طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلا»**.

وروى مسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا بن آدم مرضت فلم تعدنى ، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال: أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا بن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ، قال: يا رب ، كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان ، فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا بن آدم استسقيتك فلم تسقنى ، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال: استسقاك عبدى فلان ، فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى؟»**.

وعن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«ما من مسلم يعود مسلما غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسى ، وإن عاده عشية صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح ، وكان له خريف فى الجنة»**، الخريف: هو الثمر المخروف أى المجتبى، رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

وروى ابن ماجه وقال فى الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات، إلا أنه منقطع عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«إذا دخلت على مريض ، فمره: فليدع لك ، فإن دعاءه كدعاء الملائكة»** أى فى قرب الاستجابة.

وروى عن عائشة (رضى الله عنها) أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال (رضى الله عنهما) قالت: فدخلت عليهما، فقلت: يا أبت كيف تجدك، ويا بلال، كيف تجدك، قالت: وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبّح فى أهله ::: والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يقول:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ::: بواد وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة ::: وهل يبدون لى شامة وطفيل

قالت عائشة: فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: **«اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم وصححها وبارك لنا فى مدها وصاعها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة»**.

روى البخارى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: كان النبى ﷺ يعوذ الحسن والحسين : **«أعيذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة ، ويقول: إنا أباكما – يقصد إبراهيم عليه السلام – كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق»**.

التداوى

جاءت الشريعة الإسلامية موضحة أن البلاء من الله، وأن المرض بلاء من الله وأن المريض لا يقف مكتوف الأيدى عندما يمرض، بل أوحى الله إلى عبده ورسوله ﷺ أن يا محمد، مر أصحابك وأمتك أن يتوجهوا إلى الله تعالى ويطلبوا الشفاء منه، لأنه عز وجل خلق الداء وخلق له الدواء.

وها هى أحاديث رسول الله ﷺ توضح ما يلى:

١ - روى أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذى عن أسامة بن شريك، قال: أتيت النبى ﷺ وأصحابه كأن على رؤوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من ههنا وههنا، فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى، فقال: «**تداووا ، فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غير داء واحد ، الهرم**»، أى الموت.

٢ - وروى النسائى وابن ماجه والحاكم وصححه عن أنس (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء فتداووا**».

٣ - وروى مسلم عن جابر (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله**».

٤ - وروى مسلم وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر الحضرمى: أن طارق بن سويد سأل النبى ﷺ عن الخمر يصنعها للدواء، فقال: «**إنها ليست بدواء ولكنها داء**».

فأفاد الحديث حرمة التداوى بالخمر، وأخبر بأنها داء.

٥ - وروى البيهقى وصححه ابن حبان عن أم سلمة، وذكره البخارى عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «**إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم**».

٦ - وروى أبو داود، عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال: «**إن الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداووا ولا تتداووا بحرام**»، الحديث فى سنده إسماعيل بن عياش وهو ثقة فى الشاميين، ضعيف فى الحجازيين.

٧ - وروى مسلم وأحمد والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث - يعنى السم.

وقال بعضهم فى المنار:

(إن القطرات القليلة غير الظاهرة (من الخمر أو السم) والتى لا يكون شأنها الإسكار، إذا اختلطت بالدواء المركب لا تحرم، مثل القليل من الحرير فى الثوب) والله أعلم.

التداوى بالأدعية

١ - روى البخارى ومسلم عن عائشة (رضى الله عنها) أن النبى ﷺ كان يعوذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول : **«اللهم رب الناس أذهب البأس ، اشف وأنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقما»**.

٢ - وروى مسلم عن عثمان بن أبى العاص أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعا يجده فى جسده، فقال له رسول الله ﷺ : **«ضع يدك على الذى يألم من جسدك ، قل: باسم الله ، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته ، من شر ما أجد وأحاذر»**.

فقال: ففعلت ذلك مرارا، فأذهب الله ما كان بى، فلم أزل آمر به أهلى وغيرهم.

٣ - وروى الترمذى عن محمد بن سالم قال: قال لى ثابت البنانى: يا محمد إذا اشتكيت، فضع يدك حتى تشتكى ثم قل: بسم الله، أعوذ بعزة الله من شر ما أجد من وجعى هذا، ثم ارفع يدك، ثم أعد ذلك وترا، فعن أنس بن مالك (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ حدثه بذلك.

٤ - روى أبو داود والترمذى وقال: حسن، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخارى، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن النبى ﷺ قال: **«من عاد مريضا لم يحضرأجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك ، إلا عافاه الله من ذلك المرض»**.

٥ - وروى مسلم عن سعد بن أبى وقاص: أن رسول الله ﷺ عاده فى مرضه فقال: **«اللهم اشف سعدا ، اللهم اشف سعدا ، اللهم اشف سعدا»**.

التداوى بالرقى

يشرع العلاج بالرقى (جمع رقية) إذا كانت مشتملة على ذكر الله، وكانت باللفظ العربى المفهوم، لأن ما لا يفهم لا يؤمن أن يكون فيه شىء من الشرك.

فلقد روى مسلم وأبو داود، عن عوف بن مالك (رضى الله عنه) قال: كنا نرقى فى الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى فى ذلك، فقال: **«أعرضوا علىّ رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك»**.

وقال الربيع: سألت الشافعى عن الرقية، فقال: لا بأس أن ترقى بكتاب الله، وبما تعرف من ذكر الله، قلت: أيرقى أهل الكتاب المسلمين ؟ قال: نعم، إذا رقوا بما يعرف من كتاب الله، وبذكر الله.

الرقى بفاتحة الكتاب

روى البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) قال:

انطلق نفر من أصحاب النبى ﷺ فى سفرة سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحى، فسعوا له بكل شىء، فلا ينفعه شىء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعلهم أن يكون عند بعضهم شىء.

فأتوهم، فقالوا: ياأيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شىء، فقال بعضهم: نعم، والله إنى لأرقى، ولكن استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جعلا فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: الحمد لله رب العالمين، فكأنما أنشط من عقال، فانطلق يمشى وما به من قلبه، قال: فأوفُوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذى رقى: لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله ﷺ فنذكر له الذى كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على

رسول الله ﷺ فذكروا لـه ذلك، فقال: «**وما يدريك أنها رقية**»، ثم قال: «**قد أصبتم ، اقسموا واضربوا لى معكم سهما**».

النهى عن التمائم

التميمة: هى الأشياء المكونة من أوراق أو قطع من الثياب تعلق بأى موضع من الجسد بقصد تحبب قلوب الرجال إلى النساء أو العكس، أو حفظ الجسم من الحسد، ولقد نهى الرسول ﷺ عن التمائم فى أحاديث كثيرة منها:

١ - فلقد روى أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد وقال من حديث عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قال: «**من علق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علق ودعة فلا أودع الله له**».

٢ - وروى الحاكم وابن حبان وصححاه عن ابن مسعود (رضى الله عنه) أنه دخل على امرأته، وفى عنقها شىء معقود، فجذبه فقطعه، ثم قال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» قالوا: يا أبا عبد الله، هذه التمائم والرقى قد عرفناها، فما التولة: قال: «**شىء يصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن**».

٣ - روى أحمد عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة أراه، قال: من صفر (أى نحاس) فقال: «**ويحك ما هذه؟**»، قال: من الواهنة، قال: «**أما إنها لا تزيد إلا وهنا ، انبذها عنك ، فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبدا**». الواهنة: هى عرق يأخذ فى المنكب، وفى اليد كلها، وقيل: مرض يأخذ فى العضد، وقد علق الرجل حلقة من نحاس ظنا منه أنها تعصمه من الألم، فنهاه الرسول عنها، وعدها من التمائم.

٤ - وروى أبو داود، عن عيسى بن حمزة قال: دخلت على عبد الله بن حكيم وبه حمرة، فقلت: ألا تعلق تميمة، فقال: نعوذ بالله من ذلك، قال رسول الله ﷺ : «**من علق شيئا وُكل إليه**».

عذاب الدنيا عند الاحتضار

إن الموت حق على كل كائن حى، والله عز وجل هو المتفرد بالبقاء، إلا أن المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها، المحب لشهواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذكر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم فى سورة الجمعة:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة: ٨].

والناس فى هذه الحالة إما منهمك وإما تائب مبتدئ، وإما عارف منته.

أما المنهمك: فلا يذكر الموت، وإن ذكره، فيذكره للتأسف على دنياه، ويشتغل بمذمته، وهذه يزيده ذكر الموت من الله بعدا.

أما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت، لينبعث به من قلبه الخوف والخشية من الله تعالى، فيفى بتمام التوبة والرجوع إلى الله، وربما يكره الموت ويخاف فوت لقاء قصوره وتقصيره، من أن يختطفه الموت قبل تمام التوبة، فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله، إنما يخاف من أن يكون مقصرا أو متأخرا عن التوبة قبل الممات فلا يعد كارها للقاء الله، وعلامة ذلك أنه دائم الاستعداد بالتوبة.

أما العارف: فإنه يذكر الموت دائما، لأنه موعد لقائه بحبيبه، وهذا فى غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت، ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين.

ولقد روى عن حذيفة (رحمه الله) أنه لما حضرته الوفاة، قال: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، اللهم إنت كنت تعلم أن الفقر أحب إلىّ من الغنى، والسقم أحب إلى من الصحة، والموت أحب إلى من العيش، فسهّل علىّ الموت حتى ألقاك، فالتائب معذور فى كراهية الموت، وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه.

وأعلى مرتبة منهما: من فوض أمره إلى الله تعالى وأصبح فى مقام التسليم والرضا من الله.

أما ما يحدث للإنسان قبل الموت من عذاب فى الدنيا، وهو الاحتضار، فعلى المسلم أن يكون عند الموت فى هدوء وسكون من لسانه وأن يكون ناطقا بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى.

أما الصورة: فلقد أخرج الترمذى الحكيم فى نوارد الأصول: من حديث سلمان عن النبى ﷺ أنه قال: **«ارقبوا الميت عند ثلاث ، إذا رشح جبينه ، ودمعت عيناه ، ويبست شفتاه ، فهى رحمة من الله نزلت به ، وإذا غط غطيط المخنوق ، واحمر لونه ، وأزبدت شفتاه، فهو من عذاب الله قد نزل به»**.

ملحوظة: قال المحققون: هذا الحديث لا يصح، والله أعلى وأعلم.

أما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة: فهى علامة الخير، قال أبو سعيد الخدرى (رضى الله عنه): قال رسول الله ﷺ : **«لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله»**.

وفى رواية لحذيفة : **«فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا»**.

وقال عثمان بن عفان (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة»**.

وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): أحضروا موتاكم وذكروهم، فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم: لا إله إلا الله.

وينبغى للملقن ألاَّ يلح فى التلقين، ولكن يتلطف، فربما لا ينطق لسان المريض، فيشق عليه ذلك، ويؤدى إلى استثقاله للتلقين وكراهيته للكلمة، ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة.

وأما حسن الظن: فهو مستحب فى هذا الوقت، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم إليه والحب يغلب الرجاء، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

وأخرج مسلم من حديث جابر (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى»**.

وأخرج ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع، والحديث فى الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى ما شاء**».

وروى الترمذى، وقال: حديث غريب، ورواه النسائى وابن ماجه، وقال النووى إسناده جيد، من حديث أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: دخل النبى ﷺ على رجل وهو فى النزع الأخير، فقال ﷺ : «**كيف تجدك ؟**» فقال: أجدنى أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي. فقال الرسول ﷺ : «**ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن ، إلا أعطاه الله ما رجا ، وأمّنه مما يخاف**».

وقال سفيان (رحمه الله): من أذنب ذنبا، فعلم أن لله تعالى قدرة عليه، ورجا غفرانه، غفر الله له ذنبه، قال: لأن الله عز وجل عيّر قوما فقال: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢].

وقال ثابت البنانى (رحمه الله): كان شاب به حدة، وكان له أم تعظه كثيرا، وتقول له: يا بنى إن لك يوما، فاذكر يومك، فلما نزل به أمر الله تعالى، أكبت عليه أمه، وجعلت تقول له: يا بنى قد كنت أحذرك مصرعك هذا، وأقول: إن لك يوما، فقال يا أماه: إن لى ربا كثير المعروف، وإنى لأرجو ألاَّ يعدمنى اليوم بعض معروفه، قال ثابت: فرحمه الله بحسن ظنه بربه.

وروى أبو سعيد الخدرى (رضى الله عنه) بإسناد جيد، قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ، فإن لقنه الله حجته ، قال: يا رب رجوتك وخفت الناس ، قال: فيقول الله تعالى: قد غفرته لك**».

دواهى الموت

إن كل إنسان قبل فراقه للدنيا، يرى دواهى عظيمة تؤلمه وتعذبه قبل طلوع الروح من جسده، وهذه الدواهى ثلاث هى:

١- شدة النزع للروح التى تتشعب فى كل عرق.

٢- مشاهدة ملك الموت وخوفه منه.

٣- مشاهدة العصاة لموقعهم من النار.

١ – شدة النزع:

النزع عبارة عن ألم نزل بنفس الروح، فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن، إلا وقد حل به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنما يجرى فى جزء من الروح، يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء الجسم.

وألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه، فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب، وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل، ومن أصل كل شعرة وبشرة من المفرق إلى القدم.

فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا: إن الموت لأشد من ضرب بالسيف، ونشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض، لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح.

وإنما يستغيث المضروب، ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه، لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه، فهد كل قوة وضعّف كل جارحة، فلم يترك له قوة الاستغاثة.

عندئذ ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة، وتحيط به الحسرة والندامة، ولقد أخرج الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ : **«تقبل توبة العبد ما لم يغرغر»**.

وروى أن نفر من بنى إسرائيل مروا بمقبرة، فقال: بعضهم لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً تسألون، فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود، قد خرج من قبر من القبور فقال: يا قوم ما أردتم منى، لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة، ما سكنت مرارة الموت من قلبى.

وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث صعمة بن غيلان عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: لا أغبط أحد يهون عليه الموت، بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ .

وروى عنه أنه عليه السلام كان يقول: **«اللهم هون على محمد سكرات الموت»**، ويقول عليه السلام : **«اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل ، اللهم فأعنى على الموت وهونه على»**.

وأخرج ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية أبى ميسرة وهو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الإسناد، قال: قال رسول الله ﷺ : **«لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السماوات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى لأن فى كل شعرة الموت ، ولا يقع الموت بشىء إلا مات»**.

وروى عن موسى عليه السلام: أنه: (لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه: يا موسى كيف وجدت الموت ؟ قال: وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقلى، لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير).

وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) لكعب الأحبار: يا كعب، حدثنا عن الموت، فقال: نعم يا أمير المؤمنين: إن الموت كغصن كثير الشوك، أدخل فى جوف رجل، وأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى).

وروى أبو هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: قال النبى ﷺ : **«إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت ، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ، تقول: عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة»**.

٢ – مشاهدة صورة ملك الموت:

عندما يشاهد الإنسان صورة ملك الموت يدخل الروع والخوف على القلب، فلو رأى صورته التى يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة، لم يطق رؤيته.

فلقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام، أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن ترينى صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال: لا تطيق ذلك، قال: بلى، قال: فأعرض عنى، فأعرض عنه، ثم التفت فإذا هو برجل أسود قاتم الشعر، منتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان، فغشى على إبراهيم عليه السلام، ثم أفاق، وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى، فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه.

وأخرج أحمد بإسناد جيد، وابن أبى الدنيا فى كتاب الموت، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ : **«إن داود عليه السلام كان رجلا غيورا ، وكان إذا خرج أغلق الأبواب ، فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هى برجل فى الدار ، فقالت: من أدخل هذا الرجل ؟ لئن جاء داود ليلقن منه عناء ، فجاء داود فرآه ، فقال: من أنت ؟ فقال: أنا الذى لا أهاب الملوك ، ولا يمنع منى الحجاب ، فقال: فأنت والله إذن ملك الموت، وزمل داود عليه السلام مكانه»**.

أما المؤمن المطيع، فإنه يرى ملك الموت فى أحسن صورة وأجملها.

فلقد روى عكرمة عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا، وكان له بيت يتعبد فيه، فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم فإذا برجل فى جوف البيت، فقال: من أدخلك دارى ؟ فقال: أدخلنيها ربها، فقال: أنا ربها، فقال: أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك، فقال: من أنت من الملائكة ؟ قال: أنا ملك الموت،

قال: هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال: نعم، فأعرض عنى، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب، فذكر من حسن وجهه، وحسن ثيابه، وطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه.

٣ – مشاهدة العصاة ومواضعهم من النار:

الناس فى حالة سكرات الموت قد تخاذلت قواهم، واستسلمت لخروج أرواحهم، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد التبشيرات: إما أبشر يا عدو الله بالنار، أو أبشر يا ولى الله بالجنة، ومن هذا كان خوف أرباب الألباب.

وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى الموت موقوفا إلى النبى ﷺ قال: «**لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم مصيره ، وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار**».

وروى البخارى ومسلم من حديث عبادة بن الصامت (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»، فقالوا: كلنا نكره الموت، قال: «**ليس ذاك بذاك ، إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه**».

ودخل مروان على أبى هريرة فقال مروان: اللهم خفف عنه، فقال أبو هريرة: اللهم اشدد، ثم بكى أبو هريرة، وقال: والله ما أبكى حزنا على الدنيا، ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربى بجنة أم بنار.

أخرج ابن أبى الدنيا من حديث تميم الدارى بإسناد ضعيف، وفى آخره الحديث مرفوعاً للنسائى من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح عن النبى ﷺ قال: «**إن الله إذا رضى عن عبد قال: يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتنى بروحه لأريحه ، حسبى من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب ، فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران ، كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه ، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ ،**

قال: فيقول له جنوده: ما لك يا سيدنا فيقول: أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة ، أين كنتم من هذا ؟ قالوا: قد جهدنا به فكان معصوما».

وذكر ابن المبارك، وصاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه عن النبى ﷺ قال: **«العبد المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به وبين أجل قد بقى ، لا يدرى ما الله قاض فيه ، فوالذى نفسى بيده ، ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار»** والله المستعان.

السفر قطعة من العذاب

قالت عائشة (رضى الله عنها): لولا أن الرسول ﷺ قال: **«السفر قطعة من العذاب»**. لقلت: أن العذاب قطعة من السفر.

لأن السفر فيه من المشقة ما فيه، وقد تكون المشقة جسمانية أو مالية أو عقلية أو تفكيرية، والمشقة تمنع المسافر طعامه وشرابه ونومه، فالمسافر الذى ترك أهله وماله ووطنه من أجل هدف، يملك عليه كل مشاعره وحواسه، لن يكون متذوقا بسبب هذا لحلاوة أكل أو شرب أو نوم.

ولهذا قال النبى ﷺ فى دعاء له، بعد أن ودع رجلا مسافرا : **«اللهم ازو له الأرض ، وهون عليه السفر»**.

أخرجه أحمد والنسائى والترمذى وحسنه عن أبى هريرة (رضى الله عنه).

تعريف السفر:

السفر لغة: قطع المسافة مطلقا، وشرعا: قطع مسافة تتغير بها الأحكام من قصر الصلاة، وإباحة الفطر فى رمضان، وامتداد مدة المسح على الخفين، وسقوط الجمعة والعيدين والأضحية، وحرمة الخروج على المرأة الحرة بلا محرم أو زوج.

أقسام السفر:

والسفر ثلاثة أقسام:

سفر طاعة: كالحج والجهاد.

وسفر مباح: كالتجارة.

وسفر معصية: كقطع الطريق.

وقسم العلماء (رضى الله عنهم) الذهاب فى الأرض إلى قسمين: هرب، وطلب.

فسفر الهرب: ينقسم إلى ستة أقسام:

سفر الهجرة: وهى الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضا فى أيام النبى ﷺ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة.

-الخروج من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يسب فيها السلف.

قال ابن العربى: وهذا صحيح، فإن المنكر، إذا لم تقدر أن تغيره، فزل عنه (اتركه) حيث قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

-الخروج من أرض غلب عليها الحرام، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم.

الفرار من الأذية فى البدن، وذلك فضل من الله أن رخص فيه، فإذا خشى على نفسه، فقد أذن الله له فى الخروج عنه والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور، وأول من فعله إبراهيم عليه السلام، فإنه لما خاف من قومه قال: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقال أيضا عز وجل: ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الصافات: ٩٩].

وقال سبحانه: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص: ٢١].

خوف المرض فى البلاد التى فيها الوباء إلى البلد التى لا وباء فيها، وقد أذن النبى ﷺ للرعاة حين استوخموا المدينة إلى المسرح (الفضاء المشبع بالهواء النقى) فيكونوا فيه حتى يصحوا، واستثنى من بلد الطاعون فلا خروج ولا دخول فيه.

الفرار خوف الأذية فى المال، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله وأوكد.

وسفر الطلب: ينقسم إلى قسمين:

طلب دين، وطلب دنيا.

الطلب الأول: طلب الدين.

يتعدد أنواعه إلى تسعة أقسام:

١ - سفر العبرة: حيث قال الله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم: ٩].

وهو كثير: ويقال: إن ذا القرنين إنما طاف الأرض ليرى عجائبها.

وقيل: لينفذ الحق فيها.

- سفر الحج، وهذا السفر فرض.

- سفر الجهاد، وله أحكامه.

- سفر المعاش: إذا تعذر معاش الرجل فى بلده، فيخرج منها لصيد أواحتطاب أو عمل آخر.

- سفر التجارة والكسب الزائد على القوت، حيث يقول الله تعالى:

﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٨].

- قصد البقاع: قال رسول الله ﷺ : **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى»**.

- قصد الثغور: للرباط وحراسة المسلمين من الأعداء فى موانى البحار.

- زيارة الإخوان فى الله.

القصد من سفر الدين:

إن السفر قطعة من العذاب، والمسلم الذى يسافر ويتحمل أعباء السفر يكون مأجورا، وخاصة السفر فى سبيل التفقه فى الدين وتحصيل الأمور العامة والخاصة لفهم الشريعة الإسلامية وتوضيح ما أباحه الله للمسافر وبيان فضل كل أمر من أمور الدين الحنيف ولنبدأ بفضل العلم النافع.

فضل طلب العلم النافع

- يقول الله تعالى فى سورة المجادلة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال أيضا عز وجل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨].

٢ - وجاء فى حديث رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى الدرداء (رضى الله عنه) قال رسول الله ﷺ : **«العلماء ورثة الأنبياء»**.

٣ - وروى البخارى ومسلم من حديث معاوية (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده»**، دون قوله: **«... ويلهمه رشده»** هذه الزيادة عند الطبرانى فى الكبير.

٤ - وروى مسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال: **«من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفّس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر ، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليه السكينة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».**

٥ - وروى أبو داود والترمذى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: **«من سلك طريقا يبتغى فيه علما ، سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض ، حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد ، كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر».**

وفى الأخبار والآثار:

١ - يقول على بن أبى طالب (رضى الله عنه): العلم خير من المال، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق.

٢ - وقال على أيضا: (العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم فى الإسلام ثلمة، لا يسدها إلا خلف منه).

وقال على (كرم الله وجهه) نظما:

مـا الفخـر إلا لأهـل العلـم إنهمـو ::: علـى الهـدى لمـن اسـتهدى أدلاء
وقـدر كـل امـرئ مـا كـان يحسـنه ::: والجـاهلون لأهـل العلـم أعـداء
ففـز بعلـم تعـش حيًّـا بـه أبـدا ::: النـاس مـوتى وأهـل العلـم أحيـاء

٤ - وقال ابن عباس (رضى الله عنهما): (خيّر سليمان بن داود (عليهما السلام) بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأعطى المال والملك معه).

فضل سفر الحج والجهاد

١ - روى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: سئل النبى ﷺ : (أى العمل أفضل)، قال: «**إيمان بالله ورسوله**»، قيل، ثم ماذا، قال: «**الجهاد فى سبيل الله**»، قيل: ثم ماذا، قال: «**حج مبرور**».

٢ - وأخرج الترمذى فى سننه بسنده عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «**تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة**».

٣ - وروى مسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**إن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى على مدرجته** (طريقه) **ملكا ، فلما أتى عليه ، قال: أين تريد ؟ قال: أريد أخا لى فى هذه القرية ، قال: هل لك عليه من نعمة تربها** (تريدها) **عليه؟ قال: لا غير أنى أحببته فى الله تعالى ، قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك ، كما أحببته فيه**».

٤ - وروى ابن حبان فى صحيحه عن ابن عمر (رضى الله عنهما) عن النبى ﷺ قال: «**إن الحاج حين يخرج من بيته ، لم يخط خطوة إلا كتب الله له بها حسنة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا وقفوا بعرفات ، باهى الله بهم ملائكته ، يقول: انظروا إلى عبادى ، أتونى شعثا غبرا ، أشهدكم أنى غفرت ذنوبهم وإن كانت عدد قطر السماء ، ورمل عالج – تراكم الرمال**».

وإذا رمى الجمار، لم يدر أحد ما لـه حتى يتوفاه الله تعالى يوم القيامة، فإذا قضى آخر طوافه بالبيت، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه).

وقال الله تعالى فى الجهاد فى سبيل الله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

فضل سفر الرباط فى سبيل الله

يقول الله تعالى فى نهاية سورة آل عمران:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

الرباط: هو السهر على حدود الدولة الإسلامية فى الشواطئ والموانى، لحراسة المسلمين من غارات الأعداء والاعتداء على ممتلكات المسلمين من البحر.

- ولقد روى البخارى ومسلم، عن سهل بن سعد (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«رباط فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، وروحة يروحها العبد فى سبيل الله تعالى أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»**.

- وروى مسلم، عن سلمان الفارسى (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«رباط يوم وليلة ، خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه أجرى عليه عمله الذى كان يعمل ، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»**.

- وروى الترمذى وقال: حديث حسن صحيح، عن عثمان بن عفان (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«رباط فى سبيل الله ، خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»**.

- وروى مسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»**.

فضل سفر التجارة والكسب

يقول الله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك: ١٥].

ويقول أيضا عز وجل: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«لأن يغدو أحدكم ، فيحتطب على ظهره ، فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا ، أعطاه أو منعه»**.

وعن ابن عمر (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ : **«التاجر الأمين الصدوق المسلم مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة»**، صحيح الجامع للألبانى ().

وعن عبد الرحمن بن شبل (رضى الله عنه) مرفوعا إلى النبى ﷺ قال: **«إن التجار هم الفجار»**، قيل: يا رسول الله، أوليس قد أحل الله البيع، قال: **«بلى ، ولكنهم يحدثون فيكذبون ، ويحلفون فيأثمون»**، صحيح الجامع للألبانى ().

وعن عبيد بن رفاعة (رحمه الله) قال: إنه خرج مع النبى ﷺ إلى المصلى، فرأى الناس يتبايعون، فقال: **«يا معشر التجار»** فاستجابوا لرسول الله ﷺ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: **«إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا ، إلا من اتقى الله ، وبر وصدق»**.

وكان عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) يقول:

(لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقنى، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة).

وكان يقول: (ما من موضع يأتينى الموت فيه، أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى).

شروط التجارة:

أن يكون التاجر عنده رأس المال الكافى لتجارته، ولا يستدين بالأرباح أو بالربا والعياذ بالله.

أن يكون التاجر عالما جيدا بأصول التجارة، وخبيرا بأحوال السوق، وأن يعلم معدل الربح فلا يتغالى فيه ويظلم الناس، وأن يكون تقيا.

فكلمة تاجر: التاء فيها أن تكون تقيا، والألف: أن يكون أميناً، والجيم: أن يكون جريئا، والراء: أن يكون رحيما.

وأخرج ابن عساكر، عن أم سلمة، قالت: لقد خرج أبو بكر الصديق على عهد رسول الله ﷺ تاجرا إلى (بصرى) حتى بعد أن ولى المسلمين، وصار خليفتهم، اندفع إلى السوق للمتاجرة والعمل، فصده المسلمون عن ذلك ورأوا أن مثله فى مكانته حرى بأن يفرغ نفسه لشؤون أمته، فقال: من أين أطعم عيالى، قالوا: نفرض لك ففرضوا له كل يوم شطر شاة).

ولما هاجر المسلمون مع رسول الله ﷺ، آخى الرسول بين عبد الرحمن بن عوف، وبين سعد بن الربيع، قال سعد لعبد الرحمن: إن مالى شطران، لى شطر ولك شطر، وإن لى زوجتين أطلق إحداهن لتتزوج منها، فقال عبد الرحمن: لا حاجة لى إلى مالك، ولا لأهلك بارك الله لك فيهما، ولكن دلنى على السوق.

وتاجر عبد الرحمن، فأثرى فى الإسلام ثراء ضخما، حتى قدم سبعمائة بعير تحمل القمح والدقيق والطعام، فلما دخلت المدينة اشتراها عبد الرحمن وتصدق بها للمسلمين وفى سبيل الله، لأن التجارة الحلال تنمو وتزدهر.

فضل السفر وآدابه

أخرج أحمد والبيهقى والطبرانى فى الأوسط بسند جيد عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: **«ما من خارج يخرج من بيته إلا ببابه رايتان راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فإن خرج لما يحب الله عز وجل ، اتبعه الملك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك ، حتى يرجع إلى بيته ، وإن خرج لما يسخط الله (كسرقة أو قتل أو قطع طريق أو تجارة محرمة) اتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته»**.

وعلى التاجر إذا خرج للسفر الحلال أن يوصى بما يحتاج إلى الوصية به، وليشهد على وصيته، ويسترضى والديه وشيوخه، ويتوب إلى الله ويستغفره وليجتهد فى تعلم ما يحتاج إليه فى سفره.

فإن كان غازيا: تعلم ما يحتاج إليه الغازى من أمور القتال، وأمور الغنائم وتعظيم تحريم الهزيمة.

وإن كان حاجا أو معتمرا: تعلم مناسك الحج والعمرة، أو استصحب معه كتابا يوضح له أماكن الحج والدعوات والمباحات والمحرمات.

وإن كان تاجرا: تعلم أمور البيع والشراء وما يصح منه وما يبطل ربحه وأن يبتعد عن الاحتكار والحلف الكذب.

وإن كان متعبدا: تعلم أمور دينه، ماهرا فى تبليغ تعاليم الدين، ويبتعد عن كل ما يكذب، حافظا لآيات الله وأحاديث النبى ﷺ.

وإن كان ممن يصيد: تعلم ما يحل له من الصيد حيواناً أو طائراً، وما يشترط فى الذبح الحلال ويكون هدفه من الصيد الانتفاع بما صاده.

وإن كان راعيا: تعلم الرفق بالحيوانات، وأن يهتم بأماكن الرعى وأن يسقيها حين عطشها، ولا يغفل عنها من الذئاب وما يؤذيها.

وإن كان رسولا من سلطان إلى سلطان أو نحوه، اهتم بتعلم سلوك المخاطبة وحسن الإجابة إذا سئل، وما يحل لـه من الضيافات والهدايا وعدم الغش والنفاق والخداع، والحذر من مقدمات الغدر.

وإن كان وكيلا أو عاملا على بلد أو مكان، عليه تعلم أصول الأمانة فى عمله، والحدود التى تسمح لـه فى البيع أو الشراء، ولا يجوز لـه التصرف فيما وكل إليه إلا باستشارة من لـه أمر العمل وصاحبه.

- ويستحب أن يكون السفر يوم الخميس، لقول كعب بن مالك: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يسافر لم يسافر إلا يوم الخميس).

وأخرج البخارى وأحمد وأبو داود فى سنده أحمد بن لهيعة، وقولـه: (فما كان رسول الله ﷺ يخرج إذا أراد سفرا إلا يوم الخميس).

وحكمة ذلك: (أن الخميس يوم مبارك، ترفع فيه أعمال العباد إلى الله تعالى).

- ويستحب توديع المسافر، فلقد أخرج أحمد والنسائى والترمذى وحسنه، من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه): أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ يريد سفرا، فقال: يا رسول الله، أوصنى، قال: **«أوصيك بتقوى الله، والتكبير على كل شرف»** (مكان مرتفع) فلما ولى الرجل، قال النبى ﷺ : **«اللهم ازو له الأرض ، وهون عليه السفر»**.

ويستحب أن يودع المسافر من يخلفه، فلقد أخرج أحمد وابن السنى والطبرانى من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«من أراد أن يسافر فليقل لمن يخلفه: أستودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه»**.

- ويستحب لمريد السفر أن يصلى ركعتين قبل خروجه.

أذكار السفر

- أخرج ابن جرير (رحمه الله) من حديث أنس بن مالك (رضى الله عنه) لم يرد رسول الله ﷺ سفرا قط، إلا قال حين ينهض من جلوسه : «**اللهم لك انتشرت ، وإليك توجهت ، وبك اعتصمت ، اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى ، اللهم اكفنى ما أهمنى ، وما لا أهتم له ، وما أنت أعلم به ، اللهم زودنى التقوى ، واغفر لى ذنبى ، ووجهنى للخير ، أينما توجهت**» ثم يخرج.

- أخرج أحمد بسند فيه رجل لم يسم وبقيته ثقات، من حديث عثمان بن عفان (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مسلم يخرج من بيته يريد سفرا أو غيره**»، فقال حين يخرج: «**بسم الله ، آمنت بالله ، اعتصمت بالله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، إلا رزق ذلك خير المخرج ، وصرف عنه شر ذلك المخرج**».

- وأخرج البزار وابن أحمد فى زوائد المسند بسند رجال ثقات من حديث على بن أبى طالب (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد سفرا قال: «**اللهم بك أصول وبك أجول ، وبك أسير**».

- وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى بأسانيد صحيحة وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم: من قول على بن ربيعة: رأيت عليا رضى الله عنه أتى بدابة ليركبها، فلما وضع رجله فى الركاب، قال: بسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف: ١٣].

ثم حمد الله ثلاثا، وكبر ثلاثا، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى فاغفر لى، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا أمير المؤمنين، قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا رسول الله: قال: «**يعجب الرب من عبده ، إذا قال: رب اغفر لى ، ويقول: علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى**».

٥ - أخرج أحمد والطبرانى والبزار بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال: كان النبى ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى سفر قال: **«اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم إنى أعوذ بك من الضبنة** (ما تحت يدك من مال وعيال) **فى السفر، والكآبة فى المنقلب ، اللهم اطو لنا الأرض ، وهون علينا السفر»**.

وإذا أراد الرجوع قال: **«آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون»**.

وإذا دخل على أهله قال: **«توبا ، توبا ، لربنا أوبا ، لا يغادر علينا حوبا»**، أى الذنب.

٦ - وأخرج أحمد وأبو داود وابن النجار بسند جيد، والترمذى والحاكم بسند صحيح من قول ابن عمر (رضى الله عنهما) كان رسول الله ﷺ، إذا غزا أو سافر فأدركه الليل،

قال: **«يا أرض ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ، وشر ما خلق فيك ، وشر ما دب عليك ، أعوذ بالله من شر أسد وأسود** (ثعبان) **وحية وعقرب ، ومن شر ساكن البلد** (من الجن) **ومن شر والد وما ولد»**، الوالد: إبليس، وما ولد: الشياطين.

٧ - وأخرج مسلم وابن خزيمة والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد ومالك من حديث خولة بنت حكيم السلمية أن النبى ﷺ قال: **«من نزل منزلا ، ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»**.

٨ - وأخرج البخارى وأحمد والنسائى من قول جابر بن عبد الله (رضى الله عنهما) قال: (كنا نسافر مع النبى ﷺ، فإذا صعدنا كبرنا، وإذا هبطنا سبحنا).

٩ - وأخرج أحمد وأبو داود والطبرانى من قول أسامة والد أبى المليح قال: كنت رديف النبى ﷺ على حمار، فعثر الحمار، فقلت: تعس الشيطان، فقال لى النبى ﷺ : **«لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت: تعس الشيطان ، تعظم الشيطان فى نفسه وقال: صرعته بقوتى ، فإذا قلت: بسم الله ، تصاغرت إليه نفسه حتى يكون أصغر من ذباب»**.

الرخص الإسلامية فى السفر

أباح الله للمسافر رخصا إسلامية يتبعها المسافر تخفيفا عليه من عذاب السفر وهذه الرخص هى:

المسح على الخفين أو الجورب (الشراب).

التيمم بالتراب عند انعدام الماء.

قصر الصلاة الرباعية.

الجمع بين الصلاتين.

صلاة النفل راكبا.

صلاة النفل ماشيا.

الفطر فى شهر رمضان.

وإليك عزيزى القارئ شرح وتوضيح كل رخصة من خلال أحاديث رسول الله ﷺ ونبدأ بالمسح على الخفين:

الرخصة الأولى: المسح على الخفين

الخفان: هو حذاء من جلد (أو شراب) يلبسه الرجل والمرأة، إذا لبس على طهارة بعد الوضوء، جاز للمسافر أن يمسح على خفيه ثلاثة أيام بلياليهن دون أن ينزعهما، وللشخص المقيم يوم وليلة.

فلقد روى مسلم وأحمد، عن شريح بن هانئ (رضى الله عنه) قال: سألت عائشة (رضى الله عنها) عن المسح على الخفين فقالت: سل عليا فإنه أعلم بهذا منى كان يسافر مع رسول الله ﷺ، فسألته، فقال: قال رسول الله ﷺ : **«للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن وللمقيم يوم وليلة»**.

شروط المسح:

أن يلبس الخف على وضوء.

ن يكون الخف أو الجورب (الشراب) طاهرا، ولا يصح المسح على نجس أو متنجس.

أن يكون ساترا للقدمين، ولا بأس إذا كان به خروق.

أن يكون قويا يمكن تتابع المشى عليه.

ويكون المسح على ظاهر الخفين، فلا يصح المسح على أسفله ولا على جوانبه.

الرخصة الثانية: التيمم بالتراب

التيمم: طهارة ترابية، تسد مسد الطهارة المائية (وضوءا كانت أو غسلا) عند فقد الماء، أو عدم القدرة على استعماله.

وهو عبارة عن ضربتين بالكفين على التراب الصعيد الطاهر، ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى الرسغين، يقول الله تعالى فى سورة النساء:

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٤٣].

وسبب مشروعيته، ما رواه مسلم وأخرجه مالك من حديث عائشة (رضى الله عنها) قالت: (خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء انقطع عقدى، فأقام النبى ﷺ على التماسه وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبى بكر فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة.

فجاء أبو بكر، والنبى ﷺ واضعاً رأسه على فخذى، قد نام، فعاتبنى وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده فى خاصرتي، فما يمنعنى من التحرك إلا مكان النبى ﷺ على فخذى، فقام حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم.

فقال أسيد بن حضير: ما هى أول بركتكم يا آل أبى بكر، قالت: فبعثنا البعير الذى كنت عليه، فوجدنا العقد تحته).

الأسباب المبيحة للتيمم:

١- إذا لم يجد الماء، أو وجد ما لا يكفيه للطهارة، فلقد روى البخارى ومسلم من حديث عمران بن حصين (رضى الله عنه) قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فصلى بالناس، فإذا هو برجل معتزل، قال: «**ما منعك أن تصلى**»، قال: أصابتنى جنابة، ولا ماء، قال: «**عليك بالصعيد فإنه يكفيك**».

وروى أصحاب السنن، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الصعيد طهور ، لمن لم يجد الماء عشر سنين**»، ولكن يجب عليه قبل أن يتيمم أن يطلب الماء من رفقته، أو من مكان قريب، فإذا تيقن عدمه أو بعده عنه فإنه يتيمم.

٢ - إذا كان به جراحة أو مرض وخاف من استعمال الماء، أو تأخر الشفاء، سواء عرف ذلك بالتجربة، أو بإخبار الثقة من الأطباء.

فلقد روى أبو داود، وابن ماجه، والدارقطنى وصححه ابن السكن من حديث جابر (رضى الله عنه) قال:

خرجنا فى سفر، فأصاب رجلا منا حجر، فشجه فى رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه، هل تجدون لى رخصة فى التيمم، فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه بذلك، فقال: «**قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العى (الجهل) السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليه ، ويغسل سائر جسده**».

- إذا كان الماء شديد البرودة، وغلب على ظنه حصول ضرر باستعماله بشرط أن يعجز عن تسخينه ولو بالأجر، أو لا يتيسر له دخول الحمام.

فلقد روى أحمد وأبو داود والحاكم والدارقطنى وابن حبان وعلقه البخارى وفى هذا إقرار، والإقرار حجة، لأنه ﷺ لا يقر على باطل، من حديث عمرو بن العاص (رضى الله عنه) أنه لما بعث فى غزوة ذات السلاسل، قال: احتلمت فى ليلة شديدة البرودة، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح.

فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له فقال: **«يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟»**، فقلت: ذكرت قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا.

٤ ـ إذا كان الماء قريبا منه، إلا أنه يخاف على نفسه أو عرضه أو ماله، أو فوات الرفقة، أو حال بينه وبين الماء عدو يخشى منه، سواء كان العدو آدميا أو غيره، أو كان مسجونا، أو عجز عن استخراج الماء، لفقد آلة الماء كحبل أو دلو، لأن وجود الماء فى هذه الأحوال كعدمه، وكذلك من خاف أن اغتسل أن يرمى بما هو برىء منه، ويتضرر به، مثل رجل بات عند رجل صديقه فاحتلم، فلا يطلب الاستحمام، لأنه بذلك يشك الرجل فى أهله.

٥ ـ إذا احتاج إلى المال حالا أو مآلا لشربه أو شرب غيره، ولو كان كلبا غير عقور، أو احتاج له لعجن أو طبخ، أو إزالة نجاسة غير معفو عنها فإنه يتيمم ويحفظ ما معه من الماء.

قال الإمام أحمد (رضى الله عنه) أنه قال: (فى الرجل يكون فى السفر فتصيبه الجنابة ومعه قليل من الماء، يخاف أن يعطش: يتيمم ولا يغتسل).

وقال ابن تيمية (رحمه الله) من كان حاقنا عادما للماء، فالأفضل أن يصلى بالتيمم غير حاقن، من أن يحفظ وضوءه ويصلى حاقنا.

٦ ـ إذا كان قادرا على استعمال الماء، لكنه خشى خروج الوقت باستعماله فى

الوضوء أو الغسل، فإنه يتيمم ويصلى، ولا إعادة عليه.

ويجوز التيمم بالتراب الطاهر وكل ما فى جنس الأرض كالرمل والحجر والجص، وأجمع العلماء أن الصعيد الطيب هو كل ما على وجه الأرض.

ويباح للمتيمم الصلاة ومس المصحف، ويصلى بالتيمم الواحد ما شاء من الفرائض والنوافل، فحكمه كحكم الوضوء سواء بسواء.

ومبطلات التيمم ما يبطل به الوضوء، ويبطل بوجود الماء فى الوقت، فمن وجد الماء قبل أن يصلى بالتيمم وجب عليه الوضوء بالماء.

وإن صلى بالتيمم ثم وجد الماء فى الوقت، ليس عليه إعادة، لقول الرسول ﷺ لمن صلى بالتيمم فى الوقت : **«أصبت السنة وأجزأتك صلاتك»** أخرجه النسائى وأبو داود والدارمى والحاكم.

الرخصة الثالثة: قصر الصلاة الرباعية

يقول الله تعالى فى سورة النساء:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) ﴾ [النساء: ١٠١].

يجوز للمسافر أن يصلى الظهر والعصر والعشاء ركعتين، أما صلاة الصبح فلا تقبل القصر لأنها قصيرة بطبيعتها، وكذلك صلاة المغرب لا تقبل القصر لأنها وتر النهار.

تقييد قصر الصلاة بالخوف غير معمول به:

فلقد روى البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ومالك من حديث يعلى بن أمية (رضى الله عنه) قالت: قلت لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه): أرأيت إقصار الناس الصلاة، وإنما قال الله عز وجل: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النساء:

١٠١] فقد ذهب ذلك اليوم، فقال عمر: عجبت مما عجبت منه، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته»**.

وروى أحمد والبيهقى وابن حبان وابن خزيمة ورجالِه ثقات عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: (قد فرضت الصلاة ركعتين ركعتين بمكة، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة زاد مع كل ركعتين ركعتين، إلا فى المغرب، فإنها وتر النهار، وصلاة الفجر لطول قراءتها، وكان إذا سافر صلى الصلاة الأولى أى التى فرضت بمكة).

ملحوظة:

فى السنة الرابعة من الهجرة: فرضت صلاة القصر فى الظهر والعصر والعشاء للمسافر، ويكره إتمام الصلاة الرباعية، ويكره أن يصلى المسافر خلف الشخص المقيم لأنه بذلك تفوته رخصة القصر، وإذا صلى المسافر إماما بمقيم، فيصلى ركعتين ويسلم.

ويقول للناس الذين صلوا خلفه: (أتموا صلاتكم فإنى على سفر).

فلقد ثبت أن الرسول ﷺ صلى إماما بأهل مكة بعد الهجرة صلاة رباعية، فسلم على رأس ركعتين، ثم التفت إلى القوم فقال: **«أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر»**.

شروط صحة القصر:

لكى نصلى صلاة القصر فى الظهر والعصر والعشاء يجب علينا اتباع الشروط الآتية كما جاء فى الفقه على المذاهب الأربعة بتصرف وإيجاز، وهى:

مدة القصر أى المسافة وهى مطلقة غير محددة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ [النساء: ١٠١]، والجناح: الإثم: ﴿ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [النساء: ١٠١] سواء طالت المسافة أو قصرت، ولم يرد ما يرد من السنة ما يقيد هذا الإطلاق، ولقد نقل ابن المنذر وغيره فى هذه المسألة أكثر من عشرين قولا، نذكر هنا أصح ما ورد فى ذلك:

أ- فرسخ أى ثلاثة أميال، ، فلقد روى سعيد بن منصور، وذكره الحافظ فى

التلخيص وأقره بسكوته عنه من حديث أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) قال: (كان رسول الله ﷺ إذا سافر فرسخا يقصر الصلاة).

وأقل ما ورد فى مسافة القصر ميل واحد، رواه ابن أبى شيبة بإسناد صحيح عن ابن عمر.

ب - مسيرة مرحلتين أو ثلاث من اشتراط السفر الطويل مما ذهب إليه الفقهاء، فقد كفانا مؤونة الرد عليهم الإمام أبو القاسم الخرقى، قال فى المغنى: قال المصنف: (لا أرى لما صار إليه الأئمة حجة، لأن أقوال الصحابة متعارضة مختلفة، ولا حجة فيها مع الاختلاف، وقد روى عن ابن عمر وابن عباس خلاف ما احتج به أصحابنا، ثم لو لم يوجد ذلك، لم يكن فى قولهم حجة مع قول النبى ﷺ وفعله.

وإذا لم تثبت امتنع المصير إلى التقدير الذى ذكروه لوجهين:

أحدهما: أنه مخالف لسنة الرسول ﷺ.

وثانيهما: ظاهر القرآن الذى لم يحدد الله فيه مسافة السفر.

جـ - وقال البعض: إن مسافة القصر مسيرة ثلاثة أيام، واحتجوا بقول النبى ﷺ : «**يمسح المسافر ثلاثة أيام**»، وهذا الحديث جاء لبيان مدة المسح على الخفين، فلا يحتج به هاهنا فى قصر الصلاة، وقد سماه النبى ﷺ سفرا فقال:

«**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذى محرم**».

والتقدير بابه التوقيف: فلا يجوز المصير إليه برأى مجرد، وخاصة ليس له أصل يرد إليه، ولا نظير يقاس عليه، والحجة مع من أباح القصر لكل مسافر إلا أن ينعقد الإجماع على خلافه، ويستوى فى ذلك السفر فى الطائرة أو القاطرة.

١- والثانى من شروط قصر الصلاة: أن ينوى الشخص السفر فيحل له قصر الصلاة، فلو خرج إنسان هائما على وجهه، لا يدرى أين يتوجه فإنه لا يقصر ولو طاف الدنيا كلها.

٢- أن يكون السفر مباحا، فلو كان السفر حراما كأن يسافر لسرقة مال أو قطع الطريق فلا يقصر، وقال البعض: يجوز قصر الصلاة فى السفر المكروه.

٣- مجاوزة حد الإقامة، من الجانب الذى خرج منه، فلا يجوز للمسافر أن يقصر الصلاة قبل أن يفارق بيوت القرية أو المصر (المدينة).

وأجاز البعض: أن يجوز للمسافر الذى نوى السفر أن يصلى قصرا ولو كان يرى البيوت.

فلقد أخرج الحاكم وذكره البخارى معلقا من حديث على بن ربيعة (رضى الله عنه) قال: (خرجنا مع على بن أبى طالب " كرم الله وجهه " فقصرنا الصلاة ونحن نرى البيوت).

مدة قصر الصلاة:

المسافر يقصر الصلاة ما دام مسافرا، فإن أقام لحاجة ينتظر قضاءها قصر الصلاة كذلك، لأنه يعتبر مسافرا وإن أقام سنين.

فإن نوى الإقامة مدة معينة:

والذى اختاره ابن القيم: أن الإقامة لا تخرج عن حكم السفر، سواء طالت أم قصرت، ما لم يستوطن المكان الذى أقام فيه.

وللعلماء فى ذلك آراء كثيرة لخصها ابن القيم فقال:

عشرون يوما، قال ابن القيم: (أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة، ولم يقل للأمة: لا يقصر الرجل الصلاة، إذا أقام أكثر من ذلك، ولكن اتفق إقامته هذه المدة).

وهذه الإقامة فى حال السفر، لا تخرج عن حكم السفر، سواء طالت أم قصرت إذا كان غير مستوطن، ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع.

تسعة عشر يوما: ففى صحيح البخارى، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال:

(أقام النبى ﷺ فى بعض أسفاره تسعة عشر، يصلى ركعتين، فنحن إذا أقمنا تسعة عشر نصلى ركعتين، وإن زدنا على ذلك أتممنا).

وظاهر كلام أحمد: أن ابن عباس أراد مدة مقامه بمكة زمن الفتح.

ثمانية عشر يوما: وقال ابن عباس (رضى الله عنهما): (أقام رسول الله ﷺ بمكة ثمانية عشر يوما من الفتح، لأنه أراد حنينا ولم يكن ثم - أى هناك - أجمع المقام).

وهذه إقامته التى رواها ابن عباس، وقال غيره: بل أراد ابن عباس مقامه بتبوك حيث روى أحمد فى مسنده، عن جابر بن عبد الله قال: أقام النبى ﷺ بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة.

أربعون ليلة: وقال المسور بن مخرمة (رضى الله عنه): (أقمنا مع سعد ببعض قرى الشام، أربعين ليلة يقصرها سعد، ونتمها).

ستة أشهر: وقال نافع (رضى الله عنه): (أقام ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يصلى ركعتين، وقد حال الثلج بينه وبين الدخول).

سنتان: وقال حفص بن عبيد الله (رضى الله عنه): (أقام أنس بن مالك بالشام سنتين يصلى صلاة المسافر).

سبعة أشهر: وقال أنس بن مالك (رضى الله عنه): (أقام أصحاب النبى ﷺ برام هرمز سبعة أشهر يقصرون الصلاة)

سنتان: وقال الحسن (رضى الله عنه): (أقمت مع عبد الرحمن بن سمرة بكابل سنتين يقصر الصلاة ولا يجمع).

أكثر من سنة وسنتين: وقال إبراهيم (رضى الله عنه): (كانوا يقيمون بالرى السنة وأكثر من ذلك، وسجستان السنتين).

هدى النبى ﷺ :

فهذا هدى النبى ﷺ وأصحابه كما ترى، وهو الصواب.

أما مذهب الناس، فقال الإمام أحمد: إذا نوى إقامة أربعة أيام، أتم وإن نوى دونها قصر، وجعل هذه الآثار على أن الرسول ﷺ وأصحابه لم يجمعوا (أى يقصدوا) الإقامة البتة، بل كانوا يقولون: اليوم نخرج غدا نخرج، وفى هذا نظر لا يخفى، فإن رسول الله ﷺ فتح مكة وهى ما هى، وأقام فيها يؤسس قواعد الإسلام، ويهدم قواعد الشرك، ويمهد أمر ما حولها من العرب.

وهناك بعض الآراء لبعض الأئمة والمذاهب والفقهاء فى موضع قصر الصلاة، وكل من رسول الله ملتمس، فالتمس أنت أيضا رحمك الله.

وصلاة التطوع فى السفر: أجازها البعض، وقالوا: حسب حالة الخوف والأمان.

الرخصة الرابعة: الجمع بين الصلاتين

يجوز للمصلى أن يجمع بين الظهر والعصر: جمع تقديم، أى يصلى الظهر والعصر فى زمن صلاة الظهر، وجمع تأخير: أى يصلى الظهر والعصر فى زمن صلاة العصر، وكذلك الجمع بين المغرب والعشاء، جمع تقديم أو جمع تأخير، فى الحالات الآتية:

١- الجمع بعرفة والمزدلفة.

٢- الجمع فى السفر.

٣- الجمع فى المطر.

٤- الجمع بسبب المرض أو العذر.

٥- الجمع للحاجة.

وإليك عزيزى القارئ شرح كل حالة فى ضوء الكتاب وسنة الرسول ﷺ.

١ – الجمع بعرفة والمزدلفة:

اتفق العلماء على أن الجمع بين الظهر والعصر، جمع تقديم فى وقت الظهر بعرفة، والجمع بين المغرب والعشاء جمع تأخير فى وقت العشاء بالمزدلفة سنة لفعل الرسول ﷺ.

٢ – الجمع فى السفر:

الجمع بين الصلاتين فى السفر، فى وقت إحداهما جائز فى قول أكثر أهل العلم، لا فرق بين كونه نازلا أو سائرا.

فلقد روى أبو داود والترمذى وقال: هذا حديث حسن، عن معاذ بن جبل (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ كان فى غزوة تبوك، إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر، وإذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر حتى ينزل العصر، وفى المغرب مثل ذلك، إن غابت الشمس قبل أن يرتحل، جمع بين المغرب والعشاء، وإن

ارتحل قبل أن تغيب الشمس أخّر المغرب حتى ينزل للعشاء، ثم نزل فجمع بينهما.

روى أحمد، عن كريب عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال: (ألا أخبركم عن صلاة رسول الله ﷺ فى السفر، قلنا: بلى، قال: كان إذا زاغت له الشمس فى منزله، جمع بين الظهر والعصر قبل أن يركب، وإذا لم تزغ له فى منزله سار حتى إذا حانت صلاة العصر، نزل فجمع بين الظهر والعصر، وإذا حانت له المغرب فى منزله جمع بينها وبين العشاء، وإذا لم تحن فى منزله ركب حتى إذا كانت العشاء نزل فجمع بينهما).

ولا تشترط النية فى الجمع والقصر، قال ابن تيمية: وهو قول الجمهور من العلماء وقال: والنبى ﷺ لما كان يصلى بأصحابه جمعا وقصرا، لم يكن يأمر أحدا منهم بنية الجمع والقصر، بل خرج من المدينة إلى مكة يصلى ركعتين من غير جمع، ثم صلى بهم الظهر بعرفة، ولم يعلمهم أنه يريد أن يصلى العصر بعدها، ثم صلى بهم العصر، ولم يكونوا نووا الجمع، وهذا جمع تقديم).

٣ – الجمع فى المطر:

روى البخارى (رحمه الله) أن النبى ﷺ جمع بين المغرب والعشاء فى ليلة مطيرة.

وروى الأثرم فى سننه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن (رضى الله عنه) أنه قال: (من السنة إذا كان يوم مطير، أن يجمع بين المغرب والعشاء).

اختلف الأئمة والفقهاء فى تحديد جواز الجمع فى المغرب والعشاء ليلا والظهر والعصر فى اليوم المطير، ولم يتحدوا على رأى واحد معين.

ونقول وبالله التوفيق: إذا عم المطر ليلا أو نهارا وانتشر الوحل وشق على الإنسان السير فيه، وظن حدوث ضرر، فالإنسان يجمع، وإن خف المطر سواء كان ليلا أو نهارا فلا يجمع، لأن رواية البخارى السابقة مطلقة فى ليلة مطيرة، والله أعلم.

٤ – الجمع بسبب المرض أو العذر:

ذهب الإمام أحمد والقاضى حسين، والخطابى، والمتولى من الشافعية: إلى جواز الجمع بين الصلاتين تقديما وتأخيرا بعذر المرض، لأن المشقة فيه أشد من المطر.

قال النووى: وهو قوى فى الدليل، وفى المعنى: والمرض المبيح للجمع: هو ما يلحقه به بتأدية كل صلاة فى وقتها مشقة وضعف.

وتوسع الحنابلة: فأجازوا الجمع تقديما وتأخيرا لأصحاب الأعذار، وللخائف وأجازوه للمرضع التى يشق عليها غسل الثوب فى وقت كل صلاة، وللمستحاضة ولمن به سلس بول، وللعاجز عن الطهارة، ولمن خاف على نفسه أو ماله أو عرضه، ولمن خاف ضررا يلحقه فى معيشته بترك الجمع.

قال ابن تيمية (رحمه الله): وأوسع المذاهب فى الجمع: مذهب أحمد بن حنبل فإنه جوز الجمع إذا كان شغل، كما روى النسائى ذلك مرفوعا إلى النبى ﷺ إلى أن قال: يجوز الجمع أيضا للطباخ والخباز ونحوهما ممن يخشى فساد ماله.

٥ – الجمع للحاجة:

روى مسلم عن ابن عباس (رضى الله عنهما): قال: (جمع رسول الله ﷺ بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، بالمدينة فى غير خوف ولا مطر، قيل لابن عباس: ماذا أراد بذلك، قال: أراد ألا يحرج أمته).

وروى البخارى ومسلم عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن النبى ﷺ صلى بالمدينة سبعا وثمانيا: الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وعند مسلم عن عبد الله بن شقيق قال: خطبنا ابن عباس يوما بعد العصر، حتى غربت الشمس وبدت النجوم، وجعل الناس يقولون: الصلاة الصلاة، قال: فجاءه رجل من بنى تيم، لم يفتر ولا ينثنى: الصلاة الصلاة، فقال ابن عباس: أتعلمنى السنة، لا أم لك؟ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قال عبد الله ابن شقيق: فحاك فى صدرى من ذلك، فأتيت أبا هريرة فسألته، فصدق مقالته).

الرخصة الخامسة: التنفل راكبا

روى البخارى ومسلم أحمد: (كان رسول الله ﷺ : يصلى على راحلته أينما توجهت به دابته، وأوتر رسول الله ﷺ على الراحلة) (غير أنه لا يصلى عليها المكتوبة).

وليس على المتنفل الراكب ركوع ولا سجود، وإنما يكون بالإيماء، وينبغى على الراكب أن يكون سجوده أخفض من ركوعه، ولا يلزمه الانحناء إلى حد يتعرض به لخطر بسبب الراحلة.

أما استقبال القبلة: فلا يجب لا فى ابتداء الصلاة ولا فى دوامها ولكن صوب الطريق بدل القبلة، فليكن فى جميع صلاته، إما مستقبلا للقبلة، أو متوجها فى صوب الطريق، لتكون له جهة يثبت فيها.

فلو حرف دابته عن الطريق قصدا بطلت صلاته، إلا إذا حرفها إلى القبلة، ولو حرفها ناسيا، لم تبطل صلاته، وليس عليه سجود سهو.

وقد ثبت أن النبى ﷺ كان يصلى على راحلته وهو مقبل من مكة إلى المدينة، حيث ما توجهت به راحلته، وفيه نزلت الآية:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

الرخصة السادسة: التنفل ماشيا

التنفل للماشى جائز فى السفر، ويومئ بالركوع والسجود، ولا يقعد للتشهد، لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة، وعلى الماشى الذى يريد التنفل أن يستقبل القبلة فى بدء الصلاة بخلاف الراكب، ولا ينبغى أن يمشى فى نجاسة رطبة عمدا، فإن فعل بطلت صلاته، بخلاف لو وطئت الدابة نجاسة فى طريقها فلا بأس.

فإن مشى فى نجاسة رطبة هاربا من عدو أو سيل أو سبع فلا بأس وصلاته النافلة صحيحة وللمسافر أن يصلى الفريضة راكبا أو ماشيا.

الرخصة السابعة: الفطر فى رمضان

يقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وروى مسلم عن حمزة الأسلمى (رضى الله عنه) قال: يا رسول الله، أجد منى قوة على الصوم فى السفر، فهل علىّ جناح، فقال: **«هى رخصة من الله تعالى فمن أخذ بها فحسن ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه»**.

وروى مسلم وأحمد وأبو داود، عن أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) قال: (سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام، قال: فنزلنا منزلا فقال رسول الله ﷺ : **«إنكم قد دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم»** فكانت رخصة، فمنا من صام، ومنا من أفطر.

ثم نزلنا منزلا آخر، فقال: **«إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم، فأفطروا»** فكانت عزمة، فأفطرنا، ثم رأيتنا نصوم بعد ذلك مع رسول الله ﷺ فى السفر).

وقال عمر بن عبد العزيز (رحمه الله): أفضلهما أيسرهما، فمن يسهل عليه حينئذ ويشق عليه قضاؤه بعد ذلك فالصوم فى حقه أفضل.

وروى مسلم والنسائى والترمذى وصححه، عن جابر (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح، فصام حتى بلغ (كراع الغميم) مكان وصام الناس معه، فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإن الناس ينظرون فيما فعلت، فدعا بقدح من ماء بعد العصر، فشرب والناس ينظرون إليه فأفطر بعضهم، وصام بعضهم، فبلغه أن أناسا صاموا، فقال: **«أولئك العصاة»**.

والسفر المبيح للفطر: هو السفر الذى تقصر الصلاة بسببه.

آداب الرجوع من السفر

يستحب لمن قدم من السفر: أن يبدأ بالمسجد، فيصلى فيه ركعتى القدوم، وأن يجلس مع من يقصد التسليم عليه فى مكان بارز سهل على زائريه وأن لا يأتى أهله بغتة.

فلقد أخرج البخارى ومسلم عن جابر بن عبد الله (رضى الله عنه) قال: (كنت مع النبى ﷺ فى سفر، فلما قدمنا المدينة قال: **«ادخل المسجد فصلِّ ركعتين»**.

وأخرج البخارى ومسلم وأحمد عن كعب بن مالك (رضى الله عنه) قال: كان النبى ﷺ لا يقدم من سفر إلا نهارا فى الضحى، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم جلس فيه، فيأتيه الناس فيسلمون عليه.

وأخرج البخارى وأبو داود ومسلم والترمذى والنسائى عن جابر بن عبد الله (رضى الله عنه) قال له: إذا دخلت ليلا، فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة، وإذا دخلت فعليك الكيس الكيس).

المغيبة: التى غاب زوجها.

الشعثة: من تلبد شعرها.

الكيس: الجماع.

وأخرج ابن السنى من حديث ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: كان رسول الله ﷺ إذا رجع من سفره، فدخل على أهله قال: **«توبا ، توبا لربنا أوبا ، لا يغادر حوبا»**.

وأخرج البزار وأبو يعلى مثله بلفظ: **«فإذا دخل على أهله قال: أوبا أوبا لربنا توبا لا يغادر علينا حوبا»** الحوب: الإثم.

وأخرج ابن السنى عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: كان رسول الله ﷺ فى غزوة فلما دخل استقبلته فأخذته بيده، فقلت: الحمد لله الذى نصرك وأعزك وأكرمك.

* * *

الباب الرابع
رسل الله من الظواهر الطبيعية

بتوفيق من الله تم توضيح البلاءات التى تصيب العبد: بشىء من الخوف والجوع ومقدمات الموت وهى عذاب الاحتضار وشدة نزع الروح ورؤية الإنسان مقعده من الجنة أو النار حسب عمله.

وفى هذا الباب بمشيئة الله سنوضح إنذارات الله إلى المزارعين الذين لا يخرجون زكاة زروعهم، ونسوا حق الفقراء والمساكين فى تلك المنتجات.

وكذلك رسل الله إلى البشرية من الظواهر الطبيعية فى صورة زلازل وبراكين وهزات أرضية تطيح بالملايين وتخرب الديار والعمار، وهذا بيان للناس على أن الذين يظنون أنهم يملكون الأرض ومن عليها بصواريخهم ومدافعهم ومخترعاتهم الفتاكة، فيعلمون أن الأمر كله لله فى البر والبحر والجو.

وإليك عزيزى القارئ الفصول التى هدانى ربى إلى تسجيلها وهى:

الفصل الأول: **إنذارات للمزارعين من البيئة.**
إنذارات مفترسة للفلاحين.
العلاج الدنيوى والعلاج الربانى.
الزكاة المفروضة على المسلم.

الفصل الثانى: **الزلازل وشرعيتها من عذاب الدنيا.**
الزلازل والعلم الحديث.
كثرة الزلازل من أشراط الساعة.

الفصل الثالث: **هل الزلازل غضب من الله.**
ما كانت الزلازل إلا عن شىء أحدثتموه.
احذروا هذه الذنوب.
فقه الزلازل وما يستحب عندها.
العلمانيون والزلازل.

الفصل الأول
إنذارات للمزارعين من البيئة

يقـــول الله تعـــالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ويقول أيضا عز وجل: ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٧].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ [القمر: ١٩].

إن الله لا يظلم الناس، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فالله خلق لنا مما تنبت الأرض خيرات لا حصر لها، وفرض على المزارعين نصيب الفقراء من إنتاج هذه المزارع، لكى يسلم المزارعون من عذاب الله لهم فى الدنيا، ولكن هيهات لهم لم يخرجوا زكاة أموالهم ومزروعاتهم، فأرسل الله إليهم إنذارات من البيئة كى يعتبروا ويرجعوا إلى شريعة الله، ومن هذه الإنذارات الرياح.

الرياح:

فحينما تمر الرياح على النباتات بسرعة فإن معدل النتح (التمثيل الضوئى) يزداد سريعا، ثم تصير الزيادة تدريجيا إلى أن تصل السرعة إلى معدل كبير، فيصير للرياح تأثير تبريدى على النباتات مما يقلل النتح تدريجيا.

أما إذا كانت الرياح باردة أصلا فإن ضررها يكون كبيرا، إذ تعمل على تعريض النبات إلى الحرارة الباردة غير الملائمة، وللرياح السريعة أثر فى تجفيف النبات خصوصا أجزائه الغضة، مهما كانت درجة حرارتها وطبعا يزداد تأثيرها على تجفيف النبات، كلما ارتفعت درجة حرارتها.

أما الرياح الساخنة فإن ضررها أشد، وتأثيرها فى تجفيف النبات أكبر بما تسببه من زيادة كبيرة فى نقص التشبع للهواء، وبما تسببه من تعريض النبات إلى حرارة مرتفعة

غير ملائمة، مما يؤدى إلى سرعة موت البراعم والأوراق الغضة بل والنبات كله.

ويكون ضرر النبات من الرياح بالغا حينما تكون محملة بالجسيمات الصلبة، فالجسيمات الصلبة المنطلقة بسرعة كبيرة مع الرياح تصطدم بأجزاء النبات فتسبب تآكلها، فتهلك البراعم والأوراق الصغيرة والكبيرة والأفرع، ومع الرياح الأشد التى تحمل جزئيات أكبر تسبب تآكل أجزاء النبات الكبيرة وقد تؤدى الرياح الشديدة إلى إسقاط أوراق النبات، أو كسر فروعه أو كسر أو اقتلاع الأشجار من جذورها.

الحرارة المنخفضة:

تصاب المحاصيل نتيجة للتبريد بخسائر أكبر مما يصيبها نتيجة للحرارة المرتفعة.

فالحرارة المنخفضة - حتى ولو كانت أعلى من درجة التجمد، قد تضر نباتات الجو الدافئ مثل الذرة والبقوليات، كما تسبب حلاوة زائدة فى درنات البطاطس بسبب التحلل المائى للنشا إلى سكريات.

ويسبب انخفاض درجة الحرارة عن درجة التجمد أضرارا مختلفة للنباتات، ومن أمثلة هذه الأضرار: ما يصيب الأطراف الحديثة السن، أو ما يصيب النباتات العشبية، وما ينتج بسبب الصقيع من قتل براعم الخوخ والكمثرى وقتل الأزهار والثمار الصغيرة.

وقد ينتج عن انخفاض درجة الحرارة فى الشتاء قتل جذور الأشجار مثل أشجار التفاح، وقد تسبب انخفاض الحرارة تسوس السيقان والفروع الكبيرة خصوصا على جانب الشجرة المعرضة للشمس، وقد يظهر الضرر فى درنات البطاطس فى الأنسجة الوعائية كحلقة ميتة.

أما إذا كان الضرر فى الأنسجة الوعائية الدقيقة المنتشرة فى الدرنة فتظهر الإصابة كموت شبكى للأنسجة وهو ما يسمى (موت تبقعى).

أمراض الحرارة المرتفعة:

يكون الضرر الذى يصيب النباتات عند ارتفاع درجة الحرارة عن النهاية العظمى أكثر مما لو تعرضت لحرارة أكثر انخفاضا من النهاية الصغرى، وغالبا يكون الأثر الضار للحرارة مرتبطا بأثر عوامل بيئية أخرى: مثل الضوء الشديد، أو الجفاف، أو نقص

الأكسجين، أو الرياح الشديدة.

وتسبب الحرارة المرتفعة أضرار على الجانب المعرض للشمس للثمار اللحمية والخضراوات مثل التفاح والطماطم والبصل ودرنات البطاطس، ومثال ذلك:

١ – ضربات الشمس فى البطاطس:

تصاب درنات البطاطس بهذه الضربة عندما تتعرض إلى أشعة الشمس أو بعد حصادها، فيظهر المرض على قشرة الدرنة كجزء مائى مسلوق، وقد يصحبه اخضرار حول المنطقة المصابة.

٢ – ضربة الشمس فى الطماطم:

تصيب الأوراق، وكذلك تصيب الثمار الخضراء، أو قرمزية اللون، وتظهر الأعراض بفطريات وبكتيريا مختلفة تسبب نقص الثمار.

٣ – تجويف ثمار الطماطم:

تصاب الثمار بهذا المرض بنسبة كبيرة حينما ترتفع الحرارة عن ٣٨° مئوية، فتصير الثمار خفيفة الوزن، وبالضغط عليها بالأصابع يتضح تفريغها من الداخل، ويظهر المرض على الثمار المستديرة أكثر منه على الثمار المبططة.

٤ – ضربة الشمس فى الفلفل:

يصاب الفلفل أيضا بنفس أعراض ضربات الشمس فى الطماطم ولنفس الأسباب.

٥ – التقرح الحرارى للكتان:

تصاب بادرات الكتان نتيجة لملامستها للطبقات السطحية الجافة الساخنة للتربة بالتقرح الحرارى، وتتلف خلايا البشرة والقشرة وتنهار ثم تموت.

أمراض الرطوبة الجوية:

يتسبب نقص الرطوبة فى الجو - أى انخفاض الرطوبة النسبية - إلى زيادة معدل النتح وأيضا ارتفاع درجة حرارة النبات، وتشتد الحالة كلما زادت سرعة الريح، وكلما ارتفعت درجة الحرارة، ففى مثل هذه الظروف يشتد النتح مما يؤدى إلى الذبول المؤقت

أو الدائم، وقد تجف الأوراق أو تحرق، ومن المشاهدات التى لوحظت فى زراعات القطن عند نقص الرطوبة الجوية (جفاف الجو) ظهرت على نباتات القطن أعراض نقص البوتاسيوم، وقد يكون السبب فى ذلك العلاقة بين الرطوبة وذوبان الأملاح فى التربة.

ففى حالة نقص البوتاسيوم يؤدى الجفاف إلى عدم وصول البوتاسيوم للنباتات، وفى الحالة الثانية وهى نقص المغنسيوم والمنجنيز (فى الأسمدة) تؤدى الرطوبة العالية إلى تسرب المغنسيوم والمنجنيز إلى عمق الأرض بعيدا عن النبات، فلا يستفيد النبات بهذه الأملاح.

العلاج الربانى:

والعلاج الربانى لكل أمراض النبات والفاكهة وكل ما تنتجه الأرض هو إخراج زكاة المزروعات عقب حصادها ومقدارها ٥٪ أى نصف العشر إذا بلغت النصاب (استعرض النصاب فى الصفحات التالية) وأعطِ حق الفقراء والمساكين لهم.

إنذارات مفترسة للفلاحين

يقول الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ويقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج: ٧٣].

ويقول جل وعلا:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦].

ويقول سبحانه عز فى علاه:

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩].

ويقول الله تعالى:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل: ١٧ - ١٩].

لقد منّ الله علينا بخيرات كثيرة تخرج من الأرض، مختلفة فى أشكالها وألوانها وطعمها، وأوحى إلى رسول الله محمد ﷺ أن يخبرنا بحق السائل والمحروم من الفقراء والمساكين والمحتاجين وهو زكاة الزروع.

وفى بعض السنوات وبعض الفلاحين يهمل المزارعون إخراج زكاة ما تنتجه أراضيهم فيسلط الله عليهم الكائنات الحية التى تهاجم الزروع، وتفتك ما تنتجه مثل الحشرات المفترسة: كفرس النبى، وحشرات أبو العيد، والحشرة الرواغة، والجراد، والفئران، والديدان على مختلف أشكالها، الذباب، والخنافس، والسوس، والعنكبوت، والحفار، والبق، والتربس، والهاموش، وأبو دقيق الرمان، والحشرات الثاقبة لساق التفاح.

كل هذه الحشرات وغيرها إنذارات من الله تعالى، وكأنها تنادى على الذين لا يخرجون زكاة مزروعاتهم، سوف ننقض فنهلك المزروعات لأنكم أهملتم حق الفقراء والمساكين.

وإليك عزيزى القارئ شرح مبسط لبعض هذه الحشرات المفترسة لكى تعتبر وتوصى آباءك وإخوانك المزارعين باتباع شريعة الله تجاه الفقراء والمساكين.

١ – حشرات فرس النبى:

وهى حشرات كبيرة الحجم، وأجزاء الفم قارضة للنباتات، وأرجلها متشابهة التركيب، وتتحور الرجل الأمامية لقنص وهى مسلحة بأشواك، وعقل الرأس لها القدرة على رؤية ما خلفها، ويمكنها التحرك فى عدة اتجاهات مختلفة.

٢ – حشرات أبو العيد:

وهى حشرة متعددة الأجنحة، منها حشرة عليها ١١ نقطة سواء، وأخرى عليها ٧نقط وثالثة عليها ٥ نقط - وحشرة أبو العيد سوداء، والحلقة الصدرية عليها بقعة سوداء مثلثة الشكل، وهى تفتك بالنباتات بشكل جماعى.

٣ – خنفساء الكالوسوما:

وهى حشرة طولها ٢.٥ سم لونها أسود فى صدرها الأعلى، وعلى الجوانب خطوط طولية دقيقة، ونقر صغيرة مرتبة فى صفوف طولية، وهى تفتك بالنبات.

٤ – الحشرة الرواغة:

وهذه الحشرة طولها ٨ ملليمتر، لون الرأس والنصف الخلفى من البطن أزرق لامع، وباقى الجسم برتقالى، والبطن عليها نقر كثيرة غير مرتبة فى خطوط طولية.

٥ – ذبابة السرفس:

وطولها واحد سنتيمتر، والرأس أصفر اللون، والصدر أزرق لامع مائل إلى السواد، والبطن مبطط وتوجد عليه أشرطة صفراء متبادلة مع أشرطة سوداء، وللحشرة القدرة على أن تحلق فى الجو وهى ثابتة فى مكانها.

٦ – دودة اللوز الشوكية:

واليرقة منها مقدمتها غليظة وطرفها الخلفى رفيع، والعذراء منها مكبلة داخل شرنقة من الحرير الأبيض، وتوجد بين اللوزة أو داخل الأزهار الجافة الموجودة على النبات أو تحت التربة، والدودة لها بيات شتوى لا سكون فيه ويستمر تواجدها عام كامل.

٧ – الجراد الصحراوى:

وهى حشرة كبيرة الحجم ٥.٥ سم والحلقة الصدرية الأولى كبيرة نصفها الخلفى عريض، أما الأمامى ضيق ويفصلهما اختناق، وأجزاء الفم قارض فى الحورية والحشرة الكاملة.

* * *

العلاج الدنيوى

العلاج الدنيوى: وهو ما يسميه رجال الزراعة (المقاومة) إما بالرش وإما بالتعطير، وهذا العلاج يصيبك يا أخى المزارع وتقوم به إذا كنت أهملت حق الفقراء والمساكين ولم تخرج زكاة محصولاتك فى العام الماضى، ولذلك أرسل الله إليك هذه الآفات والحشرات لكى تتعظ وتعتبر، وإليك شرح الطريقتين:

١ – الرش:

وهى من أهم الطرق المهلكة للحشرات وأكثرها شيوعا، وتوجد طريقتان للرش هما:

الرش بالحجم الكبير:

وفيها تخفف كمية المهلك الحشرى فى كمية كبيرة من الماء (٤٠٠: ٦٠٠) لتر للفدان وذلك لتغطية البناتات والأشجار تغطية كاملة بسائل الرش باستخدام موتورات ضغط عالى.

الرش بالحجم الصغير:

وفيها تخفف كمية المهلك الحشرى فى كمية قليلة من الماء (١٠٠: ٢٠٠) لتر للفدان، ويتم توزيعها على النباتات فى صورة رذاذ رقيق بواسطة رشاشات.

المواد المستخدمة فى الرش:

١- مسحوق الدبتركس، أو سائل سلفات النيوكتين، وهى تذوب فى الماء بسهولة.

٢- الملاثيون والبارثيون: يضاف إليها مواد مستحلبة تساعد على الامتزاج بالماء.

٣- الكبريت القابل للبلل: وهى مساحيق معلقة قابلة للذوبان بالماء.

٢ – التعفير:

وهى معاملة النباتات فى مساحات محددة تستخدم فيها العفارات.

والمواد المستخدمة:

١- الكبريت الناعم: وهو مسحوق غير مخفف بمادة أخرى وهو رخيص الثمن.

٢- مسحوق الـ د. د. ت المخفف ببودرة التلك، وهو مخفف بمواد غير فعالة.

٣- الكوتن دست ١٠٪ د. د. ت - و٤٠٪ كبريت ناعم - و٢٥٪ بودرة تلك - و٢٥٪ جامكسان تخلط مع بعضها مع مواد خاملة.

العلاج الربانى

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

ففى نهاية المحصول يوم الحصاد أخرج زكاة مزروعاتك إذا بلغت النصاب، والنصاب ما يأتى:

الزكاة

الزكاة: اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء، وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة، وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات، فإنها مأخوذة من الزكاة وهو النماء والطهارة والبركة، وكانت فريضة الزكاة بمكة فى أول الإسلام مطلقة، لم يحدد فيها المال الذى تجب فيه ولا مقدار ما ينفق منه، وإنما كان ذلك لشعور المسلمين وكرمهم، وفى السنة الثانية من الهجرة فرض مقدارها من كل نوع من أنواع المال، وهى أحد أركان الإسلام الخمسة وقرنت بالصلاة فى اثنين وثمانين آية فى القرآن الكريم، وقد فرضها الله تعالى بكتابه وسنة رسوله ﷺ وإجماع أمته.

يقول الله تعالى:

﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ويقول تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الذاريات: ١٥ - ٢٠].

وروى البخارى ومسلم عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضى الله عنهما) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان».**

وروى الطبرانى فى الأوسط والصغير، عن على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) أن النبى ﷺ قال: **«إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم ، بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا ، إلا بما يصنع أغنياؤهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ، ويعذبهم عذابا أليما».**

قال الطبرانى: تفرد به ثابت بن محمد الزاهد، وثابت صدوق روى عنه البخارى.

وروى أحمد والترمذى وصححه، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله عز وجل يقبل الصدقات ، ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره أو فلوه ، أو فصيله ، حتى أن اللقمة لتصير مثل جبل أحد».**

قال وكيع: وتصديق ذلك فى كتاب الله قوله:

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وروى ابن ماجه والبزار والبيهقى واللفظ له، عن ابن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قال: **«يا معشر المهاجرين خمس خصال إن ابتليتم بهن ونزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة (أى الزنا) فى قوم قط ، حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع (أى الأمراض) التى لم تكن فى**

أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين (أى الفقر) وشدة المؤونة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر (أى المطر) من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما فى أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جُعل بأسهم (أى حربهم) بينهم».

وروى أحمد بسند صحيح، عن عائشة (رضى الله عنها) أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاث أحلف عليهن: لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة: الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، ولا يتولى الله عبدا فى الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة ، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم ، والرابعة: لو حلفت عليهم رجوت أن لا آثم ، لا يستر الله عبدا فى الدنيا ، إلا ستره الله يوم القيامة».**

فضل الزكاة وثوابها

١ – حديث قدسى:

أوصى الله تعالى إلى موسى بن عمران فى الحديث القدسى: **«يا موسى ، إن من عبادى لو سألنى الجنة بحذافيرها لأعطيته ، ولو سألنى علاق سوط من الدنيا لم أعطه ، ليس ذلك من هوان له علىّ ، ولكن أريد أن أدخر له فى الآخرة من كرامتى ، وأحميه من الدنيا كما يحمى الراعى غنمه من مراعى السوء ، يا موسى ، ما ألجأت الفقراء إلى الأغنياء بأن خزائنى ضاقت ، وبأن رحمتى لم تسعهم ولكن فرضت للفقراء فى أموال الأغنياء ما يسعهم ، وأردت أن أبلوا الأغنياء كيف مسارعتهم فيما فرضت للفقراء فى أموالهم ، يا موسى ، إن فعلوا ذلك أتممت عليهم نعمتى ، وأضعفت لهم فى الدنيا للواحدة عشر أمثالها يا موسى ، كن للفقراء كنزا ، وللضعيف حصنا ، وللمستجير غيثا ، أكن لك فى الشدة صاحبا ، وفى الوحدة أنيسا ، وأكلؤك فى ليلك ونهارك».**

٢ - روى البخارى عن عدى بن حاتم (رضى الله عنه): قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فليفعل».**

٣ - عن أبى الدرداء (رضى الله عنه) مرفوعا إلى رسول الله ﷺ قال: **«ما طلعت شمس قط إلا بعثت بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين (الإنس والجن): يا أيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، فإن ما قل وكفى ، خير مما كثر وألهى ، ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا»**، صحيح الجامع للألبانى (٥٤٣).

٤ - عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أنه سمع النبى ﷺ يقول : **«إن الله عز وجل يقول: يا بن آدم: إن تعط الفضل فهو خير لك وإن تمسكه فهو شر لك ، وابدأ بمن تعول ،**

ولا يلوم الله على الكفاف واليد العليا خير من اليد السفلى»، صحيح الجامع للألبانى (٢٤٧٣).

٥ - عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء (مكان) وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية:

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢]،

قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وإن أحب أموالى إلىّ بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ : **«بخ ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين»** صحيح الجامع للألبانى (٣٩٨٢).

٦ - عن أبى هريرة (رضى الله عنه) مرفوعا إلى رسول الله ﷺ قال: **«كل سلامى من الناس عليه صدقة ، وكل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة ، ويعين الرجل على دابته فيحمله عليه ، أو يرفع عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»**، صحيح الجامع للألبانى (١٠٢٥).

٧ - وعن عقبة بن عامر (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن الصدقة لتطفئ عن أهلها حر القبور ، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة فى ظل صدقته»**، صحيح الجامع للألبانى (٣٤٨٤).

عقاب مانع الزكاة

روى البخارى ومسلم وأحمد، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«ما من صاحب كنز لا يؤدى زكاته ، إلا حمى عليه فى نار جهنم فيجعل صفائح فتكوى بها جنباه وجبهته ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وما من صاحب إبل لا يؤدى زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر ، كأوفر ما كانت تستن عليه كلما مضى عليه أخراها ، ردت عليه أولاها ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وما من صاحب غنم لا يؤدى زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر ، كأوفر ما كانت فتطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ، كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة إما إلى الجنة وإما إلى النار»**.

قالوا: فالخيل يا رسول الله، قال: **«الخيل فى نواصيها»**، أو قال: **«الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الخيل ثلاثة: هى لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر ، فأما التى هى له أجر: فالرجل يتخذها فى سبيل الله ، ويعدها له ، فلا تغيب شيئا فى بطونها**

إلا كتب الله له أجرا ، ولو رعاها فى مرج ، فما أكلت من شىء إلا كتب الله له بها أجرا ، ولو سقاها من نهر كان له بكل قطرة تغيبها فى بطونها أجر ، حتى ذكر الأجر فى أبوالها وأرواثها ، ولو استنت شرفا أو شرفين كتب له بكل خطوة يخطوها أجر ، وأما التى هى له ستر: فالرجل يتخذها تكرما وتجملا لا ينسى حق ظهورها وبطونها فى عسرها ويسرها ، وأما التى عليه وزر: فالذى يتخذها أشرا وبطرا وبذخا ، ورياء الناس ، فذلك الذى عليه الوزر».

قالوا: فالحمر يا رسول الله؟، قال: **«ما أنزل الله علىّ فيها شيئا ، إلا هذه الآية الجامعة:** ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ (٨) ﴾

[الزلزلة: ٧ - ٨]**»**.

نصاب الزكاة

ويشترط فى النصاب الآتى:

١- أن يكون النصاب فاضلا عن الحاجات الضرورية، التى لا غنى عنها كالمطعم والمشرب والملبس والمركب وآلات الحرفة.

٢- أن يحول عليه الحول الهجرى، ويعتبر ابتداؤه من يوم ملك النصاب، ولابد من كماله فى الحول كله، فلو نقص أثناء الحول ثم كمل، اعتبر ابتداء الحول من يوم كماله.

٣- يستثنى كمال الحول فى زكاة الزروع والثمار لأنها تجب يوم الحصاد، قال الله تعالى: ﴿ (١٤٠) ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١) ﴾ [الأنعام: ١٤٠ - ١٤١].

زكاة الإبل:

يشترط فى زكاة الإبل (الجمال) أن تبلغ النصاب، وأن يحول عليها الحول الهجرى، وأن تكون سائمة (أى راعية) من الكلأ المباح.

فإذا بلغت خمسة جمال فزكاتها شاة (أى جذع من الضـأن) وهو ما أتـى عليـه أكثر من سنة.

فإذا بلغت عشرة جمال فزكاتها شاتان، وكلما زادت خمسا زادت زكاتها شاة.

زكاة البقر والجاموس:

إذا بلغ عدد البقر ثلاثين بقرة فزكاتها عجل (تبيع أو تبيعة) وهو ما كـان عمره سنة ودخل فى الثانية.

وإذا بلغ عدد البقر أربعين بقرة فزكاتها مسنة وهى العجلة عمرها سنتان ودخلت فى السنة الثالثة.

وإذا بلغ عدد البقر ٦٠ بقرة فزكاتها تبيعان أى عجلان.

زكاة الأغنام:

إذا بلغ عدد الأغنام ٤٠ رأس غنم فزكاتها شاة حتى عدد ١٢٠ رأس غنم.

وإذا بلغ عدد الأغنام ١٢١ رأس غنم فزكاتها شاتان حتى عدد ٢٠٠ رأس.

وإذا بلغ عدد ٢٠١ رأس فزكاتها ثلاث شياه حتى عدد ٣٠٠ رأس.

فإذا زادت عن ٣٠٠ ففى كل مائة شاة، ويجوز إخراج الزكـاة من الـذكور والإنـاث من الأغنام.

نصاب زكاة الزروع

٥٠ كيلـة نصـاب الحنطـة (القمح) والشـعير والـذرة والتمـر والزبيـب وكـل الحبـوب المشابهة التى تكال، وكل ما تنتجه الأرض من الحبوب كالفول واللوبيا والفاصوليا.

ما يعادل ٥٠ كيلة فى الفواكه والثمار والخضراوات، كالبرتقال واليوسفى والليمون واللارنج والتفاح والرمان والنخيل والكرنب والقنبيط والبطيخ والشمام والعجور ويخـرج الإنسان هذه الزكاة يوم حصادها وعند تمام بيعها.

ما يعادل ٥٠ كيلة فى القطنيات والكتان والمزروعات التى توزن بالميزان.

حيث يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ويقول أيضا:

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

الأرض المؤجرة:

زارع الأرض المؤجرة عليه زكاة الزروع إذا بلغت النصاب ٥٠ كيلة ويحسب المصروفات مع العلم بأن نسبة زكاة الزروع ٥٪ نصف العشر.

مثال:

رجل أجر فدانا من الأرض بمبلغ ١٢٠٠جنيه فى السنة، وصرف فى الرى والسماد والخدمة ٣٠٠ جنيه، ودفع ثمن الحصاد ٢٠٠ جنيه، وكان الناتج ٥٠٠ كيلة وثمن الكيلة ١٠ جنيه.

فيكون ثمن المحصول كله = ٥٠٠ × ١٠ = ٥٠٠٠ جنيه.

والمصروفات والإيجار = ١٢٠٠ + ٣٠٠ + ٢٠٠٠ = ١٧٠٠ جنيه.

صافى المحصول = ٥٠٠٠ - ١٧٠٠ = ٣٣٠٠ حنيه.

المبلغ الباقى بعد النصاب = ٣٣٠٠ - ٥٠٠ (٥٠ كيلة × ١٠ثمن الكيلة) = ٢٨٠٠ جنيه.

مقدار زكاة الأرض = ٢٨٠٠ × ٥ / ١٠٠ = ١٤٠ جنيه يدفعها للفقراء والمساكين.

نصاب زكاة الذهب

إذا بلـغ وزن الـذهب عنـد الإنسـان ٢٠ مثقـالا أى ٨٤ جرامـا تقريبـا، فيقـوّم الـذهب بالجنيهـات أى نضـرب وزن الـذهب الموجـود لـدينا فـى سـعر الجـرام الآن، فينـتج ثمـن الذهب كله الموجود لدينا، ثم نطرح منـه ثمن ٨٤ جرام (وهو النصـاب) فيكون المبلـغ الصافى لدينا فنضربه فى ٢.٥٪ أى ربع العشر فينتج المبلـغ الذى يساوى زكـاة الـذهب فنعطيه للفقراء والمساكين.

حلى المرأة:

اختلف العلماء فى زكاة حلى النساء، واختلفوا فى مقدار ذهب الزينـة، والحق نقول والله أعلم:

فلقد روى أحمد وإسناده حسن عن أسماء بنت يزيد (رضـى الله عنـها) قالـت: (دخلـت أنا وخـالتى علـى النبـى ﷺ وعلينـا أسورة من ذهـب، فقـال لنـا: «**أتعطيان زكاته**»، قالـت: فقلنا: لا، قال: «**أما تخافان أن يسوركما الله إسورة من نار أدّيا زكاته**».

فزكـاة حلـى النسـاء سـواء كـان كثيـرا أو قلـيلا عليـه زكـاة ٢.٥٪ ربـع العشـر، لأن الرسول ﷺ لم يكن معه ميزان حساس، ليقدر مقدار ذهب ما مع أسماء وخالتها.

زكاة الفضة:

وأمـا الـورق (أى الفضـة) فـلا زكـاة فيهـا حتـى يبلـغ ٢٠٠ درهـم أى ٦٢٥ جرامـا، ونستخدم الطريقة التى اتبعناها فى الذهب، لإخراج مقدار الفضة التى تؤدى الزكـاة عنهـا وندفع زكاة الفضة سواء كانت قليلة أو كثيرة.

فلقد روى أبـو داود، والـدارقطنى، والبيهقـى، عـن عائشـة (رضـى الله عنـها) قالـت: دخل علىّ رسول الله ﷺ فرأى فى يدى فتخات (خواتم) من ورق (فضـة) فقـال لـى: «**ما هذا يا عائشة**» فقلت: صنعتهن أتزين لك يا رسول الله، فقـال: «**أتؤدين زكـاتهن**»، فقلـت: لا، أو ما شاء الله، قال: «**هو حسبك من النار**».

زكاة عروض التجارة:

عروض التجارة: البيع والشراء بقصد الربح، كتجارة الثياب والأقمشة، وأدوات الكهرباء والسباكة، ومواد البناء والخشب وغير ذلك.

وتقوم عروض التجارة والنصاب فيها كنصاب الذهب (٨٤ جرام × ثمن الجرام ١٠٠ جنيه) ٨٤٠٠ جنيه بالقياس، وتحسب عروض التجارة كالآتى:

نحسب ثمن شراء البضاعة + النقود بالخزينة +إيداعات البنك = المبلغ كله.

نطرح منه ٨٤٠٠ جنيه وهو النصاب، فينتج المبلغ الصافى فنضربه فى ٢.٥ ربع العشر فينتج المبلغ المفروض توزيعه على الفقراء والمساكين.

الأموال النامية:

الأموال النامية: هى المشروعات والآلات التى تدر ربحا يوميا أو سنويا مع ثبات قيمة رأس المال، كالسيارات التى تستخدم للغير، والجرارات الزراعية التى تستخدم للغير، والعمارات التى يسكنها الغير ويدفع إيجارا للمالك، والمطاحن وآلات الرى المستخدمة للغير.

ونسبة زكاة الأموال النامية ٥٪ أى نصف العشر مثل نسبة المزروعات، وتحسب كالآتى:

رجل يملك سيارة للغير وتدر دخلا شهريا ٢٠٠٠ جنيه فيكون الدخل سنويا ٢٠٠٠× ١٢ = ٢٤٠٠٠ جنيه.

ويقوم بتموينها وخدمتها فى السنة بمبلغ ٢٠٠٠.

فيكون صافى الدخل فى السنة = ٢٤٠٠٠ - ٢٠٠٠ = ٢٢٠٠٠ جنيه.

فيكون المبلغ الواجب للزكاة = ٢٢٠٠٠ × ٥ /١٠٠ = ١١٠٠ جنيه للفقراء والمساكين.

وهذه اجتهادات والله أعلم.

مصارف الزكاة

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾ [التوبة: ٦٠].

تصرف الزكاة (الصدقات) للفئات الآتية:

١- الفقير: وهو الذى لا مال لـه ولا كسب، أو يملك من المال أقل من كفايتـه، ومن الفقراء أصحاب الحرف، وأصحاب المرتبات الثابتة التى لا تزيد إلا بالقليل، فإذا كان دخلهم لا يكفيهم فتجوز الزكاة لهم.

٢- المسكين: وهو الذى يملك المال ومصروفاته الضرورية أكثر من دخله كأن يكون لـه أولاد بالمدارس والكليات ولا يقدر على متطلباتهم.

٣- العاملون على الزكاة: وهم المتفرغون من قبل الإمام لجمع الصدقات والموزعون لها، مثل الساعى والكاتب والحارس.

٤- المؤلفة قلوبهم: وهم الذين دخلوا فى الإسلام حديثا ولا يقدرون على المال ليكفيهم فيعطون من الزكاة تحببا لهم فى الإسلام وحتى تتمكن قلوبهم بالإيمان.

٥- الرقاب: وهم الأرقاء من العبيد المسلمين، والحمد لله انتهى الرق فى المسلمين.

٦- الغارمون: وهم المدينون الذين لا يملكون سداد الديون التى عليهم.

٧- وفى سبيل الله: وهم المجاهدون المتطوعون لنصرة الإسلام، ولا مرتبات لهم من الدولة.

٨- وابن السبيل: وهو الغريب المنقطع عن ماله، ويريد المال لتوصيله إلى بلده، ويشترط أن يكون سفره فى طاعة وفى غير معصية.

* * *

الفصل الثانى
الزلازل وشرعيتها من عذاب الدنيا

يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ ﴾ [الحج: ١ - ٢].

ويقول أيضا عز وجل:

﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨ ﴾ [الزلزلة: ١ - ٨].

فالزلازل والبراكين والخسوف والكسوف وسائر التغيرات فى الكون من آيات الله رب العالمين، وهذه الزلزلة إذا وقعت فزع لها الناس وهرعوا إلى الشوارع وتعالت الصيحات، وانبعثت الأصوات والاستغاثات ووقع الفزع الأكبر، وتحدثت الإذاعات ونشرت الصحف، وتحدث المحللون، فلما تزايد هول الزلازل خرج الناس إلى الصحارى، وهرب الناس من محلاتهم وتركوها مفتحة، وخرجت النساء من بيوتهن مسيبات، وظن الناس أنها يوم القيامة، وسقطت أماكن كثيرة على الناس، وهلكوا تحت الردم.

والزلالزل من الآيات التى يخوف الله بها عباده، كما يخوفهم بالكسوف وغيره من الآيات، والحوادث لها أسباب وحِكم، فكونها آية يخوف الله بها عباده هى من حكمة ذلك، أما أسبابه فانضغاط البخار فى جوف الأرض، كما ينضغط الريح والماء فى المكان الضيق، فإذا انضغط طلب مخرجا، فيشق ويزلزل ما هرب منه من الأرض.

أما قول بعض الناس: إن الثور يحرك رأسه، فيحرك الأرض، فهذا جهل وإن نقل عن بعض الناس - وبطلانه ظاهر، فإن لو كان كذلك لكانت الأرض كلها تزلزل وليس

الأمر كذلك.

ويقولون فى الموسوعة الثقافية: الزلازل هى هزة أو رجعة تنتاب سطح الأرض نتيجة توتر فى بعض أجزاء القشرة الأرضية بسبب حدوث صدع فى الصخور، أو نتيجة ثوران البراكين.

فإن كان الخوف والفزع الذى نراه فى زلزال حدث من مثل هذه الواقعة الهينة، فكيف يكون يوم القيامة وقد قال سبحانه وتعالى:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) ﴾ [الواقعة: ١ - ٦].

ويقول سبحانه:

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ [الطور: ٩ - ١٦].

فيا أيها المسلمون، إن الزلازل من آيات الله، مذكرات بقدرته، لعل الظالم أن يرجع عن ظلمه، والعاصى عن معصيته، والبخيل عن بخله، فيتطلع الناس إلى يوم الفناء، ثم البعث بعده، والوقوف بين يدى الله رب العالمين.

فهذه الآية السابقة قوية فى دلالاتها، لكن لعلنا نتعظ ونرجع إلى ربنا.

هذا بيان للناس

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، وبعد، فقد وقع فى معظم أنحاء مصر فى الساعة الثالثة عشر دقائق من بعد ظهر يوم الاثنين الموافق ١٥ ربيع الثانى سنة ١٤١٣ هجرية وقع زلزال عنيف مخوف، تحدثت عنه الدنيا بأسرها، وطار ذكره إلى الآفاق، واستمر خمسين ثانية فقط، وأحدث خسائر هائلة وقتلا وتشريدا

وإصابات، كما أحدث ذهولا واضطرابا وتحيرا وارتباكا، وتحدث عنه المتحدثون وكتب عنه الكاتبون، ووصفه الواصفون، وغفل عن الاعتبار والتدبر الغافلون.

ونسى كثير من الناس أن الزلزال آية من آيات الله الكونية التى يمر عليها كثير منهم وهم غافلون، وأن هذه الآية يخوف الله بها عباده حتى يعودوا إليه، كما فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٩].

فالزلزال الذى أرسله الله على مصر، تخويف للحكام والمحكومين على سواء، وإنذار للوزراء ومن دون الوزراء، فالكل خائف من الله تائب إليه راجع منيب.

ومع هذا فقد غفلت وسائل الإعلام هذه الجوانب الإيمانية، فسأل الصحفيون خبراء الأرصاد الجوية ولم يسألوا شيخ الأزهر، ولم يصدر تصريح واحد يدعو الناس إلى الدعاء والتضرع، وقد حدثنا الله فى القرآن الكريم عن الأمم التى كانت قبلنا، وكيف أنهم مع كفرهم، إذا رأوا عذاب الله اعترفوا بذنوبهم وظلمهم، حيث قال عز وجل فى علاه:

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٥].

ولقد حكى الله لنا فى القرآن الكريم عن قوم جاءهم عذاب الله، فلم يتأثروا به ولم يتوبوا إليه، واستمروا على ضلالهم وأقاموا على فسقهم حيث قال الله تعالى:

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٣].

فضاعف الله لهم العذاب وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

الزلازل فى القرآن الكريم

إن الله تعالى يحدثنا فى القرآن الكريم عن الزلازل، بل وخصص سورة بهذا الاسم وهى سورة الزلزلة، والعجيب فى هذا الكتاب المعجز أنه يصف لنا حالنا مع الزلازل

وكأن القرآن لم ينزل إلا فى يوم وقوعها.

اقرأ وتدبر قول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة: ١] ومعناه: إذا تحركت الأرض حركة شديدة واهتزت اهتزازا عنيفا وهذا نفس ما وقع فى الزلزال.

ثم اقرأ وتدبر ما يقع عند حدوث الزلزال: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ [الزلزلة: ٣] وقال ذلك بالواقع الذى حدث، لقد خرج الناس إلى الشوارع يقولون: ما بال الأرض ما الذى حدث، ما لها، وجاءت التصريحات تقول: تشققات فى القشرة الأرضية والمؤمنون يرتلون بإيمان ويقين قوله تعالى:

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: ٥] أى أن الزلزال وحى من الله العليم الحكيم، يصيب به من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، ولا يعنى ذلك ردا لما يقوله العلم الحديث، وإنما ينبغى أن نفهم الآيات الكونية على حقيقتها وأن تدرك حكمة الله فى إرسالها وإحداثها.

وفى أول سورة الحج حديث عن الزلزال الأعظم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١ - ٢].

فالزلزال الذى حدث بالأمس القريب كانت كل مرضعة تفزع إلى رضيعها، وأما زلزلة الساعة فتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وزلزال الأمس كان الناس فيه حيارى، وفى زلزلة الساعة يكون الناس سكارى، قد ذهبت عقولهم من شدة الخوف، كما تذهب عقول السكارى بفعل الشراب.

وانظر إلى الناس وهم يتدافعون من البيوت إلى الشوارع خوفا وهلعا من الزلزال، ولسان حالهم يقول: أين المفر؟

ولقد كانت مدة الزلزال خمسين ثانية فقط، وأحدث من الخسائر والجروح والقتل ما لا يخفى علمه على أحد، فإذا أردت بيان ذلك ففى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القمر: ٥٠].

ولقد حذرنا الحق سبحانه وتعالى من هذه العقوبة وأمثالها وأضعافها قبل أن يرسلها علينا، تدبر ذلك فى قوله تعالى:

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الملك: ١٦].

ولقد جاء الزلزال فوجدنا نلهو ونلعب فى غفلة شديدة، قد أحاطت بنا ذنوبنا، والحق يحذرنا فى الآيات الآتية:

﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٨].

ويقول جل وعلا:

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النحل: ٤٥].

ونعود إلى سورة الحج فنتعلم أن التقوى هى خير وقاية من الزلازل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ ﴾ [الحج: ١] ومعناه: عليكم بالتقوى لأن أمامكم زلزالا عظيما، ومع ذلك يوجد بيننا من يزيده الزلزال طغيانا.

ماذا يقول الزلزال لو تكلم:

إن الزلزال لو تكلم، وما ذلك على الله بعزيز، فإنه يقول لنا:

١- عودوا إلى الله، فقد طال عليكم الأمد.

٢- واحتكموا إلى شريعته، ولا تكونوا من الخاسرين.

٣- وتوبوا إلى الله، قبل أن يأتى يوم لا مرد لـه من الله.

٤- ولا تأكلوا الربا، فإنه من أقوى أسباب الزلازل والبراكين.

٥- واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، (نعوذ بالله بالخسف والزلازل والمحن والفتن).

الزلازل... والعلم الحديث

عندما نصف شيئا بالصلابة والثبات نقول أنه جامد كالصخر، ولكننا نجد فى (الجيولوجيا) وهو علم الأرض المتخصص: أن الصخور والجبال وكل شىء على سطح الأرض هو أبعد ما يكون عن الثبات.

فالصخور الصلدة التى تبذل الجهد فى تحطيمها أو تحريكها، والجبال الرواسى التى تأخذنا بضخامتها وعلوها: لو أمعنا الفكر قليلا فى طبيعتها لوجدنا أنها ملامح مؤقتة لقشرة الأرض التى تتغير وتتبدل مع مرور الزمن.

فالصخور تتفتت وتنهار، والجبال تقوم وتتشكل ثم تتلاشى وكأنها السحاب.

اقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل: ٨٨].

كل هذا التغير مع الزمن، نجد أن عوامله تستمد من الهواء بما فيه من الأكسجين وثانى أكسيد الكربون وبخار الماء، ومن الحرارة والبرودة التى تتناوب الليل والنهار والصيف والشتاء، وأيضا من الأمطار والجليد، وأحيانا الرمال التى تذروها الرياح، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

هذه العمليات ذات أصل خارجى، وتسمى كل هذه المؤثرات الطبيعية فى علم الجيولوجيا بالعوامل الخارجية، والتى تسبب الحركات الأرضية البطيئة، ولا يلاحظها الإنسان فى حياته، ولكن يمكن مشاهدة أثرها، فهى المسؤولة عن بناء الجبال، ورفع

وخفض القارات، وفى غالب الأحوال نرى أن معظم الصخور مصدعة ومجعدة، وكأنما وضعت بين فكى منجلة كونية جبارة.

إنها الحركات الأرضية التى تعبر بنشاطها هذا، عما فى باطن الأرض من اضطراب وطاقة ضخمة مخزونة، والتى نلمس آثارها الخاطفة بين الحين والحين على هيئة الزلازل والبراكين، وتسمى هذه العمليات بالعوامل الداخلية أو الحركات الأرضية السريعة، وهى تتم فى وقت قصير جدا، ويمكن أن يشعر بها الإنسان ويلمس أثرها السريع.

وهى تستمد الطاقة اللازمة لحدوثها من الحرارة المنطلقة فى باطن الأرض، حيث أن الأرض تتكون فى شكلها البيضاوى من طبقات متتالية عبارة عن القشرة الأرضية، والتى تتكون غالبا من الطبقات الرسوبية وعمقها حوالى عشرة كيلو مترات، ثم طبقات أخرى تزداد كثافتها إلى أسفل، وتصل إلى عمق ٢٩ كيلو متراً، ثم يلى ذلك لب الأرض وهو يبدأ من حوالى عمق ٣٥ كيلو متراً وحتى مركز الأرض وهو مكون من خليط من الحديد، ونسبة من النيكل فى حالة مصهورة ذات كثافة عالية ولهيب شديد الحرارة والضغط.

وهذا يوضح مدى هول ما تحويه الأرض فى باطنها، ونجد هذا واضحا فى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٧].

وتنشأ الزلازل نتيجة لحدوث كسر (صدع) فى الصخور الأرضية، وانزلاق للصخور على سطح هذا الكسر، أو حركة أرضية على كسر قديم غير ظاهر، وينتج عن هذه الحركة الأرضية ذبذبات فى صورة موجات تنتشر فى جميع الاتجاهات خلال القشرة الأرضية منبعثة من مصدر الاضطراب.

وبالنسبة لما حدث فى مصر، فإن مصدر أو مركز الزلزال كان فى شمال شرق بحيرة قارون، ومنطقة الفيوم هذه بها صدوع نتيجة بعض الحركات الأرضية منذ عشرين مليون عام، والحركة الأرضية الجديدة على هذه الكسور(الصدوع) القديمة

جاءت بسبب زيادة وزن الرسوب السطحية، التى تكونت فى العصور الحديثة منذ عشرة آلاف عام، مما أدى إلى عدم توازن فى القشرة الأرضية ومحاولة تفريغ الطاقة المخزونة داخل باطن الأرض، واستعادة توازنها من جديد.

لأن زيادة الضغوط فى أى منطقة يحدث ثنى فى الصخور فتهبط لأسفل ويعقبه شد وجذب، مما ينتج عنه شروخ فى الصخور بعد زيادة معينة لهذه الضغوط، وهذا يفسر فى علم الأرض بنظرية التوازن الثابت أو (الأيزوستاتيكى) للقشرة الأرضية، وهى تقول أن قشرة الأرض فى الأحوال العادية تكون فى حالة توازن فى جميع أرجائها.

أى أن حالة البناء موازية لحالات الهدم، وفى الحقيقة أن عملية البناء أو استعادة التوازن لا تتم بنفس السرعة التى تسير بها عمليات التآكل والتعرية، وهذا هو السبب فى وجود مناطق كثيرة من العالم فى حالة عدم توازن لمدة طويلة تبدأ بعدها عملية استعادة التوازن فى بطء.

ونجد القرآن الكريم يخاطبنا فيه ربنا منذ ١٤٠٠ عام فى آية واضحة جلية حيث يقول: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥].

وهذا الآن ما يعرف باسم (قانون التوازن) حيث أن المادة الأقل وزنا ارتفعت على سطح الأرض فى حين بقيت أماكن المادة الثقيلة منخفضات هاوية، وهى التى تراها فى أشكال البحار، وهكذا نجد أن الارتفاع والانخفاض استطاعا أن يحافظا على توازن الأرض.

وعند حدوث أى زلزال يكون الاضطراب أقوى ما يمكن فى المنطقة التى تقع فوق مركز الزلزال أو بؤرته، وهى المنطقة التى يقع فها معظم التخريب والتدمير وتتناقص شدة الهزة بسرعة خارج هذه المنطقة، لذا نجد أن أكثر المناطق تخريبا كانت فى مدينة القاهرة، لأنها بالقرب من مركز الزلزال، وأن تأثير الزلزال يتلاشى أو يقل، كلما بعدنا عن المركز.

وقبل حدوث أى زلزال تحدث بعض الارتعاشات الضعيفة نسبيا، ثم يحدث الزلزال القوى ثم يتبعه بعض الارتعاشات الضعيفة التى لا يشعر بها الإنسان، ولكن تسجلها الأجهزة فقط.

ونعتقد أن الزيادة فى نسبة تسجيل الزلازل على مستوى العالم ومصر، قد زادت نسبتها فعلا، لكن هذا يعود إلى التوصل إلى أجهزة أدق فى معرفة وقياس درجات الزلازل مهما كانت ضعيفة.

ويمكن تقسيم المنطقة المحيطة بمنطقة فوق المركز إلى أحزمة ونطاقات متتالية بواسطة خطوط منحنية يوصل كل خط منها بين جميع النقط ذات الشدة الزلزلية الواحدة، وتسمى هذه الخطوط (بخطوط الزلزلة المتساوية).

وللأسف إلى الآن لا يمكن لأى جهاز أن يتنبأ بحدوث زلزال بشكل قاطع رغم تقدم الأجهزة العلمية والأبحاث فى اليابان والولايات المتحدة الأمريكية، وهما أكبر دولتين تتعرضان للزلازل.

والزلازل عملية شائعة الحدوث جدا، لدرجة أن المراصد الآن فى أنحاء العالم المختلفة من الأرض تسجل آلافا منها فى كل عام، ولكن معظم هذه الزلازل ليست إلا هزات أرضية بسيطة، وعلى سبيل المثال: إن مصر يحدث فيها يوميا العديد من الزلازل وتسجل، لكن لا يشعر بها الإنسان لأنها زلازل ضعيفة، وتكون حوالى ٢ درجة بمقياس ريختر، وللعلم أن زيادة درجة واحدة فى مقياس ريختر لا يعنى أن الزلزال زاد درجة واحدة وإنما يزيد ٣٠ ضعف للدرجة السابقة.

وشدة وعنف أى زلزال تبدأ من حجم ٦ درجات، وأيضا الزمن الذى يحدث فيه الزلزال عامل آخر يؤثر فى حجم التدمير، بالإضافة إلى بعد المسافة من مركز الزلزال.

وهناك عامل آخر مهم، وهو نوعية الطبقات الأرضية والصخور التى أنشئت عليها المبانى لأن هناك طبقات صخرية ورواسب جيدة التوصيل للهزات الأرضية، وأخرى

رديئة التوصيل، أى تستطيع أن تمتص أثر هذه الهزة.

لذا يعتقد أن عدم حدوث خسائر كبيرة فى المنشآت الموجودة بالقاهرة القديمة، يعود إلى أن مبانيها بنيت على طبقة من الطفلة والرمال التى تمتص الهزات الزلزالية، وأن معظم المبانى التى تهدمت غالب الظن أنها متهالكة أو أن عمرها الافتراضى قد انتهى.

والله سبحانه وتعالى يذكرنا ويدعونا فى القرآن الكريم أن نتدبر الخلق ونتدبر الكون، والله سبحانه وتعالى هو الخالق وهو العالم، ويعرف دقة ما خلق، ولذلك يقول: تدبروا فى الكون وانظروا فيه ستجدون آياتى وإعجاز خلقى وقدرتى، فهو يقول:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فعلينا أن نستعد ليوم القيامة، وما فيه من أهوال لا تقاس ولا تقارن بما نراه على الأرض من أهوال أو متاعب، والله على كل شىء قدير.

التخويف والعظات بالزلازل

لقد روى البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«لا تقوم الساعة حتى تكثر الزلازل...»**.

إن الزلازل فى الدنيا تذكرنا يوم القيامة يوم الزلزلة الكبرى. والزلزال آية باهرة تدل على قدرة الله فى الكون وعظمته وتدل على وحدانيته.

يرسلها الله للكافرين غضبا وانتقاما، كما أهلك مدين وثمود ويرسلها الله للمؤمنين عذابا وتطهيرا لهم فى الدنيا، وقد تكون ابتلاء.

ومن الواجب علينا أن نجيب عن تساؤلات لاسيما وقد رأينا من يتكلم فى هذه الآيات بغير علم ضاربا بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية عرض الحائط، ورأينا من يستشيط غضبا إذا رأى من يذكر الناس بهذه الآيات ويطلب منهم الرجوع إلى الله تعالى.

ومن هنا كانت الحاجة الملحة إلى طرح خمس نقاط وشرحها فى ضوء الكتاب والسنة، سائلين المولى عز وجل التوفيق والسداد فى شروحها وهى:

١- ماذا تعرف عن الزلازل، وهل يتناقض التفسير العلمى لها مع الدين.

٢- من أشراط الساعة: كثرة الزلازل.

٣- هل الزلازل فى الدنيا غضب من الله تعالى.

٤- ما كانت الزلازل إلا عن شىء أحدثتموه.

٥- فقه الزلازل، وما يستحب عند حدوثها.

وإليك عزيزى القارئ ويا زميلى الباحث، ويا رفيق الدعوة ويا طالب العلم فى كل زمان ومكان: إليك ما أفاض الله به علىّ.

هل يتناقض التفسير العلمى للزلازل مع الدين

حقيقة الزلازل: هى هزات أرضية فى القشرة الأرضية سريعة قصيرة المدى، وتحدث فى فترات متقطعة وهى إما أن تكون ضعيفة لا يشعر بها الإنسان أو تكون قوية مدمرة.

وقيل: هى كسر هائل يحدث فى القشرة الأرضية فى المناطق القريبة من الجبال والمحيطات، ويستمر الكسر المفاجئ عدة ثوان يكفى لتدمير ما فوقها.

وقيل: هى ذبذبات تنشأ عن تصدع الصخور على سطح الأرض وعلى أعماق كبيرة فى داخلها.

أنواع الزلازل

تبين المراصد ثلاثة أنواع من الهزات التى تحدث فى القشرة الأرضية وهى:

١- هزة أفقية: وهى الهزات الزلزالية الشائعة، وإن اشتدت تسقط المبانى والعمران.

٢- هزات رأسية: من أسفل إلى أعلى، وهى تقذف بالصخور والمبانى فى الهواء.

٣- هزات دائرية: وهى نادرة وخطيرة لأنها تجعل المنشآت تدور حول محورها ثم تسقط.

طبيعة الزلازل

١- لكل زلزال مركز داخلى تنبعث منه الهزات الضعيفة والعنيفة كموجات تتناقص شدتها بالبعد عنها، وقد يكون الاهتزاز ضعيفا فتشعر به آلة رصد الزلازل فقط، وقد يكون الاهتزاز شديدا، فتهتز الأرض فى جهات تبعد عشرات أو مئات الكيلو مترات، وقد ثبت أن هزة بطول خمسة أو ستة ملليمترات تحدث أضرارا كثيرة كهدم المبانى وقتل الأنفس.

٢- لكل زلزال مركز سطحى، فوق المركز الداخلى تماما، وتكون فيه أشد الهزات وقد يكون المركز الداخلى بعيدا بمقدار خمسة أو عشرة كيلو مترات، وقد يكون قريبا من سطح الأرض كأغلب الزلازل البركانية.

درجات الزلازل

للزلازل ١٢ درجة:

زلزال الدرجة الأولى: وهو الذى يشعر به جهاز رصد الزلازل وحده ولا يحس به أحد.

زلزال الدرجة الثانية: يشعر به الإنسان وهو فى حالة سكون تام ومستيقظ ويحس به ساكنو الأدوار العليا.

والنوع الثالث والرابع: يحس به بعض الناس ومن الصعب أن يحس به أحد أثناء العمل أو الحركة.

النوع الخامس والسادس: هو بداية الزلازل المخربة، ويوقظ الناس من النوم، ويحدث فزعا ويحس به الإنسان إذا كان راكبا قطارا أو فى مصعد أو مستقلا سيارة.

النوع السابع: وهو من الزلازل المخربة الشديدة، ويشترك معه الزلازل من الدرجتين الثامنة والتاسعة ولكن بنسب متفاوتة.

أما النوع العاشر والحادى عشر والثانى عشر: فيسميه رجال أبحاث الزلازل بأنه

زلزال عالمى مدمر، وتسجله كل مراصد العالم مهما كان مركز حدوثه.

آلة تسجيل الزلازل:

توجد الآن آلات تمكننا من الإحساس بأضعف الهزات الأرضية وتسجيلها، وتسمى هذه الآلات بآلات (تسجيل الزلازل أو رصدها) أو آلات (السيزموجراف) وقد اشتق هذا الاسم من كلمة (سيزمو) ومعناها باليونانية (الزلزال).

ويطلق على العلماء الذين يستخدمون هذه الآلات ويدرسون الزلازل (السيزمولوجيون) ومعناها: علماء الزلازل.

وهذه الأجهزة تتكون من إسطوانات أو أشباه ذلك، تدور مع ساعات متصلة بها، وعليها الورق يكسوها، فهو دوار كذلك، ويأتى قلم طرف منه مربوط بالأرض يسجل هزاتها وطرفه الآخر على هذا الورق الدوار يخط، وهو يخط خطا مستقيما حين لا تهتز الأرض وهو يخط خطا متذبذبا وفقا للهزة الأرضية عندما تقع.

إنه جهاز يرسم هزات الأرض على الورق، فيصف لنا نوعها رسما وهو جهاز يرسم هذه الهزات، والورق يدور مع الساعة، فهو يسجل فى أى دقيقة بدأت وفى أى ثانية ومتى انتهت.

وتتعاون محطتان للرصد أو أكثر على سطح الأرض ومن اتجاهاتها المرصودة عندهم، يعين العلماء موقع الزلزلة بأكثر ما يمكن من ضبط.

التنبؤ بالزلازل:

لم يصل العلم بعد إلى وسيلة للتنبؤ بالزلازل، فتنذر الناس بقرب وقوعها حتى يمكن تجنب الخسائر فى الأرواح، وإذا كان العلم قد وصل إلى التنبؤ بحدوث بعض الظواهر الكونية مثل كسوف الشمس وخسوف القمر، طبقا للدراسات والحسابات العلمية فإن هذا الأمر لم يتوفر لهم بعد فى الزلازل.

يقول (فردريك. هـ. بو) عالم الجولوجيا الأمريكى: من الحكمة أن نتخذ الاستعدادات لمواجهة الزلازل، بدلا من أن نقول: إنها لا يمكن أن تقع لدينا، ونحن لا يمكننا أن ننتظر حتى يتنبأ لنا العلماء بالزلازل، وسوف ينقضى وقت طويل قبل أن يتمكن أحد من التنبؤ بوقوع أحدها.

لقد حقق التنبؤ بحدوث البراكين كثيراً من السبق، إذا ما قورن بالتنبؤ بوقوع الزلازل.

ويقول خبير الزلازل الأمريكى (والتر هايز): إنه لا يمكن حتى الآن التكهن بوقت وحجم ومكان زلزال وشيك الحدوث.

ويقول الدكتور (فاروق الباز): إن التوقعات والتنبؤ بالزلازل ما زال من الناحية العلمية بسيطا جدا، ولا نستطيع أن نتنبأ بوقوع الزلازل ١٠٠٪ ونحمى الناس منه، وما زال العلم فى هذا المجال لا يسمح بذلك.

أشهر ما وقع من الزلازل

١- زلزال وقع سنة ١٥٥٦ فى بلدة شنسى بالصين فى ٢٤ يناير وبلغ عدد ضحاياه ٨٠٠ ألف قتيل.

٢- ومثله وقع فى عام ١٨٨٦ فى شارلستون بكارولينا الجنوبية بأمريكا، ويعتبر من أكبر الزلازل التى حدثت فى العالم، إذ غطى مساحة مليونين و ٨٠٠ ألف ميل مربع، وكان تأثيرها ظاهرا على طول المسافة بين كندا وخليج المكسيك.

٣- ومثله زلزال مسينا بجنوب إيطاليا (صقلية) سنة ١٩٠٨ أطاح بحياة خمسين ألف شخص.

٤- وفى ١٩٢٠ ميلادية قتل الزلزال ١٠٠ ألف شخص فى الصين.

٥- وبلغ عدد الموتى فى الزلزال الذى أصاب طوكيو ويوكاهاما فى اليابان سنة ١٩٢٣ ١٥٠ ألف شخص.

٦- وفى عام ١٩٣٩ دفن تحت أنقاض إحدى المدن التركية ٤٠ ألف شخص وفى عام ١٩٥٣ مات آلاف آخرون فى نفس المنطقة بتركيا.

أسباب الزلازل

يقول الدكتور أحمد زكى: إن الزلزلة سببها توتر يحدث فى طبقات الأرض فإذا هو زاد عن الحد فرج عن نفسه، بأن حطم هذه الطبقات فتتصدع وتنشق ويحدث هذا فى سائر الطبقات هزات تجرى فيها موجات من حركة تخرج من حيث وقعت الواقعة إلى سائر بقاع الأرض تسير فى كل وجهة وكل مذهب، كما يسير الموج فى الماء تقذف فيه بالحجر.

الحكمة من الزلازل

هذا كلام نفيس لشيخ الإسلام (ابن تيمية) وتلميذه العلامة (ابن القيم) فى أسباب الزلازل العلمية، وأن هذا لا يتناقض مع الحكمة منها:

١- قد يظن البعض أن هناك تعارضا بين أسباب الظواهر الكونية وبين الحكمة من ورائها، فحينما تحدث ظاهرة كونية مثل الزلازل ونجد تفسيرات أهل الاختصاص بعلوم الأرض فى جميع بقاع الدنيا وتحليلهم وآرائهم فى أسباب هذه الظاهرة، فليس معنى هذا أنه لا توجد حكمة لهذه الظاهرة، لأن هذه الآيات أو الظواهر الكونية حوادث والحوادث لها أسباب وحكم.

٢- فالكلام عن أسباب هذه الحوادث العلمية مجاله أهل الاختصاص فإن مدار احتجاجهم على التجربة والقياس.

أما الكلام عن الحكمة من هذه الآيات الكونية كالزلازل والبراكين والكسوف والخسوف فمن شأن علوم الوحى، فالله سبحانه وتعالى مسبب الأسباب، ومدبر الكون وهو العليم الحكيم.

٣- وموقف علماء المسلمين من الزلازل يدل على سعة أفقهم ودقة نظرهم وصفاء عقولهم وسلامة رأيهم.

فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨ هـ) العالم النحرير والناقد البصير، حينما سئل عن الزلازل على قول أهل الشرع وعلى قول الفلاسفة.

أجاب، والحمد لله رب العالمين:

قال: الزلازل من الآيات التى يخوف الله بها عباده، كما يخوفهم بالكسوف وغيره من الآيات.

والحوادث لها أسباب وحكم: فكونها آية يخوف الله بها عباده هى من حكمة ذلك وأما أسبابه فمن أسبابه انضغاط البخار فى جوف الأرض، كما ينضغط الريح والماء فى المكان الضيق، فإذا انضغط طلب مخرجا فيشق ويزلزل ما قرب منه من الأرض.

٤- وأما قول بعض الناس: إن الثور يحرك رأسه فيحرك الأرض، فهذا جهل وإن نقل عن بعض الناس وبطلانه ظاهر، فإنه لو كان كذلك لكانت الأرض كلها تزلزل وليس الأمر كذلك، والله أعلم.

٥- وقال الحافظ (ابن قيم الجوزية) ٧٥١ هجرية: ولما كانت الرياح تجول فى الأرض، وتدخل فى تجاويفها وتحدث فيها الأبخرة، وتخفق الرياح ويتعذر عليها المنفذ، أذن الله سبحانه وتعالى لها فى الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام.

فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه، والندم كما قال بعض السلف - وقد زلزلت الأرض: (إن ربكم يستعتبكم).

٦- وقال عمر بن الخطاب وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم وقال: (لئن عادت لا أساكنكم فيها).

فهذا التفسير العلمى وغيره وإن صح: ما هو إلا تحليل لأسباب هذه الآية الكونية والله سبحانه وتعالى هو مسبب الأسباب ومجرى الأفلاك، ذو حكمة بالغة وذو قدرة مقتدرة.

٧- أما من يقول: إن هذا أمر طبيعى لا علاقة لـه بالدين وليس من ورائه حكمة، فهذا كلام خاطئ، وليقرأ كل كافر: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٠].

كثرة الزلازل من أشراط الساعة

أقسام أشراط الساعة:

تنقسم أشراط الساعة إلى قسمين:

أشراط صغرى: وهى التى تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وتكون من النوع المعتاد كقبض العلم، وظهور الجهل، والتطاول فى البنيان، وقد يظهر بعضها مصاحبا للأشراط الكبرى أو بعدها.

أشراط كبرى: وهى التى تقارب قيام الساعة، مقاربة وشيكة سريعة وتكون فى ذاتها غير معتادة الوقوع، كظهور الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها.

أشراط الساعة من حيث ظهورها:

قسم بعض أهل العلم أشراط الساعة من حيث ظهورها إلى ثلاثة أقسام هى:

١- قسم ظهر وانقضى، ووقع وفق ما قال النبى ﷺ مثل ظهور الفتن وقتال الترك.

٢- وقسم وقعت مباديه، ولم يستحكم ولا يزال يتتابع ويكثر، مثل خروج الدجالين وكثرة الزلازل بين حين وآخر.

٣- وقسم لم يقع منه شيء، ولكنه سيقع، كظهور الجهل وقبض العلم، فالقسم الثالث يشترك فيه الأشراط الكبرى وبعض الأشراط الصغرى.

ومن هنا يتضح أن كثرة الزلازل من أشراط الساعة الصغرى التى ظهرت بدايتها ولا تزال تتابع وتكثر حتى تستحكم وحتى يطلق على بعض الأوقات (سنوات الزلازل) كما سيأتى بيانه فى الأحاديث الثابتة عن النبى ﷺ.

كثرة الزلازل.. وهل هذا وقتها

الحديث الأول:

فلقد روى البخارى، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال النبى ﷺ : **«لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، يتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج – وهو القتل – وحتى يكثر فيكم المال فيفيض»**.

وقد دل هذا الحديث على عدة فوائد هى:

الأولى: أن كثرة الزلازل من أشراط الساعة الصغرى، والتى ظهرت بدايتها ولا تزال تتابع وتكثر حتى تستحكم.

والثانية: التنبيه إلى وقت تكاثر الزلازل، ومدى ارتباطه بتفشى المعاصى وظهور المنكرات من قبض العلم وتقارب الزمان وظهور الفتن وكثرة القتل ثم ألقِ نظرة حولك، وارجع البصر كرتين حتى تشمل به الزمان والمكان والعالم الذى وجدت فيه، وما يجرى فيه من حوادث ويدب فيه من خلائق، ألا يترجح لديك مثل ما حدث لى أنه تفسير هذا الخبر.

الثالثة: أن المراد بكثرة الزلازل هو أن يتوفر فيها صفتان: الشمول، والاستمرار والدوام، حيث قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

(قد وقع فى كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل ولكن الذى يظهر أن المراد بكثرتها: شمولها ودوامها)

والمراد بالشمول: أى جميع أرجاء الأرض.

والمراد بالدوام: تقارب ما بين الزلزال بحيث تكون على مدار العام، وقد سجلت لنا

كتب التاريخ الإسلامى كثير من الزلازل التى وقعت فى بلاد العالم مع الوصف التفصيلى لما حدث من هدم وخراب وهلاك.

كما فى (المنظم لابن الجوزى) و (الكامل فى التاريخ) لابن الأثير و (تاريخ الأمم والملوك) للطبرى، و (البداية والنهاية) لابن كثير، وكتاب (شذرات الذهب) لابن العماد، و كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزى. و... و...

وأما ما يتعلق بإحصائية الزلازل فى القرن العشرين، فإنها تطالعنا على مدى الشمول والدوام والاستمرار للزلالزل فى أرجاء الأرض، بما يستطيع الباحث أن يؤكد من ورائه مدى ما أخبر به النبى ﷺ من وجود الزلازل فى آخر الزمان.

ومن إحصائية أعدها الدكتور مهندس (على مهران هشام) للزلازل العظيمة التى وقعت منذ بداية القرن العشرين قال:

حدث فى العالم منذ بداية القرن العشرين حتى الآن ٥٠ زلزالا خطيرا وقعت فى بلاد ومناطق تمتد فى جميع القارات تقريبا، وإن كانت القارة الأفريقية أقل القارات فى عدد الزلازل الخطيرة فى القرن الحالى.

نذكر ثلاثة من أول القرن ، وثلاثة من آخر القرن الحالى وهم:

١- يوم ١٨، ١٩ أبريل ١٩٠٦ وقع زلزال فى سان فرانسيسكو بأمريكا ٨.٣ درجة، ٥٠٣ فاد.

٢- يوم ١٦ أغسطس ١٩٠٦ وقع زلزال فى شيلى ٨.٦ درجة - ٢٠ ألف شخص.

٣- يوم ٢٨ ديسمبر١٩٠٨ وقع زلزال فى إيطاليا ٧.٥ درجة - وعدد الضحايا لم يحدد.

فى آخر القرن:

١- يوم ٧ ديسمبر ١٩٨٨ - أرمينيا (السوفيتية) ٦.٩ درجة - والضحايا ٢٥ ألف شخص.

٢- يونيو ١٩٩٠ - إيران ٦.٨ درجة والضحايا أكثر من ٥٠ ألف فرد.

٣- ١٢ أكتوبر ١٩٩٢ - مصر ٥.٩ درجة والضحايا أكثر من ٥٠٠ فرد.

والملاحظ: من هذه الزلازل أنها وقعت فى بلاد المعاصى فيها منتشرة، أما البلاد الإسلامية رأينا قلة الزلازل وقلة عدد الضحايا فيها.

الحديث الثانى:

فلقد روى أحمد وأبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى وصححه الألبانى، عن عبد الله بن حوالة (رضى الله عنه) قال: (وضع رسول الله ﷺ يده على رأسى - أو على هامتى - فقال: **«يا بن خوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت أرض المقدسة ، فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام ، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدى هذه من رأسك»**.

المراد بالخلافة: أى خلافة النبوة.

وقد نزلت أرض المقدسة: أى من المدينة إلى أرض الشام، كما وقعت فى بنى أمية.

(فقد دنت): أى قربت.

(الزلازل والبلابل): قال الخطابى: البلابل: الأحزان والهموم، وبلبلة الصدر أى وسواس الهموم واضطرابها، قال: وإنما أنذر أيام بنى أمية، وما حدث من الفتن زمانهم.

وفى الحديث إشارة واضحة إلى وقوع الزلازل فى هذه الأيام، وها هى تقع هنا وهناك، لتؤكد صدق ما أخبر به نبينا ﷺ، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨].

ولقد أخبرنا الصادق المصدوق، الذى لا ينطق عن الهوى عن كثرة الزلازل فى آخر الزمان، بحيث تصير سمة من سمات السنين والأيام حتى تسمى هذه الأوقات " بسنوات الزلازل ".

الحديث الثالث:

رواه أحمد وابن حبان وأبو يعلى والطبرانى وقال الهيثمى: حديث صحيح رجاله ثقات، عن سلمة بن نفيل السكونى (رضى الله عنه) قال: (كنا جلوسا عند النبى ﷺ وهو يوحى إليه فقال: **«إنى غير لابث فيكم ولستم لابثين بعدى إلا قليلا وستأتونى أفنادا يفنى بعضكم بعضا ، وبين يدى الساعة موتان شديد ، وبعده سنوات الزلازل»**.

يشير بذلك النبى ﷺ إلى الفتن والحروب التى جرت بعده بين المسلمين بعضهم البعض، وما زالت إلى وقتنا هذا تحدث بين الحين والحين الآخر، ويشعل فتيلها اليهود والصليبيون.

معانى الحديث:

موتان: بوزن البطلان: الموت الكثير الوقوع.

وبوب ابن حبان على الحديث بقوله: ذكر الإخبار عن وجود كثرة الزلازل فى آخر الزمان.

الفصل الثالث:

هل الزلازل غضب من الله تعالى

عندما وقع زلزال يوم الاثنين ١٢ أكتوبر١٩٩٢ بمصر ترك لنا جميعا عددا كبيرا من التساؤلات:

هل الزلزال غضب من الله، أم إنذار وتحذير، أم هو بلاء.

فمن قائل: هو غضب وانتقام من الله.

ومن قائل: إنه تصحيح وتوجيه وليس غضبا.

ومن قائل: إنه آية من آيات الله تدل على قدرته ووحدانيته.

ومن قائل: إنه بلاء وابتلاء من الله.

والصحيح الذى دلت عليه الأدلة ـ كما سنوضحه بعون الله ـ أنه:

١- قد تكون الزلازل آية دالة على وحدانية الله وقدرته سبحانه وتعالى.

٢- وقد تكون الزلازل تخويفا وعظة من الله لعباده.

٣- وقد تكون الزلازل غضبا وانتقاما للكافرين.

٤- وقد تكون الزلازل عذابا فى الدنيا للمسلمين، ورحمة لهم فى الآخرة.

٥- وقد تكون الزلازل ابتلاء لأهل القتل بالهدم.

٦- وقد تكون تذكيرا وإشارة ليوم القيامة يوم الزلزلة الكبرى.

وإليك عزيزى القارئ توضيح كل بند من هذه البنود إن شاء الله.

١ – الزلازل آية باهرة تدل على قدرة الله ووحدانيته:

من تفكر فى مخلوقات الله، وجدها مرآة يشاهد فيها قدرة ربه عز وجل، فإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشا ومهادا، وذللها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا

فيها فى حوائجهم وتصرفاتهم.

وأرساها بالجبال، فجعلها أوتادا تحفظها لئلا تميد بهم، ووسع أكثافها ودحاها، فمدها وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها، وجعلها كفاتا للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياءً، وكفاتا للأموات تضمهم فى بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء، وبطنها وطن للأموات.

وقد أكثر الخالق سبحانه من ذكر الأرض فى كتابه، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر فى خلقها، فقال تعالى:

﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقال أيضا: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر: ٦٤].

وقال أيضا: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

وقال أيضا: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ثم انظر إليها لحظة اضطرابها وزلزلتها، بعد أن كانت ساكنة مطمئنة لترى بنفسك الدلائل الواضحات على قدرة الخالق سبحانه وإرادته وحكمته ووحدانيته، حيث يقول الله تعالى:

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان: ١١].

ثم تأمل حكمته سبحانه من رواء ذلك وما يحدث للعباد من الخوف والخشية

والاستيقاظ من الغفلة وما فى ذلك من المنافع لهم.

ثم تأمل عظمته سبحانه وأن مقاليد الأمور بيده، فيمن نجا كيف نجا، وفيمن هلك، كيف هلك، لترى بنفسك مدى القدرة الفائقة للحى القيوم الذى يخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى.

ولا يفوتنا أن نسجل هذه العبرة من العبر التى جاء بها الله فى الزلازل ١٢ أكتوبر١٩٩٢ بمصر، بعد خروج المهندس " أكثم السيد إسماعيل " من تحت أنقاض عمارة هليوبوليس بمصر الجديدة بالقاهرة بعد مرور ٨٣ ساعة ظل يكافح فيها من أجل الحياة، وفوقه مئات الأطنان من الأتربة التى يصل ارتفاعها إلى أربعين مترا، فسبحان من جلت قدرته وعظمته:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم: ١٩].

فواعجبا كيف يعصى الإله ::: أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة ::: وتسكينة أبدا شاهد
وفى كل شىء له آية ::: تدل على أنه واحد

ثم تأمل عظمته سبحانه فى أنه المتصرف فى مصائر العباد وأن ما يدعون من دون الله، لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله إلا سواه، فحقا يا لها من آيات تدل على قدرة الله ووحدانيته، عز وجل فى علاه.

٢ – الزلازل تخويف وعظة من الله لعباده:

قال العلامة (ابن بطال): ظهور الزلازل والآيات وعيد من الله لأهل الأرض.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال (قتادة): إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون.

وذكر قتادة: أن الكوفة رجفت فى عهد ابن مسعود (رضى الله عنه) فقال: أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه.

وقال البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال: **«لما كسفت الشمس: قال: هذه الآيات التى يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوف الله بها عباده...»**.

وقال البخارى من حديث أبى بكرة (رضى الله عنه): **«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ، ولكن الله تعالى يخوف بهما عباده»**.

وقال الحافظ ابن حجر: قوله: (يخوف): فيه رد على من يزعم من أهل الهيئة أن الكسوف أمر عادى لا يتقدم ولا يتأخر، إذ لو كان كما يقولون لم يكن فى ذلك تخويف، ويصير بمنزلة الجذر والمد فى البحر.

وقال العلامة (ابن دقيق العيد): فى قوله ﷺ : **«يخوف الله بهما عباده»**، إشارة إلى أنه ينبغى الخوف عند وقوع التغيرات العلوية.

وقد ذكر أصحاب الحساب لكسوف الشمس والقمر أسباباً عديدة وربما يعتقد معتقد أن ذلك ينافى قوله عليه السلام: **«يخوف الله بهما عباده»**، وهذا الاعتقاد فاسد لأن لله تعالى أفعالا على حسب الأسباب العادية، وأفعالا خارجة عن تلك الأسباب، فإن قدرته تعالى حاكمة على كل سبب ومسبب، فيقطع ما شاء من الأسباب والمسببات بعضها عن بعض.

فإذا كان كذلك، فأصحاب المراقبة لله تعالى ولأفعاله، الذين عقدوا أبصار قلوبهم بوحدانيته وعموم قدرته على خرق العادة، واقتطاع المسببات عن أسبابها، إذا وقع شىء غريب حدث عندهم الخوف لقوة اعتقادهم فى فعل الله تعالى ما شاء.

ولهذا كان النبى ﷺ عند اشتداد هبوب الرياح يتغير ويدخل ويخرج خشية أن تكون كريح عاد، وإن كان هبوب الريح موجودا فى العادة.

والمقصود بهذا الكلام: أن يُعلم أن ما ذكره أهل الحساب من سبب الكسوف لا ينافى كون ذلك مخوفا لعباد الله تعالى، وإنما قال النبى ﷺ هذا الكلام لأن الكسوف كان عند موت ابنه إبراهيم، فقيل: إنها إنما كسفت لموت إبراهيم، فرد النبى ﷺ ذلك.

ومما يدل على أن مثل هذه الآيات من الزلازل وغيرها إنما هى تخويف الله للعباد، وتحذير لهم من سطوته، فلقد ورد فى البخارى عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: كانت الريح الشديدة إذا هبت عرف ذلك فى وجه النبى ﷺ.

وقال البخارى ومسلم عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: كان النبى ﷺ إذا رأى مخيلة فى السماء، أقبل وأدبر، ودخل وخرج وتغير وجهه فإذا أمطرت السماء سرى عنه، فعرّفته عائشة ذلك، فقال النبى ﷺ : «**وما أدرى لعله كما قال قوم عاد**: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٤]».

وفى الحديث: تذكر ما يذهل المرء عنه مما وقع للأمم الخالية، والتحذير من السير فى سبيلهم خشية من وقوع مثل ما أصابهم.

وفى الحديث أيضا: إشارة للمسلم وتنبيه لـه على سلوك طريق الخوف والرجاء من الله تعالى.

٣ – قد تكون الزلازل غضبا وانتقاما من الكافرين:

ينبغى أن يعلم الإنسان أن الذنوب التى أهلك الله بها الأمم على قسمين:

أ- معاندة الرسل وجحد رسالتهم.

ب- الإسراف فى الفجور والذنوب.

فالقسم الأول: يهلك الله تعالى أصحاب هذا القسم ويعذبهم عذاب استئصال وإبادة، كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وأضرابهم.

قال الله تعالى:

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

القسم الثانى: يصابون بالمجاعات والجوائح والأمراض والاختلاف والزلازل وغير ذلك، وقد يكون مع ذلك موت، وقد لا يكون، وعذاب هذه الأمة الإسلامية من هذا القبيل، فإن الله تعالى لا يستأصلها ولا يهلكها بالمرة، كما كان يفعل مع الأجيال السابقة ولكنه يعذبهم بأنواع عديدة متنوعة من البلاء، وسيأتى الكلام على عذاب المسلمين بالزلازل والبلايا فى الدنيا.

وعذاب الله تعالى وعقابه للأمم، لا يختص بنوع واحد، ولا لون معين، بل جرت سنة الله تعالى فى تنويعه على ألوان مختلفة ومتنوعة، فهو قد يكون صاعقة أو غرقا أو فيضانا أو ريحا أو خسفا أو قحطا ومجاعة، وارتفاعا فى الأسعار أو أمراضا أو ظلما وجورا، أو فتنا بين الناس واختلافا، أو مسخا فى الصور أو مطرا بالحجارة أو رجفة...

فالكل عقاب من الله تعالى وعذاب يرسله على من شاء تأديبه أو ردعه من عباده. وقد جاءت هذه الأنواع فى القرآن الكريم والسنة.

وما يعنينا فى هذا المقام هو فيمن أهلك بالزلزلة وهذه بعض النماذج:

أنواع العذاب:

أ - هلاك ثمود قوم صالح بالرجفة والزلزلة والصيحة:

قص الله سبحانه وتعالى علينا فى كتابه الكريم، كيفية هلاك ثمود لما كذبوا نبى الله صالح وعقروا الناقة فى غير موضع واحد، بل قال:

فقال تعالى:

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

وقال: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ ﴾ [هود: ٦٧].

وقال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ ﴾ [الحجر: ٨٣].

وقال: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٥٨ ﴾ [الشعراء: ١٥٨].

وقال: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ ﴾ [النمل: ٥١].

وقال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٧ ﴾ [فصلت: ١٧].

وقال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١ ﴾ [القمر: ٣١].

وقال: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ ﴾ [الشمس: ١٤].

وملخص ما ذكره المفسرون فى ذلك: أنهم لما كذبوا صالحا وعقروا الناقة واستعجلوا العذاب)، قال لهم نبى الله صالح: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥ ﴾ [هود: ٦٥].

فلم يصدقوه، بل لما أمسوا هموا بقتله، وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة، ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٤٩ ﴾ [النمل: ٤٩].

فقال الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣ ﴾ [النمل: ٥٠ - ٥٣].

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم فأهلكهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم.

وأصبحت ثمود فى اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة، كما أنذرهم صالح عليه السلام، فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل، ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل ووجوههم محمرة،

فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل، ثم أصبحوا فى اليوم الثالث ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل.

فلما كانت صبيحة اليوم التالى تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أى جهة يأتيهم العذاب، فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق فأصبحوا فى ديارهم جاثمين جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها.

قال الله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ﴾ [هود: ٦٨]، أى لم يقيموا فيها فى سعة ورزق وغناء ﴿ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٨].

أى نادى عليهم لسان القدر بهذا.

والشاهد من القصة: أنهم مع هلاكهم بالصيحة من السماء، جاءتهم الرجفة من أسفل منهم.

والرجفة: هى التحرك والاضطراب الشديد، والرجفة الزلزلة، ورجفت الأرض ترجف رجفا: اضطربت، ورجف البلد إذا تزلزل، وقد رجفت الأرض وأرجفت وأُرجفت إذا تزلزلت.

ب - هلاك مدين - قوم شعيب - بالرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة.

وكذلك قص الله علينا فى القرآن الكريم كيفية إهلاكه لمدين، لما كذبوا نبى الله شعيب، بعد أن نصح لهم وبلغهم ما أرسل به إليهم.

ثم استفتح عليهم واستنصر ربه على قومه الذين جحدوه وكفروه وخالفوه فجاءهم عقاب الله، ويا له من عقاب.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

فذكر الله سبحانه فى سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة: أى رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالا شديدا، أزهقت أرواحهم من أجسامهم، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها، وأصبحت حثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها.

وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات، وصنوفا من المثلات، وأشكالا من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكتت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائهم والجهات.

ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها، ويوافق طباقها.

ففى سورة الأعراف:

أرجفوا نبى الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن فى ملتهم، فقال الله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٧٨) ﴾ [الأعراف: ٧٨].

فقابل الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وفى سورة هود:

فذكر أنهم أخذتهم الصيحة، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا لنبى الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص: حيث قال الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود: ٨٧].

فناسب أن يذكر الصيحة التى هى كالزجر عن تعاطى هذا الكلام القبيح الذى واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة، أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم.

أما فى سورة الشعراء:

فذكر الله أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا وتقريبا إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٧]، قال الله تعالى وهو السميع العليم: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

ذكروا أنه أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم فى الأسراب فهربوا من محلتهم إلى البرية.

فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيها أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح وخربت الأشباح.

ونجى الله شعيبا ومن معه من المؤمنين، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود: ٩٤ - ٩٥].

جـ - ومما يلتحق بالزلازل: الخسف والمراد به: ذهاب المكان ومن عليه، وغيبوبته فى باطن الأرض، وخسف بالرجل وبالقوم إذا أخذته الأرض ودخل فيها.

والخسف: سؤوخ الأرض بما عليها، كما حكى الله تعالى عن قارون وما حل به فقال: ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٨١].

قال الشيخ عبد الله التليدى: وهذا الخسف قد حصل فى عصرنا مرات متعددة فى جميع الأقطار، وكل أنحاء المعمورة، بل لا تمر بضعة أشهر بدون أن يقع فى بعض البلاد.

ولعل ما نزل بمدينة (أكادير) بمغربنا الأقصى العربى سنة ١٣٨٠ هجرية من أعظم الخسوفات التى شاهدتها الإنسانية فى عصرنا الحاضر، وما ذلك إلا لما كان ولا يزال فى تلك المدينة من الفجر وأنواع الفسوق واللعب واللهو، وقد حدثنا عنها أنها فاقت أو كادت تفوق كل مدن المغرب فى تلك الميادين المجونية.

ولذلك أنزل الله تعالى بها ذلك الخسف العظيم والزلزال الفظيع المدهش (انظر كتاب أسباب هلاك الأمم، ص ١٠٨).

٤ – قد تكون الزلازل عذابا فى الدنيا وتطهيرا ورحمة للمسلمين:

فقد أخبرنا الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى بأن هذه الأمة أمة مرحومة ليس عليها عذاب فى الآخرة وأن الله تعالى جعل عذابها فى الدنيا: الفتن والزلازل والقتل.

فلقد روى أبو داود وأحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى وصححه الألبانى عن أبى موسى الأشعرى (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«أمتى هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب فى الآخرة وعذابها فى الدنيا: الفتن والزلازل والقتل».**

قال العلامة (القارى) رحمه الله: بل غالب عذابهم: أنهم مجزيون بأعمالهم فى الدنيا: بالمحن والأمراض وأنواع البلايا كما حقق فى قولـه تعالى:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء: ١٢٣].

٥ – قد تكون الزلازل ابتلاء لأهل القتل والهدم:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

وقد دلت الأحاديث الثابتة عن النبى ﷺ أن صاحب الهدم ومن وقع عليه البناء يرجى لـه الشهادة.

فلقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: أن رسول الله ﷺ قال: **«الشهداء خمسة: المطعون ، والمبطون ، والغرق ، وصاحب الهدم ، والشهيد فى سبيل الله»**.

قال (ابن التين) رحمه الله: (هذه كلها ميتات فيها شدة، تفضل الله على أمة محمد ﷺ بأن جعلها تمحيصا لذنوبهم، وزيادة فى أجورهم يبلغهم بها مراتب الشهداء).

فلقد روى أبو داود والنسائى والحاكم وصححه ووافقه الذهبى وصححه الألبانى عن جابر بن عتيق مرفوعا إلى النبى ﷺ قال: **«الشهداء سبعة سوى القتل فى سبيل الله»**، وذكر منهم: **«والذى يموت تحت الهدم شهيد»**.

٦ – هذه الزلازل تذكرنا بيوم الزلزلة الكبرى:

يقول الله تعالى فى سورة النساء: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧].

وفى سورة مريم: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩].

وفى سورة غافر: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨].

وفى سورة المطففين: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦].

إنه يوم الزلزلة... يوم الرجفة.

ذلك الدمار الكونى الشامل، والجبال تُسير وتُنسف، والبحار تفجر وتسجر، والسماء تتشقق وتمور، والشمس تكور وتذهب، والقمر يخسف، والنجوم تنكدر ويذهب ضوؤها وينفرط عقدها.

إذا كانت زلازل الدنيا تدمر كثيرا من مقومات حياتنا، وتقع فى أجزاء محدودة وتترك خلفها حصادا من الخسائر المروعة الفادحة، فما بالنا بزلزلة الأرض كلها، تلك الزلزلة التى لا جبر فيها لنقص أعمال البشر، فلا معين ولا منقذ إلا الواحد القهار، يقول الله تعالى مخاطبا للناس جميعا:

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ ﴾ [الحج: ١ - ٢].

إنه والله لشىء عظيم.

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجّٗا ٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسّٗا ٥ فَكَانَتْ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦ ﴾ [الواقعة: ٤ - ٦].

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤ ﴾ [المزمل: ١٤].

تتحول الجبال الصلبة إلى رمل ناعم.

إن العدة للنجاة فى مثل هذا الموقف العظيم هى التقوى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ ﴾ [الحج: ١]، هى الوقاية والحماية من خطر هذا الهول العظيم.

وما أحسن تعريف (طلق بن حبيب) التابعى المشهور حيث قال: إذا وقعت الفتنة فاتقوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى ؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله.

وقيل لأبى الدرداء (رضى الله عنه) يوما: إن أصحابك يقولون الشعر، وأنت ما حفظ عنك شىء منه، فأنشد:

يريد المرء أن يؤتى مناه ::: ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتى ومالى ::: وتقوى الله أفضل ما استفادا

هذه هى التقوى التى أمرنا الله بها لنتقى بها زلزلة الساعة، إنها شىء عظيم.

ما كانت هذه الزلزلة إلا عن شىء أحدثتموه:

يقول الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠].

ويقول أيضا: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ [النساء: ١٢٣].

ويقول سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

وروى البخارى ومسلم عن زينب بنت جحش (رضى الله عنها) أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعا يقول : **«لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»** - وحلق بإصبعيه الإبهام والتى تليها - قالت زينب: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون، قال: **«نعم إذا كثر الخبث»**.

وما أكثر الخبث بين ظهرانينا، فتن وبليات، شرور ومحدثات، وبدع وضلالات شريعة معطلة، وانتهاك لحرمات الله، ونقض لعهوده ومواثيقه التى ألزم عباده الوفاء بها، والإعراض عن تنفيذ أحكامه والقضاء بها بين العباد واستبدال غيرها بها.

قال العلامة (ابن العربى):

(الخبث: فيه البيان بأن الخيّر يهلك بهلاك الشرير إذا لم يغيّر عليه خبثه، وكذلك إذا غير عليه، لكن حيث لا يجدى ذلك، ويصر الشرير على عمله السيئ ويفشو ذلك ويكثر حتى يعم الفساد، فيهلك حينئذ القليل والكثير، ثم يحشر كل واحد على نيته).

الذنوب والمعاصى سبب كل مصيبة وبلاء:

وهل فى الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصى، فما الذى أغرق أهل الأرض كلهم، حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال ؟

وما الذى سلط الريح على قوم عاد، حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم

أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة ؟

وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم، وأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ميتين هامدين باركين على ركبهم لاصقين بالأرض ؟

وما الذى رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعا، ثم أتبعهم حجارة من السماء، أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة، ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هى من الظالمين ببعيد ؟

وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارا تلظى ؟

وما الذى أغرق فرعون وقومه فى البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق والأرواح للحرق ؟

وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟

وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرا ؟

وما الذى أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم ؟

وما الذى بعث على بنى إسرائيل قوما أولى بأس شديد، فجاسوا خلال الدار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة أخرى فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيرا ؟

ومن آثار الذنوب والمعاصى: أنها تحدث فى الأرض أنواعا من الفساد فى المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ

﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١].

وقال الحافظ (ابن القيم) رحمه الله:

ومن تأثير المعاصى فى الأرض وما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله ﷺ على ديار ثمود، فمنع المسلمين من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومنعهم من شرب مياههم ومن الاستسقاء من آبارهم،

حتى أمر أن يعلف العجين الذى عجن بمياههم للإبل لتأثير شؤم المعصية فى الماء.

وقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده فى ضمن حديث قال: (وجد فى خزائن بنى أمية حبة حنطة بقدر نواة التمر، وهى فى صرة مكتوب عليها: (كان هذا ينبت فى زمن العدل) وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب).

تحذير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من التغيير والتبديل:

عن صفية بنت أبى عبيد قالت: زلزلت الأرض على عهد عمر بن الخطاب حتى اصطفت السرر، فخطب عمر الناس فقال: أحدثتم، لقد عجلتم لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم.

وروى ابن أبى الدنيا والبيهقى وإسناده صحيح: (تزلزلت الأرض على عهد عمر بن الخطاب فقال: يا أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا عن شيء أحدثتموه، والذى نفسى بيده إن عادت لا أساكنكم فيها أبدا).

نعم والله، ما كانت هذه الزلزلة إلا عن شيء أحدثناه، وما أكثر المحدثات والمخالفات، إن دنوبنا جسيمة، جلبت علينا هذه الكوارث والمحن والمصائب والويلات، التى تهددنا وتهدد العالم أجمع بالخراب وتنبئنا بدواه مقبلة، وبعقاب عظيم مرتقب.

فكل أنواع المعاصى والجرائم والفسوق بسبب استيطان الهوى على النفوس وتوغل

الناس فى الانهماك فى شهوات بطونهم وفروجهم، لأنهم يمثلون ما يفعل الغرب والأوروبيون الهالكون والدول الشرقية الملحدة.

احذروا هذه الذنوب:

ولا يفوتنا أن ننبه إلى بعض من هذه الذنوب والمعاصى التى تجلب علينا غضب الله، فيحل بنا البلاء والدمار فى كل زمان ومكان وهى:

١ – ترك تحكيم شريعة الله:

واستبدالها بالقوانين الوضعية والأنظمة البشرية، فالواجب على عامة المسلمين وأمرائهم وحكامهم أن يتقوا الله عز وجل ويحكموا شريعته فى بلدانهم، ويقوا أنفسهم ومن تحت ولايتهم عذاب الله فى الدنيا والآخرة، وأن يعتبروا بما حل فى البلدان التى أعرضت عن حكم الله وسارت فى ركاب من قلد الغربيين من الاختلاف والتفرق وضروب الفتن وقلة الخيرات والمعيشة الضنك.

٢ – هجر كتاب الله:

سواء هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه، واستبدال ذلك بسماع الشيطان من الأغانى الخليعة الهابطة، التى تحض على الفواحش أو هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، أو هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه، أو هجر الاستشفاء والتداوى به وكل ذلك داخل فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٠].

٣ – ترك الصلاة وإضاعتها:

سواء من تركها بالكلية فلم يسجد لله قط، أو من يضحك على نفسه بأن يصلى الجمعة فقط، وكذلك من يضيع أركانها وشروطها وواجباتها وسننها، وكذلك من يترك إقامتها فى الجماعة ويهجر مساجد رب العالمين، ويسمع الأذان ولا يلبى النداء، وقد قال الله تعالى:

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ٥٩].

٤ – منع الزكاة:

وهذا ذنب عظيم فيه إطاحة بركن من أركان الإسلام، وللأسف كثير من المسلمين اليوم ممن يملكون الأموال والعقارات وغير ذلك مما تجب فيه الزكاة ترك هذا الركن الركين، إما جهلا وإما قصرا وبخلا، فأما الجاهل يظن أن إيتاء الزكاة هو زكاة الفطر من رمضان فقط، ونسى المسكين حق الله وحق عباده من زكاة المال والحبوب والثمار والأنعام والتجارة، وأما البخيل الذى منعها قصدا وضنا بها فما أبخس حظه، قال الله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

ولقد روى ابن ماجه والحاكم وحسنه الألبانى وقال: حديث صحيح عن ابن عمر (رضى الله عنهما) عن النبى ﷺ : «**... ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا**».

٥ – التعامل بالربا:

ويا لـه من ذنب عظيم، حيث قال الله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

فأى ذنب فى المعاملة أعظم من هذا الجرم الذى يكون فيه فاعله محاربا لله ولرسوله، ومع ذلك نرى المسلمين يتهافتون على المعاملات الربوية فى البنوك لاسيما النسيئة، وهو الزيادة التى يأخذها البنك فى مقابلة دينه، أو ما يسمى بالفائدة فهى الربا بعينه، وهو الذى كان معهودا فى أيام الجاهلية قبل الإسلام، وفيه نزلت تلك الآيات

القرآنية وجاءت القوارع الإلهية تندد على متعاطين بمآله ومصيره، وتهدد المتعاملين وتزجرهم، فالمرابون على خطر عظيم إذا لم يتوبوا إلى الله ويردوا مظالم الناس، ثم إن الذنب ليس قاصرا على متعاطيه، بل يشمل عامة من يشارك فيه، ففى الحديث : **«لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه هم فيه سواء»**.

٦ – الفواحش والزنا:

ذلك الخلق الفتاك الهدام، الذى يحدث بالمجتمع الخراب والدمار، وقد جرت سنة الله فى خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله سبحانه ويشتد غضبه فلابد أن يؤثر غضبه فى الأرض عقوبة، وفى الحديث:

فلقد روى ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح، وحسنه الألبانى عن ابن عمر (رضى الله عنهما) عن رسول الله ﷺ قال: **«.. ولم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا»**.

وفاحشة الزنا والعياذ بالله وظهورها بيننا وانتشارها واضح لكل ذى عينين، وقد شارك فى إعلانها تجار إشاعة الفاحشة فى المجتمع عن طريق ما يسمى بالفن وما يعرضونه فى السينما من أفلام يكثر فيها العرى وكشف عورات النساء وتصوير ما يحدث بين الذكر والأنثى، وما يقرب الإنسان ويغريه ويشجعه على الزنا.

والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

٧ – الأغانى الخليعة واللهو الماجن:

الذى يصد عن ذكر الله، ويفسد القلوب إفسادا ما بعده من إفساد، ويحمل لواءه سفلة القوم ورذالتهم، ممن تركوا منازل أهليهم، وفشلوا فى التعليم، فتجد الواحد منهم يأتى بالحركات كأنهم القرود، مما يدل على الفطرة المنتكسة، ومع ما ينتظره من عقاب الله فى الدنيا والآخرة.

قال الحافظ (ابن القيم): وقد تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ فى هذه الأمة وهو مقيد فى أكثر الأحاديث بأصحاب الغناء وشرب الخمر، وفى بعضهما مطلق.

٨ – البخس فى الكيل والميزان وتعاطى الرشوة:

وهذا من الأمراض الفتاكة التى يتسبب عنها الجدب والقحط وارتفاع الأسعار وظهور الغلاء فى الأغذية وغيرها، وتسلط الحكام على الناس بالجور والظلم وهضم حقوقهم، وورد فى الحديث : «**... ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم**».

وفى الحديث : «**لعن رسول الله ﷺ الراشى والمرتشى**».

٩ – الظلم بأنواعه:

كلها من ظلم العبد لربه ولنفسه وللعباد، وفى الحديث:

روى البخارى ومسلم من حديث ابن عمر (رضى الله عنهما) عن النبى ﷺ قال: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**».

وقوله ﷺ : «**إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**».

وروى البخارى من حديث أبى ذر الغفارى (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه يقول الله تعالى: «**يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا...**».

١٠ – خذلان المسلمين وترك نصرتهم:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وفي الحديث: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره**».

من حديث صحيح رواه أحمد.

ومع ذلك نرى المسلمين قد خذلوا إخوانهم فى البوسنة والهرسك الذين يتعرضون للإبادة والذبح على أيدى (الصرب والكروات) حملة لواء الحروب الصليبية فى العصر الحديث، واكتفى المسلمون فى بعض الأماكن بالشجب والاستنكار كالعادة، وسوف يجنى المسلون غب هذا التخاذل ولو بعد حين.

والواجب على كل المسلمين الذين ينعمون اليوم بالفراش اللين والمطعم الهنئ والأمن السابغ وينامون وادعين فى حضن الحية الرقطاء، بينما الظلم الدوار ينتقل حرا من وطن إلى وطن، ومن بيت إلى بيت، والإخوة الأعداء على الشاطئ الآخر من البحر قد أعطوا الضوء الأخضر للقتل والتصفيات والمذابح فى البوسنة وفى سيرلانكا وفى الهند وفى بعض البلاد الإسلامية.

فهلموا وانصروا من يقول: لا إله إلا الله وهذا فرض على كل مسلم ومسلمة.

والله يرج الأرض بالزلازل ويقول: (أنا أقوى من كل هؤلاء.. اتقونى أرحمكم وأطيعونى أنصركم، فأنا وحدى ناصر الضعفاء معز الأذلاء وأنا وحدى، ولا سواى من يستطيع أن يحيى موتاكم، فهل تسمعون، أم أنتم فى واد آخر) ؟

فقه الزلازل وما يستحب عندها

قال شيخ الإسلام (ابن تيمية):

السنة فى أسباب الخير والشر: أن يفعل العبد عند أسباب الخير الظاهرة والأعمال الصالحة، ما يجلب الله به الخير، وعند أسباب الشر الظاهرة من العبادات ما يدفع الله عنه الشر.

كما أمر النبى ﷺ عند الخسوف بالصلاة والصدقة والاستغفار والعتق.

ولما كانت الزلازل من الآيات التى يخوف الله بها عباده، شأنها فى ذلك شأن الكسوف والخسوف استحب عندها من الوعظ والصلاة والتقرب إلى الله تعالى بوجوه البر، فمن ذلك:

١ – الصلاة:

تجب الصلاة عند حدوث الزلازل وهى (صلاة الكسوف) وكيفيتها كما فعلها رسول الله ﷺ.

صلاة الكسوف:

وهى سنة مؤكدة فى حق الرجال والنساء، والأفضل أن تصلى فى جماعة، وإن كانت الجماعة ليست شرطا فيها، وينادى لها عند الإقامة أن نقول: الصلاة جامعة، واتفق الجمهور من العلماء على أنها ركعتان، فى كل ركعة ركوعان.

فعن عائشة (رضى الله عنها) قالت: خسفت الشمس فى حياة النبى ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقام فكبر وصف الناس وراءه فاقترأ قراءة طويلة، ثم كبر فركع ركوعا طويلا هو أدنى من القراءة الأولى، ثم رفع رأسه فقال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، ثم قام فاقترأ قراءة طويلة هى أدنى من القراءة الأولى، ثم كبر فركع ركوعا هو أدنى من الركوع الأول، ثم قام وقال: سمع الله لمن حمده، ثم سجد، ثم فعل فى الركعة الأخرى مثل ذلك حتى استكمل أربع ركوعات وأربع سجدات، وانجلت الشمس قبل أن ينصرف ثم قام فخطب الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال:

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتموها فافزعوا إلى الصلاة»، رواه البخارى ومسلم.

وقال (القاضى) رحمه الله: ولا يصلى للرجفة، والريح الشديدة، والظلمة ونحوها.

وقال (الآمدى): (يصلى لذلك، ولرمى الكواكب والصواعق وكثرة المطر).

وحكاه عن أبى موسى الأشعرى.

وقال(أصحاب الرأى): الصلاة لسائر الآيات حسنة لأن النبى ﷺ علل الكسوف بأنه آية من آيات الله تعالى يخوف الله بها عباده.

وقال (مالك والشافعى) رحمهما الله: لا يصلى لشىء من الآيات سوى الكسوف؛ لأن النبى ﷺ لم يصل لغيره، وقد كان فى عصره بعض هذه الآيات، وكذلك خلفاؤه.

والذى يترجح: أنه يصلى للزلزلة فرادى، لا جماعة؛ لأن الاجتماع لها يحتاج إلى دليل.

٢ – التوبة والندم:

ويستحب عند الزلازل المسارعة إلى التوبة إلى الله تعالى من الذنوب والمعاصى والإقلاع عنها.

قال الإمام (النووى) رحمه الله: (قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى لها ثلاثة شروط:

أ- أن يقلع عن المعصية.

ب- أن يندم على فعلها.

ج- أن يعزم ألاَّ يعود إليها أبدا.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة: هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه، أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها.

قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١ ﴾ [طه: ٨١].

فمن أعرض عن الله غضب الله عليه.

٣ – الذكر والدعاء والاستغفار:

قال (القسطلانى) رحمه الله: ويستحب لكل أحد: أن يتضرع بالدعاء عند الزلازل ونحوها كالصواعق والريح الشديدة والخسف.

ولقد سبق حديث رسول الله ﷺ أنه قال: «**افزعوا إلى الصلاة صلاة الكسوف. والدعاء والاستغفار عند كسوف الشمس**».

وقال الحافظ (ابن حجر) رحمه الله: واستدل بذلك على أن الأمر بالمبادرة إلى الذكر والدعاء والاستغفار، وغير ذلك لا يختص بالكسوفين، لأن الآيات أعم من ذلك.

وقال أيضا: (وفيه الندب إلى الاستغفار عند الكسوف وغيره، لأنه مما يدفع به البلاء)

وقال (ابن مالك) رحمه الله: (إنما أمر بالدعاء لأن النفوس عند مشاهدة ما هو خارق، تكون معرضة عن الدنيا، ومتوجهة إلى الحضرة العليا، فيكون أقرب إلى الإجابة).

ويستحب الدعاء والتضرع إلى الله تعالى عند رؤية الحريق والصلاة على النبى ﷺ، فإنها تدفع كل بلية وتزيل كل سوء.

ومن الأدعية المذكورة عن النبى ﷺ منها:

١- عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : **«لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم»**، رواه البخارى ومسلم.

٢- وعن أنس بن مالك (رضى الله عه) عن النبى ﷺ أنه كان إذا أكربه أمر قال: **«يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث»**، حديث حسن رواه الترمذى.

٣- وعن أبى بكرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«دعوات الكروب: اللهم رحمتك أرجو ألاَّ تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله، لا إله إلا أنت»**.

٤- أسماء بنت عميس (رضى الله عنها) أن رسول الله ﷺ قال لى : **«ألا أعلمك كلمات تقوليهن عند الكرب – أو فى الكرب: الله الله ربى لا أشرك به شيئا»**.

٥- (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) دعاء سيدنا يونس وهو فى بطن الحوت.

٤ – القنوت عن الزلازل:

القنوت: هو الدعاء فى الصلاة فى محل مخصوص من القيام.

قال الشوكانى: (القنوت مختص بالنوازل، وأنه ينبغى عند نزول النازلة ألاَّ يختص به صلاة دون صلاة).

وقال الحافظ (ابن حجر) رحمه الله: (ويؤخذ من الأخبار أنه ﷺ كان لا يقنت إلا فى النوازل).

وقال (ابن القيم) رحمه الله: (وكان من هديه ﷺ القنوت فى النوازل خاصة، وتركه عند عدمها).

ومعنى النازلة كما يقول (ابن علان): (نازلة عامة أو خاصة فى معنى العامة لعود ضررها على المسلمين على الأوجه: كوباء وطاعون وقحط وجراد وكذا مطر يضر بالعمران أو زرع، وخوف عدو. وكأسر عالم أو شجاع...).

والسنة فى قنوت النوازل: أن يقتصر الداعى فيه على ما يناسب النازلة فقط، ولا تستحب الإطالة فى الدعاء، بل يكون الدعاء مناسبا للوقت مع ملاحظة المريض والعجوز وصاحب الحاجة.

٥ – الصدقة وبذل المال:

ومما يستحب عند الزلزلة، التصدق وبذل المال.

فلقد روى (جعفر بن برقان) قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز فى زلزلة كانت بالشام، أن اخرجوا يوم الاثنين من شهر كذا وكذا، ومن استطاع منكم أن يخرج صدقة فليفعل، فإن الله تعالى قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٥].

وقولوا كما قال أبوكم آدم عليه السلام:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقولوا كما قال موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص: ١٦].

وقال السيوطى فى (كشف الصلصلة) مما يستحب عند الزلزلة التصدق قياسا على الأمر به فى الكسوف.

وقال (ابن علان) رحمه الله: (وتصدقوا: أى بأنواع الإحسان إلى الفقراء والمساكين ففيه إشارة إلى أن الأغنياء هم المقصودون بالتخويف من بين العالمين، لكونهم غالبا للمعاصى مرتكبين).

وبوب البخارى فى صحيحه على الحديث (باب الصدقة فى الكسوف) وكذلك مما يؤكد المسارعة إلى بذل المال، والتصدق فى مثل هذه الأحوال وغيرها، لاسيما صدقة السر - حيث قال رسول الله ﷺ : **«صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفئ غضب الرب»**، رواه الطبرانى وحسنه الهيثمى.

٦ – العتق عند الزلزلة:

وكذلك مما يستحب عند الزلزلة العتق قياسا على الكسوف، فلقد روى البخارى عن أسماء بنت أبى بكر (رضى الله عنها) قالت: (لقد أمر النبى ﷺ بالعتاقة فى كسوف الشمس).

٧ – تذكير الناس ووعظهم:

ولقد كان رسول الله ﷺ يخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: **«إن الشمس والقمر هما آيتان لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتموها فافزعوا إلى الصلاة»**.

وفى رواية **«فادعوا الله وكبروا وصلوا حتى يفرج عنكم ، وتصدقوا ، لقد رأيت فى مقامى هذا كل شىء وعدته ، حتى لقد رأيت أن آخذ قطفا من الجنة حين رأيتمونى فعلت أتقدم ، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا حين رأيتمونى تأخرت، ورأيت فيها عمرو بن لحى يجر قصبه (أمعاؤه) وهو أول من سيب**

السوائب ، وقال: يا أمة محمد ، والله ما من أحد أغير من الله من أن يزنى عبده ، أو تزنى أمته ، يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، ثم أمرهم أن يتعوذوا من عذاب القبر».

العلمانيون والزلازل

إن المتابع لما حدث فى الزلزال الذى هز القلوب وأودى بحياة الكثيرين على حين غرة، والذى تناولته وسائل الإعلام بتفسير مادى بحت، يثير العجب حيث أنه كان من المتوقع أن تكون النظرة إلى الحدث بعين المعتبر المتعظ، وذلك أن المؤمن لا يمر عليه آية من آيات الله تعالى إلا مرور المعتبر، حيث قال الله سبحانه:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٣٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢].

ذلك أن من شيم أهل الغفلة والجهل والكفر والإعراض عن آيات الله تعالى مطلقا سواء القرآنية أو الآيات الكونية، قال تعالى:

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

إذ أن انتفاعهم بالآيات معدوم.

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) ﴾ [يونس: ١٠١].

ومن طبيعة هؤلاء التفسير المادى للأحداث والتاريخ والوقائع: ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) ﴾ [الطور: ٤٤].

وليس هناك مجال عندهم لمفهوم الإيمان المقترن بالآية الكونية.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٤ - ٢٥].

ولما كانت نظرتهم إلى الحدث بهذه الصورة المادية البعيدة عن الإيمان، كان علاجهم للمشكلة من هذه الزاوية أيضا.

إذ لما حدث الزلزال اتجهوا للبحث عن خبراء اليابان والمراصد، وأحزمة الزلازل فى العالم - ونحن لا نقلل من شأن العلم الحديث - إذ أن المؤمن يتخذ الأسباب التى أودعها الله فى كونه، ولكنه (أى المؤمن) لا يكتفى بالأسباب فقط، إنما يتجه إلى خالق الأسباب ومبدع الكون الذى إذا قضى أمرا فإنما يقول له: كن فيكون، فيطلب منه العون والمدد حتى لا يتشبه بولد نوح، إذ لما قال له أبوه: يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، كان رده - أى الولد - احتياطات مادية أيضا.

﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود: ٤٣].

فهل نسى العلمانيون - أو تناسوا - بأن القشرة الأرضية تأتمر بأمر الله، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت: ١١].

وكل ما فى الكون طوع أمره جل وعلا، خاضع لعظمته متذلل لجلاله.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج: ١٨].

أمرها فأطاعت وأسجدها فسجدت، وأمسكها تؤدى دورها:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر: ٤١].

فماذا فعل خبراء الزلازل، قالوا: هذا غير متوقع، ومصر خارج حزام الزلازل، ولو فقهوا أن الأرض بيد الله تعالى يحركها كيف يشاء، وفى أى وقت يشاء لأسلموا لله، وأذعنوا لقضائه، ولعلموا أن هذه الزلازل قد جاءنا من حافة بحيرة قارون بالفيوم، وكأن الحق جل وعلا يلفت أنظارنا جميعا إلى نهاية طاغية، ألا وهو قارون الذى نسب الفضل لنفسه، حينما أغدق الله عليه من نعمائه فقال: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨] فكان الجزاء المحتوم:

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٨١].

وانظروا إلى قوم لوط كيف استباحوا الفاحشة وإتيان الرجال دون النساء شهوة وترديا فى حمأة الرذيلة، وانغمسوا فى سكرة الهوى والشهوة، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وجعلهم عبرة لمن يعتبر: حيث قال الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود: ٨٢].

إن ما أصابنا، والذى لم يجد له خبراء الزلازل تفسيرا حتى الآن إن دل فإنما يدل على أن هذا جزاء ما اقترفت أيدينا من حل الربا والخمر، وحرب على شريعة الإسلام، واتخاذ آيات الله هزوا، فحق علينا ما نالنا مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الطلاق: ٨ - ٩].

إن كثيرا من المنكرات ترتكب باسم الفن، والأدب، والحداثة، والعصرية فى الملاهى والفنادق الفاجرة، وفى وسائل الإعلام التى يتمكن فيها العلمانيون فيشوشون على كل مؤمن إيمانه، ويسخرون من كل قيمة إسلامية.

ألم يقرؤوا حديث رسول الله ﷺ الذى رواه البخارى عن أمنا زينب بنت جحش عندما قالت لرسول الله ﷺ : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**».

قال الحافظ (ابن حجر) الخبث: هو الزنا وأولاد الزنا.

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقال آخرون:

إن بلاد كثيرة كأمريكا وأوروبا انتشرت فيها المفاسد الخلقية أضعاف ما عندنا ولا ينطبق عليهم ذلك، بل هم فى نعمة تتلوها نعمة.

نقول وبالله التوفيق:

إن الحق تبارك وتعالى يستدرج أهل الباطل ويملى لهم، ويعطيهم على المعاصى لا حبا لهم ولكن استدراجا حيث يقول عز وجل فى علاه:

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القلم: ٤٤ - ٤٥].

فأما المؤمنون إذا قصروا وعصوا، أصابتهم المصائب والبلايا لتعيدهم إلى سواء السبيل، وبهذا يحبهم الله ويريد أن يعذبهم فى الدنيا دون الآخرة، ولذلك يقول سبحانه:

﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١].

وأخيرا: لقد نبهنا رسول الله ﷺ إلى الزلازل التى تظهر فى الأرض أنها من قرب قيام الساعة، حيث روى البخارى رحمه الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«لا تقوم الساعة حتى يقل العلم ويفشو الجهل وتكثر الزلازل ويفيض المال فلا يقبض»**.

فارجعوا إلى الله واهجروا معاصيكم وتوبوا إلى الله قبل فوات الأوان، والله غفور رحيم.

* * *

الباب الخامس
عذاب الدنيا فى الحدود

لقد خلق الله خيرات ونعماً للعباد، لا تحصى ولا تعد، وأوحى إلى رسله صلوات الله وسلامه عليهم كيفية الانتفاع بهذه الخيرات، وحد حدودا لا يحوز للعبد أن يحيد عنها عند الانتفاع والاستمتاع بهذه النعم والخيرات، ووضح فى كتابه الخاتم وهو القرآن الكريم الحلال والحرام فيها، وأنزل على قلب رسوله وعبده محمد ﷺ التشريعات الإسلامية التى تنظم وتردع كل من يتخطى ويخرج عن الطريق المستقيم فى تعامله واستغلاله للحدود مثل الزنا وشرب الخمر والقتل بأنواعه، والسرقة وغيرها، وبين عقابها وعذابها فى الدنيا.

لهذا وذاك وفقنى ربى إلى تقسيم هذا الباب إلى عدة فصول وهى:

الفصل الأول: عذاب الدنيا فى الزنا.

شروط الإحصان.

الرجم فى التوراة.

ثبوت حد الزنا بالشهود.

الفصل الثانى: عذاب الدنيا والقتل

الآثار المترتبة على القتل.

شروط وجوب القصاص.

الدية.

التعزير.

الفصل الثالث: عذاب الدنيا وشارب الخمر

عذاب الدنيا فى السارق

* * *

الفصل الأول
عذاب الدنيا فى الزنا

والزنا: اسم مشتق من الفعل (زنى) وزناءً: أى أتى المرأة من غير عقد شرعى.

ويقال: زنى بالمرأة: فهو زان، الجمع: زناة، وهى زانية: والجمع: زوان.

وفى القرآن الكريم:

وردت كلمة الزنا فى تسع مواضع: بسورة الإسراء والفرقان والممتحنة والنور، منها:

فى سورة الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وفى سورة النور: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [النور: ٢ - ٣].

الزنا فى القرآن الكريم سابقا:

يقول الله تعالى: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم".

هذه الآية كانت موجودة فى القرآن الكريم على عهد رسول الله ﷺ فنسخت هذه الآية من القرآن الكريم وبقى حكمها حتى الآن.

ولقد روى عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أنه قال: (لولا أن أكره أن يقول الناس: إن عمر زاد فى القرآن ما ليس فيه لكتبت آية الرجم وأثبتها والله لقد قرأتها على عهد رسول الله ﷺ : (لا ترغبوا عن آبائكم فإن ذلك كفر بكم)، رواه أبو جعفر النحاس فى (الناسخ والمنسوخ) ص ١٠.

وروى الزهرى عن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) قال: (خطبنا عمر بن الخطاب، قال: كنا نقرأ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة) قال

أبو جعفر النحاس: إسناد الحديث صحيح.

علاج الزنا فى الإسلام

١- دعا الإسلام إلى الزواج وحبب فيه، لأنه أسلم طريق لتصريف الغريزة الجنسية، وهو الوسيلة المثلى لإخراج سلالة، يقوم على تربيتها الزوجان، ويتعهدانها بالرعاية وغرس عواطف الحب والود والطيبة والرحمة والنزاهة والشرف والإباء وعزة النفس بين الزوج والزوجة.

٢- كما وضع الإسلام الطريقة المثلى لتصريف الغريزة بمنع أى: تصرف غير مشروع وحظر إثارة الغريزة بأى وسيلة من الوسائل، فنهى عن الاختلاط والرقص والصور المثيرة والغناء الفاحش والنظرات المريبة والكلام فى وسائل الاتصال بخلاعة وميوعة فاحشة.

٣- واعتبر الإسلام الزنا جريمة قانونية تستحق أقصى العقوبة لأنه وخيم العاقبة، فالعلاقات الخليعة والاتصال الجنسى غير المشروع يهدد المجتمع بالفناء، والفرد بالضياع.

أضرار الزنا

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

أى لا تفعلوا ما يقرب إلى الزنا: كالنظرة الفاحشة، واللمس والهمس والقبلة، فالآية تنهى عن مقدمات الزنا، فإذا كانت مقدماته محرمة، فهو من باب أولى محرم، وها هى أضراره:

١- الزنا سبب مباشر فى انتشار الأمراض الخطيرة التى تفتك بالأبدان وتنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء، وأبناء الأبناء: كالزهرى والسيلان والقرحة والإيدز.

٢- وهو من أسباب جريمة القتل، إذ أن الغيرة طبيعية فى الإنسان ولا يرضى

الرجل الكريم أو المرأة العفيفة بالانحراف الجنسى، بل إن الرجل لا يجد وسيلة لغسل العار إلا بالدم، وقتل الذى يلحق به أو بأهله أى انحراف جنسى.

٣- الزنا يفسد نظام البيت، ويهز كيان الأسرة ويقطع العلاقة الزوجية ويعرض الأولاد لسوء التربية، مما يسبب التشرد والانحراف والجريمة.

٤- وفى الزنا ضياع النسب وتمليك الأموال لغير أربابها عند التوارث.

٥- إن الزنا علاقة مؤقتة لا تبعة وراءها، فهو عملية حيوانية ينأى عنها الإنسان الشريف.

٦- والزنا فيه تغرير بالزوج، إذ أن الزنا قد ينتج عنه الحمل فيقوم الرجل بتربية أولاد ليست من صلبه ومائه.

٧- الزنا يعمل على رواج المنكر، وبيع الأعراض بالحرام، اتخاذ الخدينات، وإشاعة الفجور، ومروّج للعزوبة، ومشجع للشباب بعدم الزواج الحلال.

٨- وإن الزنا سبب مباشر لغضب الله على الأفراد والمجتمع فيصب عليهم الزلازل والابتلاءات والخراب والدمار بسبب إشاعة الفساد والحرام بينهم.

٩- إن الزنا يهين كرامة المرأة ويضيع قيمتها فى المجتمع ويجعلها سلعة تباع وتشترى لمن يريد من المفسدين الفاجرين.

التدرج فى تحريم الزنا

يرى كثير من الفقهاء أن تقرير عقوبة الزنا، كانت متدرجة كما حدث فى تحريم الخمر، وكما حدث فى تشريع الصيام، فكانت عقوبة الزنا فى أول الأمر:

أولا: الإيذاء بالتوبيخ والتعنيف:

حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ [النساء: ١٦].

ثانيا: الحبس فى البيوت:

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ ﴾ [النساء: ١٥].

ثالثا: جلد البكر مائة ونفى ، ورجم الثيب:

ثم استقر الأمر وجعل الله السبيل فجعل عقوبة الزانى البكر مائة جلدة ونفى من البلد، والثيب الزانى (أى المتزوج) رجمه بالحجارة حتى الموت، وهذا التدريج كان ليرتقى بالمجتمع، ويأخذ به فى رفق وهوادة إلى العفاف والطهر، وحتى لا يشق على الناس هذا الانتقال فلا يكون عليهم فى الدين من حرج.

فلقد روى مسلم وأبو داود والترمذى، من حديث عبادة بن الصامت (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«خذوا عنى: قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة ونفى ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»**.

والظاهر أن آيتى النساء المتقدمتين تتحدثان عن حكم السحاق واللواط وحكمهما يختلف عن حكم الزنا المقرر فى سورة النور.

فالآية الأولى فى السحاق:

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ ﴾ [النساء: ١٥].

أى: والنساء اللاتى يأتين الفاحشة وهى (السحاق) الذى تفعله المرأة مع المرأة فاستشهدوا عليهن أربعة من رجالكم، فإن شهدوا فاحبسوهن فى البيوت بأن توضع المرأة وحدها بعيدة عمن كانت تساحقها، حتى تموت، أو يجعل الله لهن سبيلا إلى الخروج بالتوبة أو الزواج المغنى عن السحاق.

والآية الثانية فى اللواط:

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ [النساء: ١٦].

أى: الرجلان اللذان يأتيان الفاحشة - وهى اللواط - فآذوهما بعد ثبوت ذلك أيضا بالشهادة، فإن تابا قيل إيذائهما بإقامة الحد عليهما، فإن ندما وأصلحا كل أعمالهما وطهرا نفسيهما، فأعرضوا عنهما بالكف عن إقامة الحد عليهما.

الزنا الموجب للحد

إن كل اتصال جنسى قائم على أساس غير شرعى، يعتبر زنا تترتب عليه العقوبة المقررة، حيث إنه جريمة من الجرائم التى حددت عقوبتها.

ويتحقق الزنا الموجب للحد بتغييب الحشفة (رأس الذكر) أو قدرها فى فرج محرم مشتهى بالطبع من غير شبهة نكاح، ولو لم يكن معه إنزال.

فإن كان الاستمتاع بالمرأة الأجنبية فيما دون الفرج، فلا يوجب الحد المقرر لعقوبة الزنا وإن اقتضى التعزير.

فلقد روى مسلم وأبو داود والترمذى عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إنى عالجت امرأة من أقصى المدينة، فأصبت منها دون أن أمسها، فأنا هذا، فأقم علىّ ما شئت، فقال عمر: سترك الله لو سترت نفسك، فلم يرد النبى ﷺ شيئا، فانطلق الرجل فأتبعه النبى ﷺ رجلا (أى ماشيا على رجليه) فدعاه فتلا عليه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود: ١١٤].

فقال له رجل من القوم: يا رسول الله، أله خاصة، أم للناس عامة، فقال: **«للناس عامة»**.

حد البكر

اتفق الفقهاء: على أن البكر الحر إذا زنى فإنه يجلد مائة جلدة سواء كان ذلك فى الرجال والنساء، لقول الله تعالى:

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور: ٢].

الجمع بين الجلد والتغريب:

إن الفقهاء وإن اتفقوا على وجوب الجلد للبكر، فإنهم اختلفوا فى إضافة التغريب (النفى) إليه.

وإليك يا عزيزى القارئ: رأى الشافعية، والمالكية، والأحناف.

رأى الشافعى وأحمد:

قال الشافعى وأحمد: يجمع إلى الجلد التغريب لمدة عام، استنادا لما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة (ر ضى الله عنه):

(أن رجلا من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لى بكتاب الله، وقال الخصم الآخر، وهو أفقه منه: نعم، فاقض بيننا بكتاب الله، وائذن لى، فقال رسول الله ﷺ : **«قل»**، قال: إن ابنى كان عسيفا (أى أجيرا) على هذا فزنى بامرأته، وإنى أخبرت أن على ابنى الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبرونى أن على ابنى جلد وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم.

فقال رسول الله ﷺ :

«والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغد يا أنيس (رجل من أسلم) **إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها»**، قال: فغدا عليها فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت.

وروى البخارى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ (قضى فيمن

زنى ولم يحصن، بنفى عام وإقامة الحد عليه).

وأخرج مسلم عن عبادة بن الصامت (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»**.

وقد أخذ بالتغريب الخلفاء الراشدون، ولم ينكره أحد، فأبو بكر الصديق (رضى الله عنه) غرب إلى فدك، والفاروق عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) غرب إلى الشام، وعثمان ابن عفان (رضى الله عنه) غرب إلى مصر، وعلى بن أبى طالب (رضى الله عنه) غرب إلى البصرة.

والشافعية يرون: أنه لا ترتيب بين الجلد والتغريب، فيقدم ما شاء منهما واشترط فى التغريب أن يكون إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، لأن المقصود منه الإيحاش عن أهله ووطنه.

وإذا غربت المرأة فإنها لا تغرب إلا بمحرم أو زوج، فلو لم يخرج إلا بأجره لزمت، وتكون من مالها.

رأى مالك والأوزاعى:

قال الإمام مالك والأوزاعى: يجب تغريب البكر الحر الزانى، دون المرأة البكر الحرة الزانية، فإنها لا تغرب لأن المرأة عورة.

رأى أبو حنيفة:

وقال الإمام أبو حنيفة النعمان: لا يضم إلى الجلد التغريب، إلا أن يرى الحاكم ذلك مصلحة، فيغربها على قدر ما يرى.

حد المحصن

وأما المحصن الثيب (أى المتزوج) فقد اتفق الفقهاء على وجوب رجمه بالحجارة الضخام، إذا زنى حتى يموت، واستدلوا على رأيهم بما هو آت:

١- روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: (أتى رجل رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فناداه فقال: يا رسول الله، إنى زنيت، فأعرض عنه - ردد عليه أربع مرات - فلما شهد على نفسه أربع شهادات، دعاه النبى ﷺ فقال: **«أبك جنون»**، قال: لا، قال: **«فهل أحصنت»**، قال: نعم، فقال النبى ﷺ : **«اذهبوا به فارجموه»**.

قال ابن شهاب:

فأخبرنى من سمع جابر بن عبد الله، قال: كنت فيمن رجمه، فرجمناه بالمصلى، فلما أزلقته بالحجارة هرب، فأدركناه بالحرة، فرجمناه).

(وهو دليل على أن الإحصان يثبت بالإقرار مرة، وأن الجواب بنعم إقرار).

٢- وروى البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: خطب عمر بن الخطاب فقال:

(إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه: آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا، وإنى خشيت إن طال زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم فى كتاب الله تعالى).

وقال أبو أمامة بن سهل، عن خالته العجماء، (إن فيما أنزل الله من القرآن (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة) أخرجه أحمد والطبرانى فى الكبير.

وأخرج ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى بن كعب (رضى الله عنه) بلفظ: (كانت سورة الأحزاب توازى سورة البقرة، وكان فيها آية: (الشيخ والشيخة...) إلى آخر الحديث السابق.

شروط الإحصان

يشترط فى المحصن (أى المتزوج) الشروط الآتية:

١ – التكليف:

أى أن يكون الواطئ عاقلا بالغا، فلو كان مجنونا أو صغيرا فإنه لا يحد، ولكن يعزر.

٢ – الحرية:

فلو كان الواطئ عبدا أو أمة، فلا رجم عليهما، لقوله الله سبحانه وتعالى فى حد الإماء:

﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النساء: ٢٥].

والرجم لا يتجزأ.

٣ – الوطء فى نكاح صحيح:

أى أن يكون الواطئ قد سبق له أن تزوج زواجا صحيحا، ووطأ فيه ولو لم ينزل، ولو كان فى حيض، أو إحرام يكفى، فإن كان الوطء فى نكاح فاسد فإنه لا يحصل به الإحصان، ولا يلزم بقاء الزواج لبقاء صفة الإحصان.

فلو تزوج رجل امرأة زواجا صحيحا، ودخل بزوجته، ثم انتهت العلاقة الزوجية ثم زنى وهو غير متزوج فإنه يرجم، وكذلك المرأة إذا تزوجت ثم طلقت فزنت بعد طلاقها فإنها تعتبر محصنة وترجم.

المسلم والكافر سواء:

وكما يجب الحد على المسلم إذا ثبت منه الزنا، فإنه يجب على الذمى والمرتد، لأن الذمى قد التزم بالأحكام التى تجرى على المسلمين.

وقد ثبت أن النبى ﷺ رجم يهوديين زنيا، وكانا محصنين.

وأما المرتد: فإن جريان أحكام الإسلام تشمله، ولا يخرج الارتداد عن تنفيذها عليه.

فلقد روى البخارى ومسلم، عن ابن عمر (رضى الله عنهما) أن اليهود أتوا النبى ﷺ برجل وامرأة منهم قد زنيا، فقال: «**ما تجدون فى كتابكم؟**» فقال: تُسخم وجوههما ويخزيان، قال: «**كذبتم ، إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين**».

وجاءوا بقارئ لهم، فقرأ حتى انتهى إلى موضع فيها، وضع يده عليه، فقيل له: ارفع يدك، فرفع يده فإذا هو تلوح، فقال - أو - قالوا: يا محمد، إن فيها الرجم، ولكنا كنا نتكاتمه بيننا، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال: فلقد رأيته يحنأ عليها يقيها الحجارة بنفسه.

وروى مسلم وأحمد وأبو داود، عن البراء بن عازب (رضى الله عنه) قال:

(مر على النبى ﷺ بيهودى محمم مجلود، فدعاهم فقال: «**أهكذا تجدون حد الزنا فى كتابكم؟**»، قالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم فقال: «**أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى: أهكذا تجدون حد الزنا فى كتابكم؟**»،

قال: لا... ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك بحد الزنا، ولكن كثر فى أشرافنا وكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا، لنجمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم.

فقال النبى ﷺ : «**اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم ، فأنزل الله عز وجل:**

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة: ٤١].

يقولـون: ائتـوا محمـدا، فـإن أمـركم بـالتحميم والجلـد فخـذوه، وإن أفتـاكم بـالرجم فاحذروا، فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

الرجم فى التوراة

وهناك نص خاص بحكم الرجم فى التوراة: جاء فى سفر التثنية:

(إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل، يقتل الاثنان، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة فينزع السر من إسرائيل.

وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فوجدها رجل بالمدينة فاضطجع فأخرجوهما كليهما من المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه فينزع الشر من المدينة) النص من كتاب فلسفة العقوبة.

الجمع بين الجلد والرجم

ذهب ابن حزم وإسحاق بن راهويه، ومن التابعين الحسن البصرى: إلى أن المحصن يجلد مائة ثم يرجم حتى يموت، فيجمع لـه بين الجلد والرجم.

فلقد روى مسلم وأبو داود والترمذى من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: **«خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»**.

وعن على (كرم الله وجهه) أنه جلد شراحة يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة، فقال: أجلدهما بكتاب الله وأرجمهما بقول رسول الله ﷺ.

وقال أبو حنيفة ومالك والشافعى: لا يجتمع الجلد والرجم عليهما، بل الجلد خاصة.

وعن الإمام أحمد روايتان: أحدهما يجمع بينهما، والأخرى: لا يجمع بينهما لمذهب الجمهور.

واستدلوا بأن النبى ﷺ : رجم ماعزاً والغامدية، واليهوديين، ولم يجلد واحداً منهما. وقال لأنيس السلمى: **«فإن اعترفت فارجمها»**، ولم يأمر بالجلد.

شروط حد الزنا

يشترط فى إقامة حد الزنا، أربعة شروط هى:

١ - العقل. ٢ - البلوغ

٣ - الاختيار. ٤ - العلم بالتحريم.

فلا حد على صغير (إنما يؤدب تأديبا زاجرا) - ولا على المجنون، ولا على مكره، فلقد روى أحمد وأصحاب السنن والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين وحسنه الترمذى عن عائشة (رضى الله عنها) أن النبى ﷺ قال: **«رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق»**.

أما العلم بالتحريم: فلأن الحد يتبع اقتراف الحرام، وهو غير مقترن به، وراجع النبى ﷺ ماعزا، فقال له: **«هل تدرى ما الزنا»**.

وروى أن جارية سوداء، رفعت إلى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وقيل: إنها زنت، فخفقها بالدرة خفقات، وقال: (أى لكاع.. زنيت، فقالت: من غواش (اسم الرجل الذى زنى بها) بدرهمين، فقال عمر: ما ترون ؟ وعنده: على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، فقال على (رضى الله عنه): أرى أن ترجمها، وقال عبد الرحمن: أرى مثل ما رأى أخوك، فقال عثمان (رضى الله عنه): أراها تستسهل بالذى صنعت، لا ترى به بأسا، إنما حد الله على من علم أمر الله عز وجل، فقال: صدقت).

بم يثبت الحد

يثبت حد الزنا بأحد أمرين: الإقرار، أو الشهود.

ثبوته بالإقرار:

أما الإقرار فهو كما يقولون: (الإقرار سيد الأدلة) وقد أخذ الرسول ﷺ باعتراف ماعز والغامدية، ولم يختلف فى ذلك أحد من الأئمة وإن اختلفوا فى عدد مرات الإقرار الذى يلزم به الحد.

فقال مالك والشافعى، وداود، والطبرى، وأبو ثور: يكفى فى لزوم الحد اعترافه به مرة واحدة.

لما رواه أبو هريرة، وزيد بن خالد: أن رسول الله ﷺ قال: **«... اغد يا أنيس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها»**، فاعترفت فرجمها.

ولم يذكر عدد مرات الاعتراف.

وعند الأحناف قالوا: (إنه لابد من أقارير أربعة مرة بعد مرة فى مجالس متفرقة).

ومذهب أحمد وإسحاق: قالوا مثل الأحناف، إلا أنهم لم يشترطوا المجالس المتفرقة.

والمذهب الأول: هو الأرجح، أى اعتراف مرة واحدة، والله أعلم.

الرجوع عن الإقرار يسقط الحد:

ذهبت الشافعية والحنفية وأحمد إلى أن الرجوع عن الإقرار يسقط الحد، فلقد روى أحمد والترمذى من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) أن ماعزا لما وجد مس الحجارة يشتد، فر حتى مر برجل معه لحى جمل (عظم الحنك) فضربه به، وضربه الناس حتى مات).

فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«هلا تركتموه»**.

وأخرج أبو داود والنسائى من حديث جابر نحوه وزاد: (إنه لما مس الحجارة صرخ وقال: يا قوم ردونى إلى رسول الله ﷺ : فإن قومى قتلونى وغرونى من نفسى

وأخبرونى أن رسول الله قاتلى، فلم ننزع عنه حتى قتلناه، فلما رجعنا إلى رسول الله ﷺ وأخبرناه، قال: «**فهلا تركتموه وجئتمونى به**».

من أقر بزنى امرأة فجحدت:

إذا أقر الرجل بزنى امرأة معينة، فجحدت، فإنه يقام عليه الحد وحده، ولا تحد هى.

فلقد روى أحمد وأبو داود عن سهل بن سعد: أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: إنه قد زنى بامرأة سماها، فأرسل النبى ﷺ إلى المرأة، فسألها فأنكرت فحده وتركها، وهذا هو حد الزنا الذى أقر به.

ثبوت حد الزنا بالشهود

عرفنا بعون الله أن حد الزنا يثبت بأحد الأمرين: الإقرار أو الشهود، وتكلمنا فى الإقرار، وعرفنا أن الاعتراف (سيد الأدلة) وها نحن الآن نشرح بفضل الله: ثبوت حد الزنا بالشهود.

ونقول:

الاتهام بالزنى سيئ الأثر فى سقوط الرجل والمرأة، وضياع كرامتهما، وإلحاق العار بهما، وبأسرتيهما وذريتهما، ولهذا شدد الإسلام فى إثبات هذه الجريمة، حتى يسد السبيل على الذين يتهمون الأبرياء - جزافا أو لأدنى حزازة - بعار الدهر وفضيحة الأسرة.

فاشترط فى الشهادة على الزنا الشروط الآتية، وهى عشرة شروط:

١ - أن يكون الشهود أربعة.

٢ - البلوغ.

٣ - العقل.

٤ - العدالة.

٥ - الإسلام.

٦ - المعاينة.

٧ - التصريح.

٨ - اتحاد المجلس.

٩ - الذكورة.

١٠ - عدم التقادم.

وإليك يا عزيزى القارئ شرح وتوضيح كل شرط على حدة.

١ – أن يكون الشهود أربعة:

وهذا الشرط بخلاف الشهادة على سائر الحقوق، حيث يقول الله تعالى:

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ ﴾ [النساء: ١٥].

فإن كان الشهود أقل من أربعة لم تقبل الشهادة.

وهل يحد الشهود بحد القذف إذا شهدوا:

قال الأحناف ومالك والراجح من مذهب الشافعى وأحمد، قالوا: نعم.

لأن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) حد الثلاثة الذين شهدوا على المغيرة وهم: أبو بكرة، ونافع، وشبل بن معبد.

وقيل: لا يحدون حد القذف، لأن قصدهم أداء الشهادة، لا قذف المشهود عليهم وهو المرجوح عند الشافعية والحنفية ومذهب الظاهرية.

٢ – البلوغ:

حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فإن لم يكن الشاهد بالغا، فلا تقبل الشهادة لأنه ليس من الرجال، ولا ممن ترضون شهادته، حتى ولو كانت حالته تمكنه من أداء الشهادة على وجهها، لقول رسول الله ﷺ : **«رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبى حتى يبلغ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق»**، والصبى ليس أهلا لأن يتولى حفظ ماله، فلا يتولى على غيره، لأن الشهادة من باب الولاية.

٣ – العقل:

فلا تقبل شهادة مجنون ولا معتوه للحديث السابق، وإذا كانت شهادة الصبى لا تقبل

لنقصان عقله، فأولى ألا تقبل شهادة المجنون والمعتوه.

٤ – العدالة:

يقول الله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ [الطلاق: ٢].

٥ – الإسلام:

سواء كانت الشهادة على مسلم أو غير مسلم، فشهادة المسيحى واليهودى أو أى ديانة أخرى لا تقبل.

٦ – المعاينة:

أى أن تكون بمعاينة فرجه فى فرجها، كالميل فى المكحلة، والرشا فى البئر لأن الرسول ﷺ قال لماعز: **«لعلك قبلت، أو غمزت أو نظرت»**، فقال: لا يا رسول الله، فسأله صلوات الله وسلامه عليه باللفظ الصريح لا يكنى، قال: نعم، قال: **«كما يغيب المرود فى المكحلة، والرشا فى البئر»**، قال: نعم.

٧ – التصريح:

وأن يكون التصريح بالإيلاج لا يكون بالكناية، كما تقدم فى الحديث السابق.

٨ – اتحاد المجلس:

يرى جمهور الفقهاء: أن من شروط شهادة الشهود لإثبات حد الزنا اتحاد المجلس الذى يشهدون فيه، بأن لا يختلف فى الزمان، ولا فى المكان، فإن جاؤوا متفرقين، لا تقبل شهادتهم.

ويرى الشافعية والظاهرية والزيدية: عدم اشتراط هذا الشرط، فإن شهدوا مجتمعين أو متفرقين فى مجلس واحد، أو فى مجالس متفرقة فإن شهادتهم تقبل، لأن الله تعالى ذكر الشهود ولم يذكر المجلس ولأن كل شهادة مقبولة، تقبل إن اتفقت ولو تفرقت فى مجالس كسائر الشهادات.

٩ – الذكورة:

ويشترط فى شهود الزنا أن يكونوا جميعا من الرجال، ولا تقبل شهادة النساء.

ويرى ابن حزم: أنه يجوز أن يقبل فى الزنا شهادة امرأتين مسلمتين عدل مكان كل رجل، فيكون الشهود: ثلاثة رجال وامرأتين - أو رجلين وأربع نسوة، أو رجلا واحدا وست نسوة، أو ثمان نسوة لا رجال فيهم.

١٠ – عدم التقادم:

لقول عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): أيما قوم شهدوا على حد الزنا لم يشهدوا عند حضرته، فإنما شهدوا على ضغن، ولا شهادة لهم.

فإذا شهد الشهود على حادث الزنا بعد أن تقادم فإن شهادتهم لا تقبل عند الأحناف، ويحتجون بأن الشاهد إذا شهد الحادث مخير بين أداء الشهادة حِسبة وبين التستر على الجانى، فإذا سكت عن الحادث حتى قدم عليه العهد دل ذلك على اختيار جهة التستر، فإذا شهد بعد ذلك فهو دليل على أن الضغينة هى التى حملته على الشهادة، ومثل هذا لا تقبل شهادته.

هذا: ما لم يكن هناك عذر يمنع الشاهد من تأخير الشهادة.

فإذا كان هناك عذر ظاهر فى تأخير الشهادة كبعد المسافة عن محل القاضى، أو كمرض الشاهد، أو نحو ذلك من الموانع، حينئذ تقبل الشهادة ولا تبطل بالتقادم.

والأحناف الذين قالوا بهذا الشرط لم يقدروا له أمدا، بل فوضوا الأمر للقاضى يقدره تبعا لظروف كل حالة، لتعذر التوقيت نظرا لاختلاف الأعذار.

وبعض الأحناف: قدروا التقادم بشهر، وبعضهم قدره بستة أشهر، أما جمهور الفقهاء قالوا: إن التقادم لا يمنع من قبول الشهادة مهما كانت متأخرة.

هل للقاضى أن يحكم بعلمه ؟

يرى الظاهرية أنه فرض على القاضى أن يقضى بعلمه فى الدماء والقصاص والأموال والفروج والحدود، سواء علم ذلك قبل ولايته، أو بعد ولايته، وأقوى ما حكم بعلمه لأنه يقين الحق، ثم بالإقرار، ثم البينة، لقول الله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقول الرسول ﷺ : **«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع...»**.

فصح أن القاضى عليه أن يقوم بالقسط، وليس من القسط أن يترك الظالم على ظلمه لا يغيره، وعلى القاضى أن يغير كل منكر علمه بيده، وأن يعطى كل ذى حق حقه، وإلا فهو ظالم.

أما جمهور الفقهاء:

فإنهم يرون أنه ليس للقاضى أن يقضى بعلمه، ولقد قال أبو بكر (رضى الله عنه): (لو رأيت رجلا على حد، لم أحده حتى تقوم البينة عندى).

ولأن القاضى كغيره من الأفراد، لا يجوز له أن يتكلم بما شهده، ما لم تكن لديه البينة الكاملة. ولو رمى القاضى زانيا بما شهده منه، وهو لا يملك على ما يقول البينة الكاملة لكان قاذفا يلزمه حد القذف، لقول الله تعالى: ﴿ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣].

هل ثبت الحد بالحبل

ذهب الجمهور، إلى أن مجرد الحبل لا يثبت به الحد، بل لابد من الاعتراف أو البينة، واستدلوا على هذا بالأحاديث الواردة فى درء الحدود بالشبهات.

فعن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) أنه قال لامرأة حبلى: (استكرهت، قالت: لا، قال: فلعل رجلا أتاك فى نومك...)

قالوا: وروى الإثبات عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أنه قبل قول امرأة ادعت أنها ثقيلة النوم، وأن رجلا طرقها، ولم تدر من هو بعد.

وأما مالك وأصحابه:

قالوا: إذا حملت المرأة ولم يعلم لها زوج، ولم يعلم أنها أكرهت فإنها تحد.

قالوا: فإن ادعت الإكراه، فلابد من الإتيان بأمارة تدل على استكراهها، وكذلك إذا ادعت الزوجية، فإن دعواها لا تقبل، إلا أن تقيم على ذلك البينة، واستدلوا لمذهبهم بقول عمر (رضى الله عنه): (الرجم واجب على كل من زنى من الرجال والنساء إذا كان محصنا، إذا كانت بينة، أو الحمل أو الاعتراف).

وقال على (كرم الله وجهه):

(يا أيها الناس، إن الزنا زنيان: زنا سر، وزنا علانية، فزنا السر أن يشهد الشهود، فيكون الشهود أول من يرمى، وزنا العلانية أن يظهر الحبل والاعتراف.

قالوا: هذا قول الصحابة، ولم يظهر لهم مخالف فى عصرهم، فيكون إجماعا.

سقوط الحد بظهور ما يقطع بالبراءة

إذا ظهر بالمرأة أو بالرجل ما يقطع بأنه لم يقع من أحد منهما زنا، كأن تكون المرأة عذراء لم تفض بكارتها، أو رتقاء مسدودة الفرج أو يكون الرجل مجبوبا، أو عنينا سقط الحد.

المجبوب: من ليس لـه عضو ذكورة.

والعنين: هو الرجل الذى لا يقدر على الجماع.

وقد بعث رسول الله ﷺ لقتل رجل كان يدخل على إحدى النساء، فذهب فوجده يغتسل فى ماء، فأخذه بيده فأخرجه من الماء ليقتله فرآه مجبوبا، فتركه ورجع إلى النبى ﷺ وأخبره بذلك.

الولد يأتى لستة أشهر

إذا تزوجت المرأة، وجاءت بولد لستة أشهر منذ زواجها، فلا حد عليها.

قال مالك: بلغنى أن عثمان بن عفان (رضى الله عنه) أتى بامرأة قد ولدت فى ستة أشهر، فأمر بها أن ترجم، فقال لـه على بن أبى طالب: ليس ذلك عليها، إن الله تعالى

يقــول: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥].

ويقول سبحانه: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤].

فالحمل يكون ستة أشهر فلا رجم عليها، فبعث عثمان فى إثرها، فوجدها قد رجمت.

وقت إقامة الحد

قال جمهور العلماء: لا يقام الحد فى الحر الشديد، أو البرد، ولا يقام على المريض حتى يشفى والحبلى لا ترجم حتى تضع وترضع ولدها، إن لم يوجد من يرضعه، فعن على (رضى الله عنه) قال: إن أمة لرسول الله ﷺ زنت، فأمرنى أن أجلدها، فأتيتها فإذا هى حديثة عهد بنفاس فخشيت أن أجلدها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال: **«أحسنت، اتركها حتى تماثل»** رواه مسلم وأحمد.

الوطء الخطأ وحكمه

هناك أنواع من الزنا تقع بين الرجل والمرأة، ويختلف حكم الحد فيها حسب كل حالة، وحسب الظروف التى وقعت فيها، وها هى بعضها كالآتى:

١ – الوطء بالإكراه:

إذا أكرهت المرأة على الزنا، فإنه لا حد عليها، لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وحديث الرسول ﷺ إذ يقول : **«رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»**.

وقد استكرهت امرأة على عهد رسول الله ﷺ، فدرأ عنها الحد.

وجاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فذكرت له: أنها استسقت راعيا، فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها، ففعلت، فقال لعلى بن أبى طالب: ما ترى فيها ؟ قال: إنها مضطرة، فأعطاها شيئا وتركها).

٢ – الخطأ فى الوطء:

إذا زفت إلى رجل امرأة غير زوجته، وقيل له: هذه زوجتك فوطئها، يعتقدها زوجته، فلا حد عليه، باتفاق العلماء.

وكذلك الحكم: إذا لم يقل له هذه زوجتك، أو وجد على فراشه امرأة ظنها امرأته فوطئها، أو دعا زوجته فجاءت غيرها، فظنها المدعوة فوطئها فلا حد عليه.

وهكذا الحكم فى كل خطأ فى وطء مباح.

أما الخطأ فى الوطء المحرم، فإنه يوجب الحد، فمن دعا امرأة محرمة، فأجابته غيرها فوطء يظنها المدعوة فعليه الحد.

فإن دعا امرأة محرمة عليه فأجابته زوجته فوطأها يظنها الأجنبية التى دعاها، فلا حد عليه وإن أثم باعتبار ظنه.

٣ – بقاء البكارة:

وعدم زوال البكارة يعتبر شبهة فى حق المشهود عليها بالزنى، عند أبى حنيفة النعمان والشافعى والإمام أحمد بن حنبل والشيعة الزيدية.

فإذا جاء أربعة على امرأة بالزنى وشهد ثقات من النساء بأنها عذراء فلا حد عليها، ولا حد على الشهود.

٤ – الوطء فى نكاح مختلف فيه:

ولا يجب الحد فى نكاح مختلف فى صحته، مثل زواج المتعة، والشغار وزواج التحليل، والزواج بلا ولى ولا شهود، وزواج الأخت فى عدة أختها البائن، وزواج الخامسة فى عدة الرابعة البائن.

لأن الاختلاف بين الفقهاء على صحة هذا الزواج يعتبر شبهة فى الوطء، والحدود تدرأ بالشبهات، خلافا للظاهرية.

إذ أن الظاهرية: يرون أن الحد يقام فى كل وطء قام على نكاح باطل أو فاسد.

معنى الشغار والتحليل

نكاح الشغار: فسره أبو هريرة (رضى الله عنه) بقوله: أن يقول الرجل: زوجنى ابنتك، وأزوجك ابنتى - أو زوجنى أختك وأزوجك أختى.

ولا يكون بينهما مهر سوى هذه المبادلة، فلقد روى الجماعة عن نافع عن ابن عمر (رضى الله عنهما) أن رسول الله ﷺ نهى عن الشغار، رواه مسلم وأحمد.

نكاح التحليل:

إذا طلق الرجل زوجته الطلاق الثالث، فلا تحل له فيقوم الرجل ويزوج هذه الزوجة لرجل ويعقد عليها، ثم يأمره أن يطلقها الزوج الجديد، لكى تحل للزوج القديم، وهذا زنى التيس، وهو محرم باتفاق الفقهاء.

٥ – الوطء فى نكاح باطل:

كل زواج مجمع على بطلانه: كزواج الخامسة زيادة على الأربع، أو متزوجة، أو معتدة الغير، أو نكاح المطلقة ثلاثا قبل أن تتزوج رجلا آخر، إذا وطئ فيه، فهو زنى موجب للحد، ولا عبرة بوجود العقد ولا أثر له.

الأعمال التى تعتبر زنا

١ – المرأة المتعطرة لغير زوجها:

أخرج البيهقى فى (السنن الكبرى) من طريق عبد الرحمن بن الحارث بن أبى عبيد من أشياخ كوثى مولى أبى رهم الغفارى قال:

(خرجت مع أبى هريرة (رضى الله عنه) من المسجد ضحى، فلقيتنا امرأة بها من العطر شىء لم أجد بأنفى مثله قط، قال لها أبو هريرة: عليك السلام،

فقالت: وعليك، قال: فأين تريدين ؟ قالت: المسجد، قال: ولأى شىء تطيبت بهذا الطيب، قالت: للمسجد، قال: آلله، قالت: آلله، قال: آلله، قالت: آلله، قال: فإن حبى أبا القاسم أخبرنى : **«إنه لا تقبل لامرأة صلاة تطيبت لغير زوجها ، حتى تغتسل منه غسلها من الجنابة ، فاذهبى فاغتسلى منه، ثم ارجعى فصلى»**، حديث (١٠٣١) صحيح الجامع للألبانى، أخرجه أبو داود، وقال ابن أبى حاتم: لا بأس به.

٢ – زنى الأعضاء:

روى مسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: **«كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا ، مدرك ذلك لا محالة: العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»**، الحديث متفق عليه، واللفظ لمسلم.

٣ – خيانة زوجة المجاهد:

روى مسلم عن بريدة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : **«حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتكم ، ما من رجل من القاعدين يخلف رجلا من المجاهدين فى أهله، فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى»**، ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: **«ما ظنكم؟»**.

* * *

الفصل الثانى
عذاب الدنيا والقتل

لقد جاء الإسلام إلى الدنيا، ليحمى البشر والبشرية من الاعتداء على أجساد الناس والحفاظ على أرواحهم من الضياع والقتل، وحد الله حدودا صارمة لكل من يحاول انتهاك هذه الحدود، فكان من العذاب فى الدنيا القتل بأنواعه للمقتول فيما يصيبه، وللقاتل وما يتلقاه من جزاء وعقاب جرمه.

أنواع القتل

والقتل ثلاثة أنواع: قتل عمد، وقتل شبه عمد، وقتل خطأ.

وفيما يلى الشرح والتفصيل لكل نوع منها مع بيان حكم الله تعالى فى القاتل.

القتل العمد

فالقتل العمد: هو أن يقصد المكلف قتل إنسان معصوم الدم (أى يستحق القتل شرعا) بما يغلب على الظن أنه يقتل به، ونفهم من هذا التعريف: أن جريمة القتل لا تتحقق إلا بشرط:

شروط القتل العمد:

١- أن يكون القاتل عاقلا بالغا قاصدا، فلقد روى أحمد وأبو داود والترمذى من حديث على بن أبى طالب (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: **«رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم»**.

أما اعتبار العمد: فلقد روى أبو داود والنسائى وابن ماجه والترمذى وصححه من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: (قتل رجل فى عهد رسول الله ﷺ، فرفع ذلك إلى النبى ﷺ فدفعه إلى ولى المقتول، فقال القاتل: يا رسول الله، والله ما أردت قتله،

فقال النبى ﷺ للولى: **«أما إنه إن كان صادقا ثم قتلته دخلت النار»**، فخلاه الرجل وكان مكتوفا بنسعة (أى سير من الجلد) فخرج يجر نسعته، قال: فكان يسمى (ذا النسعة).

وروى أبو داود: أن رسول الله ﷺ قال: **«العمد قود ، إلا أن يعفو ولى المقتول»**

معنى القود: (سمى قودا؛ لأن الجانى يقاد إلى أولياء المقتول، فيقتلونه به إن شاؤوا).

وروى ابن ماجه: أن رسول الله ﷺ قال: **«من قتل عامدا فهو قود ، ومن حال بينه وبينهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل لله منه صرفا ولا عدلا»**.

٢- أن يكون المقتول آدميا، ومعصوم الدم (أى أن دمه غير مباح)

٣- أن تكون الأداة التى استعملت فى القتل مما يقتل بها غالبا.

فإذا لم تتوفر هذه الأركان الثلاثة، فإن القتل لا يعتبر قتلا عمدا.

أداة القتل:

ويشترط فى أداة القتل: أنها تكون مما يقتل بها غالبا سواء كانت محددة أم متلفة لتماثلها فى إزهاق الأرواح، فلقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ (رضّ (كسّر) رأس يهودى بين حجرين) وكان ذلك قد فعل بجارية من الجوارى.

ومن هذا القبيل: الإحراق بالنار، والإغراق بالماء، والإلقاء من شاهق وإلقاء حائط عليه، ومنع الطعام والشراب عنه حتى يموت جوعا، أو تقديمه لحيوان مفترس.

ومنه ما إذا شهد الشهود على إنسان معصوم الدم بما يوجب قتله، ثم بعد قتله يرجعون عن الشهادة ويقولون: تعمدنا قتله، فهذه كلها من الأدوات التى غالبا ما تقتل، ومن قدم طعاما مسموما لغيره، وهو يعلم أنه مسموم دون أكله فمات به، اقتص منه.

فلقد روى البخارى ومسلم: أن يهودية سمت النبى ﷺ فى شاة فأكل منها لقمة ثم لفظها، وأكل معه بشر بن البراء، فعفا عنها النبى ﷺ ولم يعاقبها، أى أنه عفا عنها قبل أن تحدث الوفاة لواحد مما أكل، فلما مات بشر بن البراء قتلها به.

القتل شبه العمد

والقتل شبه العمد: هو أن يقصد المكلف قتل إنسان معصوم الدم بما لا يقتل عادة، كأن يضربه بعصا خفيفة، أو حجر صغير، أو لكزة بيده، أو سوط، ونحو ذلك، فإن الضرب بعصا خفيفة أو حجر صغير ضربة أو ضربتين فمات من ذلك الضرب، فهو قتل شبه عمد، وهذا مذهب أبى حنيفة والشافعى وجماهير الفقهاء.

أما الإمام مالك والليث والهادوية: اختلفوا عن المذهب السابق وقالوا:

(إن القتل إذا كان بآلة لا يقصد بمثلها القتل غالبا: كالعصا والسوط واللطمة، فإنه يعتبر عمدا، وفيه القصاص، إذ أن الأصل عندهم عدم اعتبار الآلة فى إزهاق الروح، فكل ما أزهق الروح أوجب القصاص).

فإن كان الضرب فى مقتل، أو كان المضروب صغيرا، أو كان مريضا، يموت من مثل هذا الضرب غالبا أو كان الضارب قويا، غير أن الضارب استمر فى الضرب حتى مات، فإنه يكون عمدا.

وسمى بشبه العمد: لأن القتل متردد بين العمد والخطأ، إذ أن الضرب مقصود، والقتل غير مقصود، ولهذا أطلق عليه شبه العمد، فهو ليس عمدا محضا، ولا خطأ محضا، ولما لم يكن عمدا محضا سقط القود لأن الأصل صيانة الدماء فلا تستباح إلا بأمر بيّن، ولما لم يكن خطأ محضا لأن الضرب مقصود بالفعل دون القتل، وجبت فيه دية مغلظة.

فلقد روى الدارقطنى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن النبى ﷺ قال: **«العمد قود اليد والخطأ عقل لا قود فيه ، ومن قتل فى عمية بحجر أو عصا أو سوط ، فهو دية مغلظة فى أسنان الإبل»**.

وأخرج أحمد وأبو داود، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (رضى الله عنهم) أن النبى ﷺ قال: **«عقل شبه العمد مغلظ ، كعقل العمد ، ولا يقتل صاحبه ، وذلك أن ينزوى الشيطان بين الناس فتكون الدماء فى غير ضغينة ولا حمل سلاح»**.

وأخرج أحمد وأبو داد والنسائى أن النبى ﷺ خطب يوم فتح مكة فقال: **«... ألا وإن قتيل خطأ العمد بالسوط والعصا والحجر»**.

القتل الخطأ

القتل الخطأ: هو أن يفعل المكلف ما يباح له فعله، كأن يرمى صيدا، أو يقصد غرضا فيصيب إنسانا معصوم الدم فيقتله، وكأن يحفر بئرا فيتردى فيها إنسان، أو ينصب شبكة - حيث لا يجوز - فيعلق بها رجل فيقتل، ويلحق بالخطأ: القتل العمد الصادر من غير مكلف كالصبى المجنون.

الآثار المترتبة على القتل

إن القتل بأنواعه: العمد وشبه العمد والخطأ، لكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة آثار تترتب عليه، وفيما يلى يا عزيزى القارئ أثر كل نوع:

موجب القتل الخطأ:

إن القتل الخطأ يوجد أمرين:

أحدهما: الدية المخففة على العاقلة، مؤجلة فى ثلاث سنين، وسيأتى التوضيح حين الكلام على الدية.

وثانيهما: الكفارة.

والكفارة: هو عتق رقبة مؤمنة سليمة من العيوب المخلة بالعمل والكسب، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، لقول الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ

مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [النساء: ٩٢].

وإذا قتل جماعة رجلا خطأ، فقال جمهور العلماء: (على كل واحد منهم الكفارة) وقال جماعة: (عليهم كلهم كفارة واحدة).

الحكمة من الكفارة:

قال القرطبى (رحمه الله): واختلفوا فى معناها، فقيل: أوجبت تمحيصا وتطهيراً لذنب القاتل، وذنبه ترك الاحتياط والتحفظ حتى هلك على يديه امرؤ محقون الدم.

وقيل: أوجبت بدلا من تعطيل حق الله تعالى فى نفس القتيل، فإن كان له فى نفسه حق وهو التنعم بالحياة، والتصرف فيما أحل له تصرف الأحياء، وكان لله سبحانه فيه حق، وهو إن كان عبدا مسلما كان أو ذميا، ما يتميز به عن البهائم والدواب - وترتجى مع ذلك - أن يكون من نسله من يعبد الله ويطيعه، فلم يخل قاتله من أن يكون فوّت منه الاسم الذى ذكرنا، والمعنى الذى وصفنا فلذلك ضمن الكفارة.

وأى واحد من هذين المعنيين كان ففيه بيان أن النص وإن وقع على القاتل الخطأ، فالقاتل عمدا مثله، بل أولى بوجوب الكفارة عليه منه، سيأتى بيان هذا إن شاء الله فى السطور الآتية:

موجب القتل شبه العمد:

والقتل شبه العمد يوجب أمرين:

١- الإثم، لأنه قتل نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق.

٢- الدية المغلظة على العاقلة - على ما سيأتى إن شاء الله.

موجب القتل العمد:

أما القتل العمد: فإنه يوجب أمورا أربعة:

١ - الإثم.　　　　٢ - الحرمان من الميراث والوصية.

٣ - الكفارة.　　　　٤ - القود أو العفو.

الحرمان من الميراث

فلا يرث القاتل من ميراث المقتول شيئا لا من ماله ولا من ديته إذا كان من ورثته، سواء كان القتل عمدا أم كان خطأ، وقاعدة الفقهاء تقول:

(من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه).

روى البيهقى عن خلاس (رضى الله عنه) أن رجلا رمى بحجر فأصاب أمه فماتت من ذلك، فأراد نصيبه من ميراثها، فقال له إخوته: لا حق لك، فارتفعوا إلى على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فقال على: حقك من ميراثها الحجر، فأغرمه الدية ولم يعطه من ميراثها شيئا.

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس للقاتل من الميراث شيء**»، والحديث معلول وقد اختلف فى رفعه ووقفه وله شواهد تقويه.

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس للقاتل شيء وإن لم يكن له وارث ، فوارثه أقرب الناس إليه ، ولا يرث القاتل شيئا**».

مثال:

الرجل يقتله ابنه، وليس له وارث غير ابنه القاتل، وللقاتل ابن، فإن ميراث المقتول يدفع إلى ابن القاتل (أى الحفيد) ويحرم القاتل.

وإلى هذا الحكم ذهب أكثر أهل العلم، وكذلك الأحناف والشافعية، وذهبت الهادوية والإمام مالك، إلى أن القتل إن كان خطأ ورث من المال دون الدية.

وقال الزهرى وسعيد بن جبير وغيرهما:

قالوا: لا يحرم القاتل من الميراث، وكذلك تبطل الوصية إذا قتل الموصى له الموصى.

وقيل فى البدائع:

القتل بغير حق جناية عظيمة، تستدعى الزجر بأبلغ الوجوه، وحرمان الوصية يصلح زاجرا، كحرمان الميراث، فيثبت.

وسواء أكان القتل عمدا أم خطأ، لأن القتل الخطأ قتل، وأنه أجاز المؤاخذة عليه عقلا، وسواء أوصى له بعد الجناية أو قبلها.

الكفارة فى حالة ما إذا عفا ولى الدم أو رضى بالدية

أما إذا اقتص من القاتل، فلا تجب عليه كفارة، فلقد روى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: (أتى النبى ﷺ نفر من بنى سليم فقالوا: إن صاحبا لنا قد أوجب، قال: فليعتق رقبة، يفد الله بكل عضو منها عضوا منه من النار).

ورواه أيضا بسند آخر عنه قال: (أتينا رسول الله ﷺ فى صاحب لنا أوجب، قال: أعتق عنه، يعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار).

القود أو العفو

القود أو العفو إما على الدية، أو الصلح على غير الدية، ولو بالزيادة عليها كما أن لولى الجناية العفو مجانا، وهو أفضل لقول الله تعالى:

﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وإن عفا ولى الدم عن القاتل، فإنه لا يبقى حق للحاكم بعد فى تعزيره، وقال مالك والليث: (يعزر بالسجن عاما، ومائة جلدة).

وقال الفقهاء:

إن الجانى إذا كان معروفا بالشر أو ظهر للحاكم أن المصلحة تقتضى عقابه فله أن يعزره بما يراه محققا للمصلحة، إما بالحبس أو السجن أو القتل.

وأصل وجوب القود أو العفو فى قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة (رضى الله عنه)أن النبى ﷺ قال: **«من قتل له قتيل فهو بخير النظرين: إما أن يفتدى ، وإما أن يقتل»**.

الأمر فى العفو أو القصاص إلى أولياء الدم، وهم الورثة فإن شاؤوا طلبوا القود وإن شاؤوا عفوا.

حتى لو عفا أحد الورثة سقط القصاص، لأن القصاص لا يتجزأ.

وروى محمد الحسن صاحب أبى حنيفة: أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أتى برجل قد قتل عمدا، فأمر بقتله، فعفا عنه بعض الأولياء، فأمر بقتله، فقال عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه): كانت النفس لهم جميعا، فلما عفا هذا، أحيى النفس فلا يستطيع أخذ حقه - يعنى الذى لم يعف - حتى يأخذ حق غيره، قال: فما ترى ؟ قال: أرى أن تجعل الدية فى ماله، وترفع عنه حصة الذى عفا عنه.

قال عمر (رضى الله عنه) وأنا أرى ذلك، قال محمد: وأنا أرى ذلك، وهو قول أبى حنيفة).

وإذا كان فى الورثة صغير، فإنه ينتظر بلوغه، ليكون له الخيار، إذ أن القصاص حق لجميع الورثة، ولا اختيار للصبى قبل بلوغه، وإذا عفا الورثة جميعا أو أحدهم على الدية، وجب على القاتل دية مغلظة، حالة فى مالة) كما سيأتى إن شاء الله ذلك مفصلا فى باب الديات.

شروط وجوب القصاص

ولا يجب القصاص إلا إذا توفرت شروط سبعة وهى:

١ – أن يكون المقتول معصوم الدم:

فلو كان حربيا أو زانيا محصنا، أو مرتدا، فإنه لا ضمان على القاتل، لا بقصاص ولا بدية، لأن هؤلاء مهدورو الدم، فلقد روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**.

٢ ، ٣ – أن يكون القاتل بالغا عاقلا:

فلا قصاص على صغير، ولا مجنون، ولا معتوه، لأنهم غير مكلفين، وليس لهم قصد صحيح أو إرادة حرة، فإذا كان المجنون يفيق أحيانا، فقتل وقت إفاقته اقتص منه، وكذلك من زال عقله بسكر فهو معتد فى شربه.

فعن الإمام مالك: أنه بلغه أن مروان بن الحكم كتب إلى معاوية بن أبى سفيان يذكر أنه أتى بسكران قد قتل رجلا، فكتب إليه معاوية: أن اقتله به، فإن كان شرب شيئا ظنه غير مسكر، فزال عقله، فقتل فى هذه الحالة فلا قصاص عليه، وفى الحديث يقول الرسول ﷺ : **«رفع القلم عن ثلاث: عن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ»**.

وقال مالك: الأمر المجمع عليه عندنا، أن لا قود بين الصبيان وأن قتلهم خطأ ما لم تجب الحدود، ويبلغوا الحلم، وإن قتل الصبى لا يكون إلا خطأ.

٤ – أن يكون القاتل مختارا:

فإن الإكراه يسلب القاتل الإرادة، ولا مسؤولية على من فقد إرادته، فإذا أكره صاحب سلطان غيره على القتل، فقتل آدميا بغير حق فإنه يقتل الآمر دون المأمور، ويعاقب المأمور.

قال الأحناف:

وإن أكره على إتلاف مال مسلم بأمر يخاف منه على نفسه، أو على عضو من أعضائه وسعه أن يفعل ذلك، ولصاحب المال أن يضمّن المكره.

وإن أكرهه على قتل غيره لم يسعه أن يقدم عليه ويصبر حتى يقتل، فإن قتله كان آثما، والقصاص على المكره إن كان القتل عمدا.

قال قوم: يقتل المأمور دون الآمر... وهو القول الآخر للشافعى.

وقال قوم فيهم مالك والحنابلة: يقتلان جميعا، إن لم يعف ولى الدم، فإن عفا ولى الدم وجبت الدية، لأن القاتل قصد استبقاء نفسه بقتل غيره، والمكره تسبب فى القتل بما يفضى إليه غالبا.

وإذا أمر مكلف غير مكلف بأن يقتل غيره، مثل الصغير والمجنون فالقصاص على الآمر لأن المباشر للقتل آلة فى يده، فلا يجب القصاص عليه، إنما يجب على المتسبب.

وإذا أمر الحاكم بالقتل ظلما فإما أن يكون المأمور عالما بأنه ظلم، أو لا يكون له علم به، فإن كان عالما بأنه ظلم ونفذ أمره وجب عليه القصاص إلا أن يعفو الولى فتجب الدية عليه، لأنه مباشر للقتل مع علمه بأنه ظلم فلا يعذر، ولا يقال: إنه مأمور من الحاكم.

لأن قاعدة الإسلام: **«أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»** كما قال رسول الله ﷺ.

وإن لم يكن عالما بعدم استحقاقه للقتل فقتله فالقصاص إن لم يعف الولى أو الدية على الآمر بالقتل دون المباشر، لأنه معذور لوجوب طاعة الحاكم فى غير معصية.

ومن دفع إلى غير مكلف آلة قتل، ولم يأمره به فقتل لم يلزم الدافع شيئا.

٥ – ألاَّ يكون القاتل أصلا للمقتول:

فلا يقتص من والد بقتل ولده، وولد ولده وإن سفل، إذا قتله بأى وجه من أوجه

العمد، بخلاف إذا ما قتل الابن أحد أبويه فإنه يقتل اتفاقا لأن الوالد سبب فى حياة ولده.

فلا يكون ولده سببا فى قتله وسلبه الحياة، بخلاف ما إذا قتل الولد أحد والديه فإنه يقتص منه لهما.

أخرج الترمذى عن ابن عمر (رضى الله عنهما) أن النبى ﷺ قال: **«لا يقتل الوالد بالولد» وهو عمل أهل المدينة ومروى عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)**.

وروى يحيى بن سعيد بن عمرو بن شعيب: (أن رجلا من بنى مدلج يقال له: قتادة حذف ابنا له بالسيف فأصاب ساقه فنزى جرحه فمات فقدم سراقة بن جعثم على عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فذكر ذلك له، فقال عمر: اعدد علىّ (ماء قديد) عشرين ومائة بعير، حتى أقدم عليك فلما قدم عليه عمر، أخذ من تلك الإبل ثلاثين حقة، وثلاثين جذعة وأربعين خَلِفة، ثم قال: أين أخو المقتول ؟ فقال: ها أنذا، قال: خذها، فإن رسول الله ﷺ قال: **«ليس لقاتل شىء»**.

وخالف فى ذلك الإمام مالك:

فرأى أنه يقاد الوالد بالولد، إذا أضجعه وذبحه، لأن ذلك عمد حقيقة، لا يحتمل غيره، فإن الظاهر فى استعمال الجارح فى القتل هو العمد.

٦ – أن يكون المقتول مكافئا للقاتل حال جنايته:

بأن يساويه فى الدين والحرية فلا قصاص على مسلم قتل كافرا، أو حرا قتل عبدا؛ لأنه لا تكافؤ بين القاتل والمقتول، بخلاف ما إذا قتل الكافر المسلم أو قتل العبد الحر، فإنه يقتص منهما.

والإسلام وإن كان ألغى الفوارق بين المسلمين فى هذا الباب، فلم يفرق بين شريف ووضيع ولا بين جميل ودميم، ولا بين غنى وفقير، ولا بين طويل وقصير، ولا بين قوى وضعيف، ولا بين سليم ومريض، ولا بين كامل الجسم وناقصه، ولا بين صغير وكبير، ولا بين ذكر وأنثى، إلا أنه اعتبر الفارق بين المسلم والكافر، والحر والعبد، فلم يجمعهما متكافئين فى الدم.

فلو قتل مسلم كافرا، أو قتل حرا عبدا، فلا قصاص على واحد منهما.

فلقد أخرج أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم وصححه عن على (كرم الله وجهه) أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا لا يقتل مؤمن بكافر»**.

وروى البخارى عن على (كرم الله وجهه) أيضا: أن أبا جحيفة قال: هل عندكم شيء من الوحى ما ليس فى القرآن، قال: لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة، قلت: وما فى هذه الصحيفة ؟ قال: المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر.

وهذا مجمع عليه بالنسبة للكافر الحربى، فإن المسلم إذا قتله فإنه لا يقتل به إجماعا.

وأما بالنسبة للذمى والمعاهد فقد اختلف فيهما أنظار الفقهاء:

فذهب الجمهور منهم:

إلى أن المسلم لا يقتل بهما، لصحة الأحاديث فى ذلك، ولم يأت ما يخالفهما.

وقالت الأحناف وابن أبى ليلى: لا يقتل المسلم إذا قتل الكافر الحربى، كما قال الجمهور.

وخالفوهم فى الذمى والمعاهد، فقالوا: إن المسلم إذا قتل الذمى أو المعاهد بغير حق فإنه يقتل بهما، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال مالك والليث:

لا يقتل المسلم بالذمى، إلا أن يقتله غيلة، وقتل الغيلة أن يضجعه فيذبحه وبخاصة على ماله، هذا بالنسبة للكافر، وأما العبد فإن الحر لا يقتل به إذا قتله بخلاف ما إذا قتل العبد الحر، فإنه يقتل به.

لما رواه الدارقطنى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (أن رجلا قتل عبده صبرا (أى حبسه) متعمدا، فجلده النبى ﷺ مائة جلدة ونفاه سنة، ومحا سهمه من المسلمين، ولم يقد به وأمره أن يعتق رقبة).

لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ [البقرة: ١٧٨] وهذا التعبير يفيد الحصر، فيكون معناه: أنه لا يقتل الحر بغير الحر، وإذا كان لا يقتل به، فإنه يلزمه قيمته بالغة ما بلغت، وإن جاوزت دية الحر، هذا إذا قتل عبد غيره.

وقال النخعى: يقتل الحر بالعبد مطلقا، أخذا بعموم قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

٧ – ألاَّ يشارك القاتل غيره فى القتل:

ممن لا يجب عليه القصاص، فإن شاركه غيره ممن لا يجب عليه القصاص، كأن اشترك فى القتل عامد ومخطئ، أو مكلف وغير مكلف، مثل الصبى والمجنون، فإنه لا قصاص على واحد منهما، وعليهما الدية لوجود الشبهة التى تندرئ بها الحدود، فإن القتل لا يتجزأ.

ويمكن أن يكون حدوثه من فعل الذى لا قصاص عليه، كما يمكن أن يكون ممن يجب عليه القصاص، وهذه الشبهة تسقط القود، وإذا سقط وجب بدله، وهو الدية.

وخالف فى ذلك: مالك والشافعى (رضى الله عنهما) قالا: (على المكلف القصاص، وعلى غير المكلف نصف الدية، ومالك يجعلها على العاقلة، والشافعية: يجعلونها فى ماله)

قتل الغيلة

وقتل الغيلة عند مالك:

أن يخدع الإنسان غيره، فيدخل بيته ونحوه، فيقتل أو يأخذ ماله.

قال مالك: الأمر عندنا أن يقتل به، وليس لولى الدم أن يعفو عنه، وذلك إلى السلطان.

وقال غيره من الفقهاء: لا فرق بين قتل الغيلة وغيره، فهما سواء فى القصاص والعفو وأمرهما راجع إلى ولى الدم.

وإذا قتلته جماعة: كان لولى الدم أن يقتل منهم من شاء، ويطالب بالدية من شاء وهو مروى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وبه يقول سعيد بن المسيب، والشعبى، وابن سيرين، وعطاء، وقتادة، وهو مذهب الشافعى وأحمد وإسحاق.

فقد قتلت امرأة هى وخليلها ابن زوجها، فكتب يعلى بن أمية إلى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وكان يعلى عاملا له، يسأله رأيه فى هذه القضية، فتوقف رضى الله عنه فى القضية، وكان أن قال على بن أبى طالب (رضى الله عنه): يا أمير المؤمنين، أرأيت لو أن نفرا اشتركوا فى سرقة جزور، فأخذ هذا عضوا، وهذا عضوا، أكنت قاطعهم، قال: نعم، قال: وذلك.

وكان أن كتب أمير المؤمنين إلى يعلى بن أمية عامله: أن اقتلهما، فلو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم).

وذهب الشافعى: إلى أن لولى المقتول أن يقتل الجميع به، وأن يقتل أيهم أراد، ويأخذ من الآخرين حصتهم من الدية، فإن كانوا اثنين وأقاد من واحد، فله أخذ نصف الدية من الثانى، وإن كانوا ثلاثة، فأقاد من اثنين، فله من الآخر ثلث الدية.

الجماعة تقتل بالواحد:

إذا اجتمع جماعة على قتل واحد، فإنهم يقتلون به جميعا، سواء أكانت الجماعة كثيرة أم قليلة، ولو لم يباشر القتل كل واحد منهم.

لما رواه مالك فى الموطأ: (أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قتل نفرا برجل واحد، قتلوه قتل غيلة، وقال: لو تمالأ (اجتمعوا) عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعا).

واشترطت الشافعية والحنابلة:

أن يكون فعل كل واحد من المشتركين فى القتل، بحيث لو انفرد كان قاتلا، فإن لم يصلح فعل كل واحد للقتل، فلا قصاص).

وقال مالك:

الأمر عندنا: أنه يقتل فى العمد الرجال الأحرار بالرجل الواحد، والنساء بالمرأة كذلك، والعبيد بالعبد كذلك أيضا.

وفى المسوى قال: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم قالوا:

(إذا اجتمع جماعة على قتل واحد، يقتلون به قصاصا) وقد رأى هؤلاء الفقهاء أن ذلك هو المصلحة؛ لأن القصاص شرع لحياة الأنفس، فلو لم يقتل الجماعة بالواحد، لكان كل من أراد أن يقتل غيره، استعان بشركاء له حتى لا يقاد منه، وبذلك تبطل الحكمة من شرعية القصاص).

وذهب ابن الزبير، والزهرى، وأهل الظاهرى:

(إلى أن الجماعة لا تقتل بالواحد، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥].

إذا أمسك رجل رجلا وقتله آخر:

إذا أمسك رجل رجلا فقتله رجل آخر، وكان القاتل لا يمكنه قتله إلا بالإمساك وكان المقتول لا يقدر على الهرب بعد الإمساك، فإنهما يقتلان، لأنهما شريكان.

وخالف فى ذلك الشافعية والأحناف فقالوا:

(يقتل القاتل ويحبس الممسك حتى يموت جزاء إمساكه للمقتول).

لما رواه الدارقطنى عن ابن عمر (رضى الله عنهما) أن النبى ﷺ قال: **«إذا أمسك الرجل الرجل وقتله الآخر ، يقتل الذى قتل ، ويحبس الذى أمسك»**، وصححه ابن القطان، وقال الحافظ ابن حجر: ورجاله ثقات.

وأخرج الشافعى عن على (رضى الله عنه) أنه قضى فى رجل قتل رجلا متعمدا وأمسكه آخر، قال: (يقتل القاتل ويحبس الآخر فى السجن حتى الموت).

ثبوت القصاص:

يثبت القصاص بما يأتى:

١ – الإقرار:

لأن الإقرار كما يقولون (سيد الأدلة)، فلقد روى مسلم والنسائى عن وائل بن حجر (رضى الله عنه) قال: إنى لقاعد مع النبى ﷺ إذ جاء رجل يقود آخر بنسعة، فقال: يا رسول الله، هذا قتل أخى، فقال: إنه لو لم يعترف أقمت عليه البينة، فقال رسول الله ﷺ : **«أقتلته»**، فقال: نعم قتلته... إلى آخر الحديث، رواه مسلم والنسائى.

٢ – يثبت بشهادة رجلين عدلين:

فعن رافع بن خديج قال: (أصبح رجل من الأنصار مقتولا، فانطلق أولياؤه إلى النبى ﷺ، فذكروا ذلك له، فقال: **«لكم شاهدان يشهدان على قتل صاحبكم»**، رواه أبو داود.

قال ابن قدامة فى (المغنى):

(ولا يقبل فيه شهادة رجل وامرأتين، ولا شاهد ويمين الطالب، لا نعلم فى هذا بين أهل العلم - خلافا - وذلك لأن القصاص إراقة دم عقوبة على جناية، فيحتاط له باشتراط الشاهدين العدلين كالحدود وسواء كان القصاص يجب على مسلم أو كافر أو عبد لأن العقوبة يحتاط لدرئها).

استيفاء القصاص:

الاستيفاء: هو توقيع العقوبة على الجانى، ويشترط لاستيفاء القصاص ثلاثة شروط:

١ – أن يكون المستحق له عاقلا بالغا:

فإن كان مستحق القصاص صبيا أو مجنونا، لم ينب عنهما أحد فى استيفائه لا أب ولا وصى ولا حاكم وإنما يحبس الجانى حتى يبلغ ويفيق المجنون.

فقد حبس معاوية هدبة بن خشرم فى قصاص حتى بلغ ابن القتيل، وكان ذلك فى عصر الصحابة ولم ينكر عليه أحد.

٢ – أن يتفق أولياء الدم جميعا على استيفائه:

وليس لبعضهم أن ينفرد به، فإن كان بعضهم غائبا، أو صغيرا، أو مجنونا، وجب انتظار الغائب حتى يرجع، والصغير حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق، قبل أن يختار لأن من كان لـه الخيار فى أمر لم يجز الافتيات عليه، لأن فى ذلك إبطال خياره.

وقال أبو حنيفة:

(للكبار استيفاء حقوقهم فى القود، ولا تنتظر لهم بلوغ الصغار، فإن عفا أحد الأولياء سقط القصاص لأنه لا يتجزأ).

٣ – ألا يتعدى الجانى إلى غيره:

فإذا كان القصاص قد وجب على امرأة حامل، لا تقتل حتى تضع حملها وتسقيه اللبأ، لأن قتلها يتعدى إلى الجنين، وقتلها قبل سقيه اللبأ يضر بـه، ثم بعد سقيه اللبأ إن وُجد من يرضعه أُعطى لـه الولد، واقتص منها، لأن غيرها يقوم على حضانته.

وإن لم يوجد من يرضعه ويقوم على حضانته تركت حتى تفطمه مدة حولين.

فلقد روى ابن ماجه، أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا قتلت المرأة عمدا لم تقتل حتى تضع ما فى بطنها إن كانت حاملا ، وحتى تكفل ولدها ، وإذا زنت لم ترجم حتى تضع ما فى بطنها إن كانت حاملا ، وحتى تكفل ولدها وكذلك لا يقتص من الحامل فى الجناية على**

الأعضاء، حتى تضع وإن لم تسقه اللبأ».

متى يكون القصاص؟

يكون القصاص متى حضر أولياء الدم، وكانوا بالغين وطالبوا به، فإنه ينفذ فورا، متى ثبت بأى وجه من وجوه الإثبات، إلا أن يكون القاتل امرأة حاملاً، فإنها تؤخر حتى تضع حملها.

بم يكون القصاص؟

الأصل فى القصاص: أن يقتل القاتل بالطريقة التى قتل بها، لأن ذلك مقتضى المماثلة والمساواة إلا أن يطول تعذيبه بذلك، فيكون السيف له أروح، لأن الله تعالى يقول:

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ويقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

وأخرج البيهقى من حديث البراء أن رسول الله ﷺ قال: **«من غرّض غرضنا له ، ومن حرّق حرقناه ، ومن غرّق غرقناه».**

وقد رضخ الرسول اليهودى بحجر كما رضخ هو رأس المرأة بحجر.

وقد قيد العلماء هذا بما إذا كان السبب الذى قتل به يجوز فعله، فإذا كان لا يجوز فعله كمن قتل بالسحر فإنه لا يقتل به لأنه محرم.

وقال بعض الشافعية: (إذا قتل بإيجار الخمر، فإنه يؤجر بالخل، وقيل: يسقط اعتبار المماثلة).

ورأى الأحناف والهادوية: أن القصاص لا يكون إلا بالسيف، لما أخرجه البزار وابن عدى عن أبى بكرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«لا قود إلا بالسيف».**

ولأن الرسول ﷺ قال: «**إذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**».

وأجيب على حديث أبى بكرة: بأن طرقه كلها ضعيفة.

هل يقتل القاتل فى الحرم:

اتفق العلماء: على أن من قتل فى الحرم فإنه لا يجوز قتله فيه، فإذا كان قد قتل خارجه ثم لجأ إليه، أو وجب عليه القتل بسبب من الأسباب كالردة ثم لجأ إلى الحرم، فقال مالك: يقتل فيه. وقال أحمد وأبو حنيفة: (لا يقتل فى الحرم، ولكن يضيق عليه، فلا يباع لـه ولا يشترى منه، حتى يخرج من الحرم، فيقتل خارجه).

سقوط القصاص:

يسقط القصاص بعد وجوبه بأحد الأسباب الآتية:

١- عفو جميع أولياء الدم أو أحدهم، بشرط أن يكون العافى عاقلا مميزا من التصرفات المحضة التى لا يملكها الصبى ولا المجنون.

٢- موت الجانى أو فوات الطرف الذى جنى به:

فإذا مات من عليه القصاص، أو فقد العضو الذى جنى به سقط القصاص لتعذر استيفائه، وإذا سقط القصاص وجبت الدية فى تركته للأولياء، عند الحنابلة وفى قول الشافعى.

أما مالك والأحناف قالوا:

لا تجب الدية لأن حقوقهم كانت فى الرقبة، وقد فاتت فلا سبيل لهم على ورثته فيما صار من ملكه إليهم.

وحجة الأولين: (أن حقوقهم معلقة فى الرقبة أو فى الذرية، وهم مخيرون بينهما فمتى مات أحدهما وجب الآخر).

٣- إذا تم الصلح بين الجانى والمجنى عليه أو أوليائه.

القصاص من حق الحاكم:

إن المطالبة بالقصاص حق لولى الدم، وتمكين ولى الدم من الاستيفاء حق للحاكم.

قال القرطبى (رحمه الله):

لا خلاف أن القصاص فى القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر، فرض عليهم النهوض بالقصاص، وإقامة الحدود وغير ذلك، لأن الله سبحانه وتعالى: طالب جميع المؤمنين بالقصاص ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعا أن يجتمعوا على القصاص، فأقاموا السلطان مقام أنفسهم فى إقامة القصاص والحدود.

وعلة ذلك: ما ذكره الصاوى فى - حاشيته على الجلالين - قال:

فحيث ثبت أن القتل العمد كان عدواناً، وجب على الحاكم الشرعى أن يمكن ولى المقتول من القاتل، فيفعل فيه الحاكم ما يختاره الولى من: القتل، أو العفو، أو الدية.

ولا يجوز للولى التسلط على القاتل من غير إذن الحاكم، لأن فيه فسادا وتخريبا، فإذا قتله الولى قبل إذن الحاكم عزر:

وعلى الحاكم أن يتفقد آلة القتل التى يقتص بها مخافة الزيادة فى التعذيب، وأن يوكل التنفيذ إلى من يحسنه، وأجرة التنفيذ على بيت المال.

الدية

تعريفها:

الدية: هى المال الذى يجب بسبب الجناية، وتؤدى إلى المجنى عليه أو وليه.

يقال: وديت القتيل: أى أعطيت ديته، وهى تنتظم ما فيه القصاص، وما لا قصاص فيه، وتسمى الدية بـ (العقل) وأصل ذلك:

أن القاتل كان إذا قتل قتيلا جمع الدية من الإبل، فعقلها بفناء أولياء المقتول، أى: شدها بعقالها ليسلمها إليهم.

يقال: عقلت عن فلان إذا غرمت عنه دية جنايته. وقد كان نظام الدية معمولا به عند العرب، فأبقاه الإسلام، وأصل ذلك قول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

وروى أبو داود، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال: (كانت قيمة الدية فى عهد رسول الله ﷺ ثمانمائة دينار، أو ثمانية آلاف درهم، ودية أهل الكتاب يومئذ النصف من دية المسلمين، قال: فكان ذلك كذلك، حتى استخلف عمر بن الخطاب (رحمه الله) فقام خطيبا فقال: ألا إن الإبل قد غلت، ففرضها عمر على أهل الكتاب ألف دينار، وعلى أهل الورق اثنا عشر ألفا، وعلى أهل البقر مائتى بقرة، وعلى أهل الشاة ألفى شاة، وعلى أهل الحلل مائتى حلة).

ملحوظة:

أهل الذهب: هم أهل مصر والشام، وأهل الورق (الفضة): هم أهل العراق، والحلة: تكون إزاراً ورداء - أو قميصاً وسروالاً - ولا تكون حلة حتى تكون ثوبين.

قال الشافعى بمصر: لا يؤخذ من أهل الذهب ولا من أهل الورق إلا قيمة الإبل بالغة ما بلغت، والمرجح: أنه لم يثبت بطريق لا شك فيه تقدير الرسول الدية بغير الإبل، فيكون عمر قد زاد فى أجناسه، وذلك لعلة جدّت واستوجبت ذلك.

حكمة الدية:

والمقصود من الدية: الزجر والردع وحماية الأنفس.

ولهذا وجب أن تكون بحيث يقاسى من أدائها المكلفون بها، ويجدون منها حرجا وألما ومشقة، ولا يجدون هذا الألم ويشعرون به إلا إذا كان مالا كثيرا ينقص من أموالهم ويضيقون بأدائه ودفعه إلى المجنى عليه أو ورثته، فهى جزاء يجمع بين العقوبة والتعويض.

قدر الدية:

الدية فرضها سول الله ﷺ وقدرها، فجعل دية الرجل الحر المسلم مائة من الإبل على أهل الإبل، ومائتى بقرة على أهل البقر، وألفى شاة على أهل الشاة، وألف دينار على أهل الذهب، واثنى عشر ألف درهم على أهل الفضة، ومائتى حلة على أهل الحلل، فأيها أحضر من تلزمه الدية لزم الولى قبولها، سواء كان ولى الجناية من أهل ذلك النوع، أو لم يكن لأنه أتى بالأصل فى الواجب عليه.

تفصيل دية الإبل:

قال أبو حنيفة وأحمد (رضى الله عنهما) فى إحدى الروايتين: دية العمد أرباع:

[٢٥ بنت مخاض، ٢٥ بنت لبون، ٢٥ حقاق، ٢٥ جذع]، وشبه العمد.

وقال الشافعى فى الرواية الأخرى هى:

[٣٠ حقة، ٣٠ جذعة، ٤٠ خلفة]، والخلفة فى بطونها أولادها.

أما دية القتل الخطأ، فقد اتفقوا على أنها أخماس:

[٢٠ جذعة، ٢٠ حقة، ٢٠ بنات لبون، ٢٠ ابن مخاض، ٢٠ بنت مخاض].

وجعل مالك والشافعى (رضى الله عنهما) مكان ابن مخاض ابن لبون.

توضيح:

الحقة من الإبل: هى التى عمرها ٣ سنوات وطعنت فى الرابعة.

والجذعة: عمرها ٤ سنوات وطعنت فى الخامسة.

بنت لبون: عمرها ٢ سنة وطعنت فى الثالثة.

بنت مخاض: عمرها سنة وطعنت فى الثانية.

القتل الذى تجب فيه الدية:

اتفق العلماء على أن الدية تجب فى القتل الخطأ، وشبه العمد، وفى العمد الذى وقع ممن فقد شرطا من شروط التكليف مثل الصغير والمجنون.

وتكون الدية أيضا فى القتل العمد الذى تكون فيه حرية المقتول ناقصة عن حرية القاتل مثل الحر الذى قتل العبد، كما تجب على النائم الذى انقلب من نومه على آخر فقتله، وعلى من سقط على غيره فيقتله، كما تجب على من حفر حفرة فتردى فيها شخص فمات، وعلى من قتل بسبب الزحام.

وجاء ذلك عن حنش بن المعتمر، عن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) قال:

(بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن، فانتهينا إلى قوم بنوا زُبية لأسد، فبينما هم كذلك يتدافعون إذ سقط رجل فتعلق بآخر، ثم تعلق الرجل بآخر، حتى صاروا فيها أربعة، فجرحهم الأسد، فانتدب له رجل بحربة فقتله وماتوا من جراحهم كلهم.

فقام أولياء الأول إلى أولياء الآخر، فأخرجوا السلاح ليقتتلوا فأتاهم على (رضى الله عنه) تفئه ذلك، فقال:

تريدون أن تقتتلوا ورسول الله ﷺ حى، إنى أقضى بينكم قضاء إن رضيتم به فهو القضاء، وإلا حجر على بعض حتى تأتوا النبى ﷺ فيكون هو الذى يقضى بينكم، فما عدا ذلك لا حق له.

اجمعوا من القبائل الذين حفروا البئر: ربع الدية، وثلث الدية، ونصف الدية، والدية كاملة.

فللأول: ربع الدية، لأنه هلك من فوقه ثلاثة.

وللثانى: ثلث الدية.

وللثالث: نصف الدية.

وللرابع: الدية الكاملة.

فـأبوا إلا أن يمضـوا، أتـوا النبـى ﷺ وهـو عنـد مقـام إبـراهيم، فقصـوا عليـه القصـة فأجازه رسول الله ﷺ، رواه الإمام أحمد.

ورواه الإمام أحمد أيضا بلفظ آخر نحو هذا، وجعل الدية على قبائل الذين ازدحموا.

الدية مغلظة ومخففة:

والدية تكون مغلظـة ومخففـة، فالمخففـة تجـب فـى القتـل الخطـأ، والمغلظـة تجـب فـى شبه العمد، وأما دية قتل العمد إذا عفا ولى الدم، فـإن الشـافعى والحنابلـة يـرون أنـه يجـب فى هذه الحال دية مغلظة.

أما أبو حنيفة:

فإنه يرى أن لا دية فى القتـل العمـد، وإنمـا الواجـب فيـه مـا اصـطلح الطرفـان عليـه، وما اصطلحوا عليه حال غير مؤجل.

وروى أحمد وأبو داود والنسائى عن عقبة بن أوس (رضـى الله عنـه) عـن رجـل مـن الصـحابة أن النبـى ﷺ قـال: **«ألا إن قتـل خطـأ العمـد بالسـوط والعصـا والحجـر فيـه ديـة مغلظة: مائة من الإبل ، منها أربعة من ثنية إلى بازل عامها ، كلهن خلفة»**.

المعانى:

معنى الثنية من الإبل: أى الجمل الذى دخل فى السنة السادسة من عمره.

ومعنى البازل: هو الجمل الذى دخل فى السنة التاسعة واكتمل قوتـه، ويقـال لـه بعـد ذلك: بازل عام، بازل عامين، بازل ثلاثة.. وهكذا.

ومعنى الخلفة: وهى الناقة الحامل.

والتغليظ لا يعتبر إلا فى الإبل خاصة دون غيرها، لأن الشارع ورد بذلك، وهذا سبيله، التوقيف والسماع الذى لا مدخل للرأى فيه.

دية المرأة:

ودية المرأة إذا قتلت خطأ نصف دية الرجل، وكذلك دية أطرافها وجراحاتها وإلى هذا ذهب أكثر أهل العلم، فقد روى عن عمر (رضى الله عنه) وعلى (كرم الله وجهه)، وزيد ابن ثابت (رضى الله عنه) أنهم قالوا فى دية المرأة:

(إنها على النصف من دية الرجل، ولم ينقل أنه أنكر عليهم أحد، فيكون إجماعا، ولأن المرأة فى ميراثها وشهادتها على النصف من الرجل).

وقيل: يستوى الرجل والمرأة فى العقل إلى الثلث ثم النصف فما بقى).

فقد أخرج النسائى والدارقطنى وصححه ابن خزيمة عن عمرو بن شعيب عن جده: أن النبى ﷺ قال: **«عقل المرأة مثل عقل الرجل حتى يبلغ الثلث من ديته»**.

دية الجنين:

إذا مات الجنين بسبب الجناية على أنه عمدا أو خطأ، ولم تمت أمه، وجب فيه غرة سواء انفصل عن أمه وخرج ميتا، أم مات فى بطنها، وسواء كان ذكرا أم أنثى.

وأما إذا خرج حيا ثم مات، ففيه الدية كاملة، فإن كان ذكرا وجبت مائة بعير، وإن كان أنثى: خمسون، وتعرف الحياة بالعطاس أو التنفس أو البكاء أو الصياح أو الحركة.

واشترط الشافعى:

فى حالة ما إذا مات فى بطن أمه: أن يُعلم بأنه قد تخلق وجرى فيه الروح، وفسره بما ظهر فيه صورة الآدمى: من يد و إصبع.

وأما مالك:

فإنه لم يشترط هذا الشرط، وقال: كل ما طرحت المرأة من مضغة أو علقة مما يُعلم أنه ولد ففيه الغرة.

قدر الغرة:

والغرة خمسمائة درهم كما قال الشعبى والأحناف.

أو مائة شاة كما فى حديث أبى هريرة عند أبى داود والنسائى.

وقيل: خمس من الإبل.

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ : (قضى أن دية الجنين غرة، عبد أو وليدة).

وروى مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قضى فى الجنين يقتل فى بطن أمه بـ (غرة) عبد أو وليدة، فقال الذى قضى عليه: كيف أغرم ما لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل، ومثل ذلك بُطل (أى يهدر) فقال الرسول ﷺ : **«إن هذا من أخوان الكهان»**.

التعزير

تعريفه:

يأتى التعزير بمعنى(التعظيم والنصرة) لقول الله تعالى: ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩].

ويأتى بمعنى الإهانة: يقال: عزر فلان فلانا، إذا أهانه زجرا وتأديبا له، على ذنب وقع منه.

والمقصود بالتعزيرفى الشرع: (التأديب على ذنب لا حد فيه ولا كفارة).

أى أنه عقوبة تأديبية يفرضها الحاكم على جناية أو معصية لم يعين الشرع لها عقوبة أو حدد لها عقوبة لم تتوفر فيها شروط التنفيذ مثل (المباشرة فى غير الفرج، وسرقة ما لا قطع فيه، وجناية لا قصاص فيها، وإتيان المرأة المرأة، والقذف بغير

الزنا).

أنواع المعاصى:

إن المعاصى ثلاثة أقسام:

١- نوع فيه حد، ولا كفارة فيه، وهى الحدود التى تقدم ذكرها الزنا واللواط والسرقة.

٢- ونوع فيه كفارة، ولا حد فيه، مثل الجماع فى نهار رمضان، والجماع فى الإحرام.

٣- ونوع لا كفارة فيه ولا حد، كالمعاصى التى تقدم ذكرها فيجب فيها التعزير.

مشروعية التعزير:

الأصل فى مشروعية التعزير ما رواه أبو داود والترمذى والنسائى والبيهقى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده (أن النبى ﷺ حبس فى التهمة) صححه الحاكم.

وإنما كان الحبس هذا حبسا احتياطيا حتى تظهر الحقيقة.

وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود عن هانئ بن نيار (رضى الله عنه) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : **«لا تجلدوا فوق عشرة أسواط ، إلا فى حد من حدود الله تعالى»**.

وقد ثبت أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كان يعزر ويؤدب بحلق الشعر والنفى والضرب، كما كان يحرق حوانيت الخمارين، والقرية التى يباع فيها الخمر، وحرق قصر سعد بن أبى وقاص بالكوفة لما احتجب فيه عن الرعية، وقد اتخذ درة يضرب بها من يستحق الضرب، واتخذ دارا للسجن، وضرب النائحة حتى بدا شعرها، وقال الأئمة الثلاثة: إنه واجب، وقال الشافعى: ليس بواجب.

الفرق بين التعزير وبين الحدود:

شرع الإسلام التعزير لتأديب العصاة والخارجين على النظام، فالحكمة فيه هى الحكمة من شرعية الحدود التى سبق ذكرها، إلا أنه يختلف عن الحدود من ثلاثة أوجه:

١- أن الحد يتساوى الناس فيها جميعا، بينما التعزير يختلف باختلافهم فإذا زل رجل كريم فإنه يجوز العفو عن زلته، وإذا عوقب عليها فإنه ينبغى أن تكون عقوبته

أخف من عقوبة من ارتكب مثل زلته ممن هو دونه فى الشرف والمنزلة.

روى أحمد وأبو داود والنسائى والبيهقى أن رسول الله ﷺ قال: **«أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم ، إلا الحدود»**.

٢- إن الحدود لا تجوز فيها الشفاعة بعد أن ترفع إلى الحاكم، بينما التعازير يجوز فيها الشفاعة.

٣- أن من مات بالتعزير فإن فيه الضمان.

فقد أرهب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) امرأة فأخمصت بطنها فألقت جنينا ميتا، فحمل دية جنينها.

وقال أبو حنيفة ومالك:

لا ضمان ولا شىء، لأن التعزير والحدود فى ذلك سواء.

صفة التعزير:

والتعزير يكون بالقول: مثل التوبيخ والزجر والوعظ، ويكون بالفعل حسب ما يقتضيه الحال، كما يكون بالضرب والحبس والقيد والنفى والعزل والرفت.

روى أبو داود: أنه أُتى النبى ﷺ بمخنث قد خضب يديه ورجليه بالحناء، فقال النبى ﷺ : **«ما بال هذا»**، فقالوا: يتشبه بالنساء فأمر به فنفى إلى البقيع، فقالوا: يا رسول الله، نقتله، فقال ﷺ : **«إنى نهيت عن قتل المصلين»**.

ولا يجوز التعزير بحلق اللحية ولا بتخريب الدور، وقلع البساتين والزروع والثمار والشجر، كما لا يجوز بجدع الأنف ولا بقطع الأذن أو الشفة أو الأنامل، لأن ذلك لم يعهد عن أحد من الصحابة.

الزيادة فى التعزير على عشرة أسواط:

تقدم حديث هانئ بن نيار: النهى فى التعزير عن الزيادة على عشرة أسواط، وقد أخذ بهذا: أحمد والليث وإسحاق وجماعة من الشافعية، فقالوا: لا تجوز الزيادة على عشرة أسواط، التى قررها الشارع.

وذهب مالك والشافعى وزيد بن على وآخرون: إلى جواز الزيادة على العشرة ولكن لا يبلغ أدنى الحدود.

قالت طائفة: لا يبلغ بالتعزير فى المعصية قدر الحد فيها، ولا على السرقة من غير حرز قدر القطع، ولا على السب من غير قذف حد القذف.

وقيل: يجتهد ولى الأمر، ويقدر العقوبة حسب المصلحة وبقدر الجريمة.

التعزير بالقتل:

والتعزير بالقتل أجازه بعض العلماء، ومنعه بعض آخر.

وقد جاء فى ابن عابدين نقلا عن الحافظ ابن تيمية: (إن من أصول الحنفية أن ما لا قتل فيه عندهم مثل القتل بالمثقل، وفاحشة الرجال إذا تكررت فللإمام أن يقتل فاعله، وكذلك له أن يزيد على الحد المقدر، إذا رأى المصلحة فى ذلك).

التعزير بأخذ المال:

ويجوز التعزير بأخذ المال، وهو مذهب أبى يوسف وبه قال الإمام مالك.

قال صاحب معين الحكام:

(ومن قال: إن العقوبة مالية منسوخة فقط غلط على مذاهب الأئمة نقلا واستدلالا، وليس بسهل دعوى نسخها، والمذعون للنسخ ليس معهم سنة ولا إجماع.

وقال ابن القيم: إن النبى ﷺ عزر بحرمان النصيب المستحق من السلب، وأخبر عن تعزير مانع الزكاة بأخذ شطر ماله.

فقال ﷺ فيما يرويه أحمد وأبو داود والنسائى : **«من أعطاها مؤتجرا فله أجرها ، ومن منعهما فإنا آخذوها وشطر ماله غرمة من غرمات ربنا»**.

التعزير من حق الحاكم:

والتعزير يتولاه الحاكم لأن له الولاية العامة على المسلمين.

وفى (سبيل الله): وليس التعزير لغير الإمام إلا لثلاثة وهم:

١ - الأول الأب:

فإن لـه تعزير ولـده الصغير للتعليم، والزجر عن سيئ الأخلاق، والظاهر أن الأم فى مسألة زمن الصبا فى كفالته لها ذلك، وللأمر بالصلاة والضرب عليها وليس للأب تعزير البالغ وإن كان سفيها.

٢ - والثانى السيد:

والسيد يعزر رقيقه (أى عبيده) فى حق نفسه، وفى حق الله تعالى على الأصح.

٣ - والثالث الزوج:

والزوج لـه تعزير زوجته فى أمر النشوز، كما صرح به الله تعالى فى القرآن الكريم وأحل لـه ضربها على ترك الصلاة ونحوها.

والظاهر أن الزوج لـه ذلك الضرب، إن لم يكف فيها الزجر لأنه من باب إنكار المنكر، والزوج من جملة من يكلف بالإنكار باليد أو اللسان أو الجنان، والمراد هنا الأولان، وكذلك يجوز للمعلم تأديب الصبيان.

الضمان فى التعزير:

ولا ضمان على الأب إذا أدب ولده، ولا على الزوج إذا أدب زوجته ولا على الحاكم إذا أدب المحكوم بشرط ألاَّ يسرف واحد منهم ويزيد على ما يحصل به المقصود.

فإذا أسرف واحد منهم فى التأديب كان متعديا، وضمن بسبب تعديه ما أتلفه.

* * *

الفصل الثالث
عذاب الدنيا وشارب الخمر

لقد جاء الإسلام إلى الدنيا ليبين الحلال والحرام، ورغّب فى تناول كل مفيد من الطعام وحرم علينا كل حرام وخبيث، ونهانا عن شرب كل ما يخمر العقل ويفسده، وجعل الجلد والضرب المبرح لكل من يتناول ويشرب جميع أنواع الخمور مهما كانت أسماؤها وألوانها وتلطف وتدرج فى تحريم الخمر، كما جاء فى الآيات التالية:

١ - قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩].

٢ - ثم قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣].

٣ - ثم جاء بتحريمها نهائيا فقال جل وعلا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

فتعال يا عزيزى القارئ نخوض فى بحور الخمر ومحيطاته لنعرف كل صغيرة كبيرة عن الخمر ومسمياته، ومن أين ينتج وحكم من يشربه فى الدنيا وعذابه فى الآخرة، ولنبدأ بتعريفه:

ما هى الخمر:

الخمر: هى تلك السوائل المعروفة المعدة بطريق تخمر بعض الحبوب أو الفواكه، وتحول النشا أو السكر الذى تحتويه إلى غول(أى كحول) بواسطة بعض كائنات حية لها القدرة على إفراز مواد خاصة ليصبح وجودها ضروريا فى عملية التخمر.

وقد سميت خمرا؛ لأنها تخمر العقل وتستره: أى تغطيه وتفسد إدراكه.

الخمر فى الأحاديث النبوية:

١- روى البخارى ومسلم، أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) خطب على منبر رسول الله ﷺ فقال: **«أما بعد ، أيها الناس: إنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة أشياء من العنب ، والتمر ، والعسل ، والحنطة (القمح) ، والشعير ، والخمر ما خامر العقل».**

٢- روى مسلم عن جابر (رضى الله عنه) أن رجلا من اليمن سأل رسول الله ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم، يقال له: المزر، فقال رسول الله ﷺ : **«أمسكر هو»**، قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ : **«كل مسكر حرام.. إن على الله عهدا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال»**، قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال، قال: **«عرق أهل النار ، أو قال: عصارة أهل النار».**

٣- وروى البخارى ومسلم وأحمد عن أبى موسى الأشعرى (رضى الله عنه) قال: قلت يا رسول الله أفتنا فى شرابين كنا نصنعهما باليمن (البتع) وهو من العسل حين يشتد (يغلى ويتخمر) و (المزر) وهو من الذرة والشعير ينبذ حتى يشتد، قال: وكان رسول الله ﷺ قد أوتى جوامع الكلم بخواتيمه، قال: **«كل مسكر حرام».**

٤- وعن على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) أن رسول الله ﷺ نهاهم عن الجعة وهى من نبيذ الشعير (أى البيرة).

٥- وفى السنن عن النعمان بن بشير (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من العنب خمرا ، وإن من التمر خمرا ، وإن من العسل خمرا ، وإن من البر خمرا ، أى القمح ، وإن من الشعير خمرا».**

٦- وروى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: (ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا الذى تسمونه الفضيخ، إنى لقائم أسقى أبا طلحة، وأبا أيوب، ورجالا من أصحاب النبى ﷺ فى بيتنا، إذ جاء رجل فقال: هل بلغكم

الخبر، فقلنا لا، فقال: إن الخمر قد حرمت، فقال يا أنس: أرق هذه القلال، قال: فما سألوا عنها، ولا راجعوها بعد خبر الرجل).. وهكذا يفعل الإيمان بأهله.

٧- وعن عائشة (رضى الله عنها) قالت: (كل مسكر حرام، وما أسكر (الفرق) منه (مكيال) فملء الكف منه حرام).

أنواع الخمور

توجد الخمور فى الأسواق بأسماء مختلفة، وقد تقسم إلى أقسام خاصة باعتبار ما تحويه من النسب المئوية من الكحول، وإليك بعضا منها:

١ - البراندى، والوسكى، والروم، والليكير، وما يستجد من أسماء.

ونسبة الكحول فيها من ٤٠٪ إلى ٦٠٪.

٢ - الجن، والهولاندى، والجنيفا.

ونسبة الكحول فيها ٣٣٪ إلى٤٠٪.

٣ - البورت، والشرى، والماديرا.

ونسبة الكحول فيها من ١٥٪ إلى٢٥٪.

٤ - الكلارت، والهوك، والشمبانيا، والبرجاندى.

ونسبة الكحول فيها من ١٠٪ إلى ١٥٪.

٥ - البيرا، والأيل، والبورتر، والإستوت، والميونخ.

ونسبة الكحول فيها من ٢٪ إلى ٩٪.

٦ - البوظة، والقصب المتخمر.

ونسبة الكحول فيها أقل من ٥٪.

شرب العصير والنبيذ قبل التخمير:

أخرج مسلم وغيره من حديث ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه كان ينقع للنبى ﷺ الزبيب فيشربه اليوم والغد وبعد الغد إلى مساء الثالثة، ثم يأمر به فيسقى الخادم أو يهراق.

وأخرج أحمد عن ابن عمرفى العصير، قال: (اشرب ما لم يأخذه شيطانه، قيل: وفى كم يأخذه شيطانه، قال: فى ثلاث).

وقال أبو هريرة (علمت أن النبى ﷺ كان يصوم، فتحينت فطره بنبيذ صنعته فى دباء، ثم أتيته به، فإذا هو ينش (يغلى) فقال: **«اضرب بهذا الحائط ، فإن هذا شراب من لا يؤمن بالله واليوم الآخر»** رواه أبو داود النسائى وابن ماجه.

أضرار الخمر

لو سألنا جميع العلماء، سواء علماء الدين أو الطب أو الأخلاق أو الاجتماع أو الاقتصاد وأخذنا رأيهم فى تعاطى المسكرات لكان جواب الكل واحدا، وهو منع تعاطيها منعا باتا، لأنها مضرة ومفسدة وخبيثة وملعونة، وهذا كل ما قالوه:

علماء الدين:

قالوا: إنها محرمة، وما حرمت إلا أنها أم الخبائث، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) قال: (الخمر أم الخبائث).

وعن عبد الله بن عمرو أيضا (رضى الله عنهما) قال: (الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر، ومن شرب الخمر ترك الصلاة، ووقع على أمه وخالته وعمته).

وعن أنس بن مالك (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **«لعن فى الخمر عشرة: عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقيها ، وبائعها ، وآكل ثمنها ، والمشترى لها ، والمشترى له»**.

وعلماء الطب:

قالوا: الخمر من أعظم الأخطار التى تهدد نوع البشر، لا بما تورثه مباشرة من الأضرار السامة فحسب، بل بعواقبها الوخيمة أيضا، إذ أنها تمهد السبيل إلى مرض السل، وهو توهن البدن، وتجعله أقل مقاومة وجلدا فى كثير من الأمراض وخاصة فى الكبد والأعصاب، وهى من أهم دواعى الجنون والشقاوة والإجرام، والعوز، والبؤس، وهى جرثومة الإفلاس، والمسكنة والذل.

علماء الأخلاق:

قالوا: لكى يكون الإنسان محافظا على الرزانة والعفة والشرف، النخوة، والمروءة، يلزم عدم تناوله شيئا يضيع به هذه الصفات الحميدة.

وعلماء الاجتماع:

قالوا: لكى يكون المجتمع الإنسانى على غاية من النظام والترتيب يلزم عدم تعكيره بأعمال تخل بهذا النظام، وعندها تصبح الفوضى سائدة، والفوضى تخلق التفرقة والتفرقة تفيد الأعداء.

وعلماء الاقتصاد:

يقولون: إن كل درهم نصرفه لمنفعتنا فهو قوة لنا وللوطن، وكل درهم نصرفه فى مضرتنا فهو خسارة علينا وعلى وطننا فكيف بهذه الملايين التى تذهب سدى على شرب المسكرات على اختلاف أنواعها، وتؤخرنا ماليا وتذهب بمروءتنا ونخوتنا.

المخدرات

انتشرت المخدرات فى البلاد على اختلاف أنواعها وأسمائها، مثل: الحشيش، والأفيون، والبانجو، والهروين، والكوكايين، والأدخنة مثل السجائر، والشيشة، والمدغ، والنشوق، والمعسل، والتبغ... كل هذه الأنواع خبيثة، حيث يقول الله تعالى:

﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

يقــول ســبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥١].

ويقول جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وتعاطى هذه المواد سواء بالشرب أو الأكل أو الشم محرمة لأنها تؤدى إلى مضار جسيمة ومفاسد كثيرة، وتفسد العقل وتفتك بالبدن، ولقد قال بعض علماء الحنفية: (إن من قال بحل الحشيش زنديق مبتدع) وقال ابن تيمية (رحمه الله): (إن الحشيشة حرام يحد متناولها كما يحد شارب الخمر...).

وقال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

(إن من قال: إن الحشيشة لا تسكر، وإنما هى مخدر، مكابر، فإنها تحدث ما تحدثه الخمر من الطرب والنشوة).

والاتجار بهذه المواد حرام، والربح الناجم عنها حرام حيث قال رسول الله ﷺ : **«والذى نفسى بيده لا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده فى النار ، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولا يمحو السيئ بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»**.

حد شارب الخمر فى الدنيا

اتفق الفقهاء على وجوب حد شارب الخمر، وعلى أن حده الجلد ولكنهم مختلفون فى مقداره، وإليك عزيزى القارئ المقادير التى اختلفوا فيها وهى:

١- ثمانون جلدة: وبها قال مالك الثورى وأبو حنيفة ومن تبعهم لإجماع الصحابة، فإنه روى أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) استشار الناس فى حد الخمر فقال عبد الرحمن بن عوف: (اجعله كأخف الحدود - ثمانين - فضرب عمر

ثمانين وكتب به إلى خالد بن الوليد وأبى عبيدة عامر بن الجراح فى الشام).

٢- أربعون جلدة: أن الجلد أربعون، وهو اختيار أبى بكر وهو أحد علماء الحنابلة، ومذهب الشافعى، لأن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) جلد الوليد بن عقبة أربعين جلدة ثم قال: كما جاء فى حديث رواه مسلم:

(جلد رسول الله ﷺ أربعين، وأبو بكر الصديق (رضى الله عنه) أربعين، وعمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ثمانين، وكل سُنَّة وهذا أحب إلىّ).

وعن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: أُتى رسول الله ﷺ برجل قد شرب الخمر، فضربه بالنعال نحوا من أربعين، ثم أتى به أبو بكر الصديق فصنع مثل ذلك، ثم أتى به عمر ابن الخطاب، فاستشار الناس فى الحدود، فقال ابن عوف: أقل الحدود ثمانون (يشير إلى حد القذف فإنه أقل حد) فضربه عمر، رواه البخارى ومسلم.

وفعل رسول الله ﷺ حجة لا يجوز تركه بفعل غيره، ولا ينعقد الإجماع على ما خالف فعل النبى وأبى بكر وعلىّ، فتحمل الزيادة من عمر، على أنها تعزير يجوز فعله إذا رآه الإمام إذا كانت هناك مصلحة.

ويرجح هذا: أن عمر كان يجلد الرجل القوى ثمانين، ويجلد الرجل الضعيف أربعين.

ولقد روى قبيص بن ذؤيب (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: **«من شرب الخمر فاجلدوه ، فإن عاد فاجلدوه ، فإن عاد فاجلدوه ، فإن عاد فاقتلوه فى الثالثة أو الرابعة»**، فأتى برجل قد شرب فجلده، ثم أتى به فجلده، ثم أتى به فجلده، ورفع القتل، وكانت رخصة.

ولا يجوز التداوى بالخمر لأنها محرمة، فلقد روى أبو داود عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال: **«إن الله أنزل الداء والدواء ، فجعل لكل داء دواء ، فتداووا ولا تتداووا بحرام»**.

عذاب الدنيا فى السارق

إن الإسلام قد احترم المال، من حيث أنه عصب الحياة، واحترم ملكية الأفراد لـه، وجعل حقهم فيه حقا مقدسا، لا يحل لأحد أن يعتدى عليه بأى وجه من الوجوه، ولهذا: حرم الإسلام: السرقة والغصب والاختلاس والخيانة والربا والغش والتلاعب بالكيل والوزن والرشوة.

واعتبر كل مال أخذ بغير سبب مشروع أكلا للمال الباطل.

وشدد الإسلام فى السرقة، فقضى بقطع يد السارق التى من شأنها أن تباشر السرقة وفى ذلك حكمة بينة: إذ أن اليد الخائنة بمثابة عضو مريض يجب بتره ليسلم الجسم، والتضحية بالبعض من أجل الكل مما اتفقت عليه الشرائع السماوية والعقول، كما أن فى قطع يد الساق عبرة، لمن تحدثه نفسه بالسطو على أموال الناس، فلا يجرؤ أن يمد يده إليها، وبهذا تحفظ الأموال وتصان.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة: ٣٨].

تعريف السرقة:

السرقة: هى أخذ الشىء فى خفية، يقال: استرق السمع، أى (سمع مستخفيا) ويقال: هو يسارق النظر إليه: إذا اهتبل غفلته لينظر إليه، وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحجر: ١٨].

فسمى الاستماع فى خفاء استراقا، وفى القاموس: السرق والاستراق مستترا لأخذ مال الغير من حرز، والسارق عند العرب: هو من جاء مستترا إلى حرز، فأخذ منه ما ليس لـه.

والسرقة تنتظم أمورا ثلاثة:

١- أخذ مال الغير. أن يكون هذا الأخذ على جهة الاختفاء والاستتار.

٢- أن يكون المال محرزا.

أنواع السرقة:

١- نوع منها يوجب التعزير.   ونوع منها يوجب الحد.

والسرقة التى توجب التعزير: هى السرقة التى لم تتوفر فيها شروط إقامة الحد، وقد قضى الرسول ﷺ بمضاعفة الغرم على من سرق ما لا قطع منه، قضى بذلك فى سارق الثمار المعلقة، وسارق الشاة من المرتع.

ففى الصورة الأولى:

أسقط القطع عن سارق الثمر، والكثر (جمار النخل)، وحكم أن من أصاب شيئا منه بفمه وهو محتاج إليه فلا شىء عليه، ومن خرج منه بشىء فعليه غرامة مثليه والعقوبة، ومن سرق منه شيئا فى جرينه (الجرن) فعليه القطع إذا بلغت قيمة المسروق النصاب الذى يقطع فيه.

وفى الصورة الثانية:

قضى فى الشاة التى تؤخذ من مرتعها بثمنها مضاعفا وضرب نكال (عبرة لغيره) وقضى فيما يؤخذ من عطنه بالقطع، إذا بلغ النصاب الذى يقطع فيه سارقه، رواه أحمد والنسائى والحاكم وصححه.

المختلس والمنتهب والخائن غير السارق:

ولهذا لا يعتبر الخائن ولا المنتهب ولا المختلس سارقا، ولا يجب على واحد منهم القطع وإن وجب التعزير، فعن جابر (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: **«ليس على خائن ولا منتهب ولا مختلس قطع»**، رواه أصحاب السنن والحاكم والبيهقى وصححه الترمذى.

ملاحظة:

١- الخائن: هو الذى يأخذ المال ويظهر النصح للمالك.

٢- المنتهب: هو الذى يأخذ المال غصبا معتمداً على القوة.

٣- المختلس: هو من يخطف المال جهرا ويهرب.

وروى مالك فى الموطأ، عن محمد بن شهاب الزهرى (رضى الله عنه) قال: (إن مروان ابن الحكم أتى بإنسان قد اختلس متاعا، فأراد قطع يده، فأرسل إلى زيد بن ثابت يسأله عن ذلك، فقال زيد: ليس فى الخلسة قطع).

جحد العارية:

ومما ما هو متردد فيه: أن يكون سرقة أو لا يكون، جحد العارية (الذى يستلف) ومن ثم فقد اختلف الفقهاء فى حكم ذلك.

فقال الجمهور: لا يقطع من جحدها، لأن القرآن والسنة أوجبا القطع على السارق، والجاحد ليس سارقا، وذهب أحمد وإسحاق وزفر والخوارج وأهل الظاهر، قالوا: إلى أنه يقطع.

فلقد روى مسلم وأحمد والنسائى عن عائشة (رضى الله عنها) قالت:

(كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبى ﷺ بقطع يدها فأتى أهلها أسامة بن زيد (رضى الله عنه) فكلموه، فكلم النبى ﷺ فيها، فقال النبى ﷺ : **«يا أسامة لا أراك تشفع فى حد من حدود الله عز وجل»**، ثم قام النبى ﷺ خطيبا فقال: **«إنما هلك من كان قبلكم بأنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه ، والذى نفسى بيده لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»**، فقطع يد المخزومية.

الصفات التى يجب اعتبارها فى السارق:

١- التكليف: بأن يكون السارق بالغا عاقلا، فلا حد على مجنون ولا صغير إذا سرق.

٢- الاختيار: بأن يكون السارق مختارا فى سرقته، وليس مكرها على السرقة.

٣- ألاَّ يكون للسارق فى الشىء المسروق شبهة، ولهذا لا يقطع الأب ولا الأم بسرقة مال ابنهما، لقول رسول الله ﷺ : **«أنت ومالك لأبيك»**، وكذلك لا يقطع الابن بسرقة مال الأب أو الأم، ولا الجد والجدات، وأبناء الأبناء وذوو الأرحام مثل العمة والخالة والأخت والعم والخال والأخ، لأن القطع يفضى إلى قطيعة الرحم التى أمر الله بها أن توصل، وكذلك الزوجين، والخادم، وقال البعض: يقطع من سرق هؤلاء لانتفاء الشبهة.

ولا يقطع يد الخادم الذى يخدم سيده بنفسه، فعن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) قال: (جاء رجل إلى عمر بغلام له فقال: اقطع يده فإنه سرق مرآة لامرأتى، فقال عمر (رضى الله عنه): لا قطع عليه، وهو خادمكم أخذ متاعكم).

ولا قطع فى عام المجاعة: فلقد روى مالك فى الموطأ، أن رقيقا لحاطب سرقوا ناقة لرجل من (مزينة) فانتحروها، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب، فأمر عمر كثير بن الصلت أن يقطع أيديهم، ثم قال عمر: أراك تجيعهم، ثم قال عمر: والله لأغرمنك غرما يشق عليك، ثم قال للمزنى: كم ثمن ناقتك ؟ فقال المزنى: كنت والله أمنعها من أربعمائة درهم، فقال عمر: اعطه ثمانمائة درهم).

صفات المال المسروق:

١- أن يكون المال المسروق مما يتمول ويملك ويحل بيعه وأخذ العوض عنه، فلا قطع على من سرق الخمر والخنزير، حتى ولو كان المالك لهما ذميا لأن الله حرم ملكيتهما.

٢- ولا قطع على سرقة أدوات اللهو مثل: العود، والمزمار، الكمنج، لأنها آلات لا يجوز استعمالها عند كثير من أهل العلم.

٣- ولا قطع لسارق الماء، والثلج والكلأ، الملح، والتراب.

٤- وسرق المال المباح الأصل كالأسماك والطيور ما لم تحرز، حيث قال عبد الله ابن يسار: أتى عمر بن عبد العزيز برجل سرق دجاجة، فأراد أن يقطعه، فقال له سالم بن عبد الرحمن: قال عثمان (رضى الله عنه): لا قطع فى الطير.

٥- ولا قطع فى الطعام الرطب كاللبن واللحم والفواكه الرطبة وإن بلغت قيمة المسروق منه نصاب السرقة.

٦- وذهب بعض العلماء إلى أن القطع يثبت بسرقة القليل والكثير لعموم الآية، لما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الجمل فتقطع يده»**.

عقوبة السرقة

إذا ثبتت جريمة السرقة وجب إقامة الحد على السارق، فتقطع يده اليمنى من مفصل الكف وهو الكوع لقول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨].

ولا يجوز العفو عنها من أحد، لا من المجنى عليه ولا من الحاكم، كما لا يجوز أن تستبدل بها عقوبة أخرى أخف منها، أو تأخير تنفيذها أو تعطيلها.

فإذا سرق ثانيا تقطع رجله، ثم إن الفقهاء اختلفوا فيما إذا سرق ثالثا بعد قطع يده ورجله، فقال أبو حنيفة: يعزر ويحبس.

وقال الشافعى وغيره: تقطع يده اليسرى، ثم إذا عاد إلى السرقة تقطع رجله اليمنى، ثم إذا سرق بعد ذلك يعزر ويحبس.

حسم يد السارق:

وتحسم يد السارق بعد القطع، فتكوى بالنار، أو تتخذ أى طريقة من الطرق حتى ينقطع الدم، فلا يتعرض المقطوع للتلف والهلاك.

فلقد روى الدارقطنى والحاكم والبيهقى وصححه ابن حبان، عن أبى هريرة (رضى

الله عنه) أن رسول الله ﷺ أُتى بسارق قد سرق شملة، فقالوا: يا رسول الله، إن هذا قد سرق، فقال رسول الله ﷺ : **«ما أخاله سرق»**، فقال السارق: بلى يا رسول الله، فقال: **«اذهبوا به فاقطعوه ثم احسموه»**، ثم ائتونى به، فقطع فأتى به فقال: **«تب إلى الله»**، قال: قد تبت إلى الله، فقال رسول الله ﷺ : **«تاب الله عليك»**.

اجتماع الضمان والحد:

إذا كان المسروق قائما وموجودا رد إلى صاحبه لقول رسول الله ﷺ : **«على اليد ما أخذت حتى تؤديه»**، فإذا تلف المسروق فى يد السارق ضمن ضمن بدله وقطع، ولا يمنع أحدهما الآخر، لأن الضمان الحق الآدمى، والقطع يجب لله تعالى.

وقال آخرون: إذا كان السارق موسرا دفع الضمان، وإن كان فقيرا، لم يكن عليه شىء.

* * *

الخاتمـة

إلهى ومولاى: أنت الأول فلا شىء قبلك، وأنت الآخر فلا شىء بعدك، وأنت الظاهر فلا شىء فوقك، وأنت الباطن فلا شىء دونك.

بدأت بحثى هذا بالثناء عليك، وقدمت الحمد والشكر والخضوع إليك، لما أفضت علىّ بواسع علمك، وجميل حلمك ووافر رحمتك، حتى وضحت بعونك عذابك وابتلاءاتك فى الحياة الدنيا، وصنوف انتقامك للمارقين من عبادك، وها أنذا اليوم:

أبكى بكاء مرًّا، وقلبى يتقطع حزنا على بعض ما أراه من حولى: الخمر ينتشر، العرى يتفشى، والحرمات تنتهك، والعبادات تهمل.

وأقول فى نفسى: أما تخافون يا عباد الله أن تعود الزلازل والبراكين وتنتشر أمراض جديدة فوق ما عندكم، والبلاءات تشتد وتكثر عليكم، فيا رب العباد يا رحمن، يا رحيم وفق عبادك إلى الطريق المستقيم، وقوّهم على محاربة الشيطان الرجيم، وارفق بهم فأنت القوى العزيز الحكيم، وأنت القادر على ذلك وأنت نعم المولى ونعم النصير، آمين.

مصطفى محمد محمد عنبوه

* * *

الفهــرس

* * *